الأنوار القدسية

في معرفة قواعد الصوفية

تأليف

الإمام العلامة عبد الوهاب الشعراني

٨٩٨هـ - ٩٧٣م

حققه وقدم له

طه عبد الباقي سرور

السيد محمد عيد الشافعي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني

في بيان نبذة من آداب المريد مع شيخه

اعلم يا أخي، أن عمدة الأدب مع الشيخ، هو المحبّة له، فمن لم يبالغ في محبة شيخه بحيث يؤثره على جميع شهواته، لا يفلح في الطريق؛ لأن محبة الشيخ إنما هي مرتبة إدمان، يترقى المريد منها إلى مرتبة الحق جلّ وعلا، ومن لم يحب الواسطة بينه وبين ربه التي من جملتها رسول الله ﷺ فهو منافق، والمنافق في الدرك الأسفل من النار، إذا علمت ذلك فلْيُذكر لك بعض صفات المحبين لأشياخهم، لتعرف صدقك من كذبك.

فأقول وبالله التوفيق: أجمع أهل الطريق على أن من صفات المريد الصادق في محبة الشيخ أن يكون تائباً من جميع الذنوب، متطهراً من سائر العيوب.

فمن تلطخ بالذنوب وادعى محبة شيخه فهو كاذب، وكما أنه لا يحب شيخه فكذلك شيخه لا يحبه، وإذا لم يحبه شيخه فالحق تعالى كذلك لا يحبه، قال تعالى: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» وقال «إن الله لا يحب المفسدين» «إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً» «إن الله لا يهدي كيد الخائنين» ونحوها من الآيات. وأجمعوا على أن من شرط المحب لشيخه أن يصم أذنه عن سماع كلام أحد في الطريق غير شيخه، فلا يقبل عذل عاذل[1]، حتى لو قام أهل مصر كلهم في صعيد واحد لم يقدروا على أن ينفروه من شيخه، ولو غاب عنه الطعام والشراب أياماً لاستغنى عنها بالنظر إلى شيخه لتخيله في باله، وبلغنا عن بعضهم أنه لما دخل هذا المقام سمن وعبل من نظره إلى أستاذه.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: ولقد تجسَّد لي مرة حبي لشيخي أبي مدين رضي الله عنه، فكنت لا أقدر أن أنظر إليه، وكان يخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه، قال: ولقد تركني

---

(١) العاذل: هو اللائم.

أياماً لا أشبع طعاماً، وكانوا كلما قدموا إليَّ المائدة، تقف المحبة على حرفها، وينظر إليَّ ويقول لي بلسان أسمعه بأذني: تأكل وأنت تشاهدني! فأمتنع من الطعام، ولا أجد جوعاً، وأمتلىء من الحب، حتى سمنت وعبّلت من نظري إليه، فقام لي ذلك مقام الغذاء، أذوق ذواقاً ولا أجد جوعاً ولا عطشاً، وكان الحب لا يبرح نصب عيني في قيامي وقعودي وحركتي وسكوني.

لطائف الحب

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من ألطف سكرات الحب الشغل بالحب عن متعلقه، كما حكي أن ليلى جاءت إلى مجنونها، وهو يصيح: ليلى، ليلى، ويأخذ الجليد فيلقيه على فؤاده، فيذوب من حرارة فؤاده، فسلمت ليلى عليه وهو في ذلك الحال، وقالت له: أنا محبوبك، أنا مطلوبك، أنا قرة عينك، أنا ليلى، فقال: إليك عني، فإن حبك شغلني عنك.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: ألطف ما في الحب ما وجدته في نفسك من العشق المفرط، والشوق المقلق، حتى منعك ذلك النوم ولذة الطعام ولا يدرى ذلك الحب فيمن، ولا يتعين لك محبوب، فإن من ذلك تترقى إلى محبة الله عز وجل المطلقة. قالوا: ومن أصعب ما في الحب أن يصير المريد يحب الهجر، ويتلذذ به إذا علم أن شيخه أحب هجره، لأن تخليص حظ النفس من حظ الشيخ عسير جداً، وحاصله أن المريد يحب الهجر من حيث كونه محبوباً لشيخه لا من حيثية أخرى، لأن الحب للشيخ عمدته الوصل لا الهجر.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: حقيقة حب الشيخ أن يحبَّ الأشياء من أجله، ويكرهها من أجله، كما هو الشأن في محبة ربنا عز وجل، ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث «أن عبداً يأتي يوم القيامة بكثير صلاة، وصيام، وحج، وصدقة، وتشهد له الملائكة بذلك، فيقول الله عز وجل: انظروا هل والى لي ولياً، أو عادى لي عدواً؟»

صفات المحبين

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والسبعين بعد المائة من الفتوحات، أن جملة أوصاف المحبين أن يكون أحدهم مقتولاً تالفاً في محبوبه سائراً إلى حضرته على الدوام، دائم السهر كامن الغم، راغباً في الخروج من كل شيء يشغله عنه من شهوات الدنيا والآخرة، فهو متبرم من صحبة كل شيء يحجبه عن محبوبه، كثير التأوه يستريح إلى كلام محبوبه وذكر اسمه، دائم الموافقة لمحاب محبوبه، خائف من ترك الحرمة في إقامة خدمته، يستقل الكثير

من نفسه في حق محبوبه، ويستكثر القليل من محبوبه، يعانق طاعة محبوبه، ويجانب مخالفته، خارج له عن نفسه بالكلية، لا يطلب الدية في قتله، يصبر على الضرّاء التي تنفر منها الطباع، قيّاماً بما كلفه محبوبه، دائم الهيام في محبوبه، وقد وطن نفسه على محبة كل شيء يريده محبوبه، ليس له معه نفس، بل كله لمحبوبه، يعاتب نفسه في حق محبوبه، ولا يعاتب قط محبوبه، غيور على محبوبه من نفسه، فيود أنه لا يراه مع شهوته لرؤيته، لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب، ولا النقص بجفائه له، ناس حظ نفسه، ذاكر حظ محبوبه، مجهول النعوت كأنه سالٍ وليس بسال، لا يفرق من سكره بين الوصل والهجر، لا يقول قط لمحبوبه لم فعلت كذا؟ أو قلت كذا؟ سره علانية، مسرور محزون، مقامه الخرس، حاله يترجم عنه لسكره من المحبة، يختار مراضي محبوبه على جميع أغراض نفسه.

قال الشيخ محيي الدين: ومن ألطف ما بلغنا عن بعض المحبين أنه دخل على شيخ فرآه يتكلم في المحبة فما زال ذلك المحب ينحل ويذوب ويسيل عرقاً حتى تحلل جسمه كله على الحصير بين يدي الشيخ وصار بركة ماء، فدخل بعض أصحاب ذلك المحب على الشيخ فقال له: أين فلان؟ فقال الشيخ: هو ذا! وأشار إلى ذلك الماء ووصف له القصة فتعجب الحاضرون من ذلك.

قال الشيخ محيي الدين: وهو تحليل غريب واستحالة عجيبة حيث تلطفت كثافته حتى صار ماء!!!

لغة العاشقين

واعلم أن من صفات المحبين أنهم يتكلمون بلسان المحبة، والعشق، والسكر، لا بلسان العلم، والعقل، والتحقيق، كما أجاب بذلك الخطاف سليمان عليه الصلاة والسلام.

وذلك أن خَطَّافاً راود خطافةً في قبة سليمان عليه السلام وقال لها: لقد بلغ من حبي لك أن لو قلتِ لي: اهدم القبة على سليمان لفعلت.

فحملت الريح كلامه إلى سليمان، فقال له: ما حملك على ما قلت وأنت عاجز؟ فقال: مهلاً يا نبيّ الله، أنا عاشق، والعشاق إنما يتكلمون بلسان عشقهم وسكرهم، لا بلسان العلم والعقل، فضحك سليمان من قوله ولم يعاقبه.

قلت: وفي هذه القصة عذر عظيم لأهل المحبة في أشعارهم «لسمنون وسيدي عمر الفارض وأضرابهما» فإنهم تكلموا بلسان العشق والسكر وإلا فأين تعقل قول سيدي عمر في تائيته؟:

فطوفان نوح عند نوحي كأدمعي وإيقاد نيران الخليل كلوعتي
ولولا زفيري أغرقتني ادمعي ولولا دموعي أحرقتني زفرتي
وحزني ما يعقوب بث أقله وكل بلا أيوب بعض بليتي

إلى آخر ما قال، فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلى الإنكار والله أعلم.

فاعرض يا أخي هذه الصفات التي ذكرتها لك في المحبة للشيخ على نفسك، فإن رأيت نفسك متخلقاً بها فاشكر الله تعالى فإنك سوف تترقى من ذلك إلى محبة الله عز وجل من طريق السلوك، فإن محبة الشيوخ واحترامهم من احترام الحق تعالى ومحبته.

وقد أنشد الشيخ محيي الدين في أول الباب الأحد والثمانين ومائة من الفتوحات:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة اللّه فقم بها أدباً باللّه باللّه
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم على الدلالة تأييداً على اللّه
كالأنبياء تراهم في محاربهم لايسألون من اللّه سوى اللّه
فإن بدا منهم حال تولّههم عن الشريعة فاتركهم مع اللّه
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثراً فإنهم ذاهلون العقل في اللّه
لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنبا عن اللّه

وقوله في البيت الأول: ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله، أي هي من حرمة الله لأمره تعالى بتوقير الشيوخ، وليس المراد أننا نعظم الشيخ كما نعظم الله تعالى فافهم.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: المريد يترقى في محبة شيخه إلى حد يصير يتلذذ بكلام شيخه له كما يتلذذ بالجماع، فمن لم يعمل إلى هذه الحالة فما أعطى الشيخ حقه من المحبة.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن الشيوخ رضي الله عنهم نواب الشارع ﷺ في إرشاد جميع الناس بل هم الورثة للرسل على الحقيقة ورثوا علوم شرائعهم غير انهم لا يُشَرِّعون، فلهم حفظ الشريعة في العموم، وما لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب من الميل إلى غير مرضاة الله ومراعاة الآداب الخاصة بأهل الحضرة الإلهية وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب في العالم، فإن الطبيب لا يعرف الطبيعة إلا أنما هي مدبرة للبدن الإنساني خاصة، بخلاف العالم بعلم الطبيعة فإنه يعلمها مطلقاً وإن لم يكن طبيباً، وقد يجمع الشيخ الأمرين.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: العلماء بوابون حضرات الأسماء والصفات، وأصحاب الموهب الإلهي بوابون حضرة الذات.

وسمعته مرة أخرى يقول: مرتبة هؤلاء المربين أنهم يعلمون الناس الآداب مع الحق ويجمعون قلوبهم على الله.

وسمعته يقول: علامة الشيخ الذي يجب الأدب معه أن يكون عارفاً بالكتاب والسنة، قائلاً بها في ظاهره، متحققاً بها في سره، يراعي حدود الله ويوفي بعهد الله، لا يتأول في الورع بل يأخذ بالاحتياط في سائر أحواله، يشفق على جميع الأمة، لا يمقت أحداً من العصاة، بل يتلطف به، ويدعوه إلى الخير برحمة ورفق، جوده مطلق على البر والفاجر والشاكر والجاحد كأن جميع الخلق عائلته.

ثم اعلم يا أخي أن أحداً من السالكين لم يصل إلى حالة شريفة في الطريق أبداً إلا بملاقاة الأشياخ ومعانقة الأدب معهم والإكثار من خدمتهم، ومن ادعى الطريق بلا شيخ كان شيخه إبليس، فهو وإن وقعت على يديه كرامة فهي استدراج لكرامة الدجال الأعور إذا خرج آخر الزمان.

وكان الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول: من سلك بغير شيخ ضل وأضل، ومن حرم احترام الأشياخ ابتلاه الله تعالى بالمقت بين العباد وحرم نور الإيمان.

وكان أبو تراب النخشبي رضي الله عنه يقول: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله.

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: لو لم يكن للمريد من الباعث على الأدب إلا قول موسى عليه السلام للخضر: «هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً» لكفاه ذلك، فإن موسى عليه السلام لما أراد صحبة الخضر حفظ شرط الأدب فاستأذن أولاً في الصحبة ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه في شيء، ولا يعترض عليه في حكم من الأحكام، ثم لما خالفه موسى تجاوز الخضر عنه المرة الأولى والثانية، فلما انتهى إلى الثالثة التي هي أول حد الكبيرة قال له: «هذا فراق بيني وبينك».

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: من شأن المريد أن لا يدخل في صحبة شيخ إلا بعد استخارة وانشراح صدر لصحبته وإلا فربما دخل بغير اعتقاد ولا احترام، فجره ذلك إلى المقت.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول: من لم يعتقد في شيخه الكمال لا يفلح على يديه أبداً.

وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: من دخل في صحبة شيخ ثم اعترض عليه بعد

ذلك فقد نقض عهد الصحبة ووجب عليه تجديد العهد؛ على أن الأشياخ قد قالوا: إن عقوق الأستاذ قد يترتب عليه استحكام المقت فلا يكاد يصح من ذلك العاق توبة، وقيام الاستهانة بالشيخ في باطن ذلك العاق التائب.

وكان أبو سهل الصعلوكي رحمه الله يقول: كان لبعض الأشياخ مجلس يفسر فيه القرآن العظيم فأبدله بمجلس قوال، فقال مريد بقلبه: كيف يبدل مجلس القرآن بمجلس قوال؟ فناداه الشيخ: يا فلان، من قال لشيخه «لم» لا يفلح، فقال المريد: التوبة.

وكان أبو جعفر الخلدي يقول: من لم يحفظ الأدب مع المشايخ سلط الله عليه الكلاب التي تؤذيه.

قال: وكان الأشياخ كلهم يقولون: جميع ما حل بالحلاج إنما كان من دعوة عمرو بن عثمان المكي عليه.

وكان أبو علي الدقاق يقول لما أخرج أهل بلخ محمد بن الفضل من أجل كونه كان مذهبه الحديث، دعى على أهل بلخ، وقال: اللهم انزع منهم الصدق! وكانت أكثر بلاد الله تعالى صوفية فما خرج منها بعد دعوته صوفي صادق.

وكان أحمد الأبيوردي رحمه الله يقول: إياكم والعمل على تغيير قلب شيخكم عليكم، فإن من غير قلب شيخه عليه لحقته العقوبة ولو بعد موت الشيخ.

وزار أبو تراب النخشبي وشقيق البلخي أبا يزيد البسطامي، فلما قدم خادمه السفرة قالا له كل معنا يا فتى، فقال لا إني صائم، فقال له أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر. فقال: لا، فقال له شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فقال: لا، فقال أبو يزيد: دعوا من سقط من عين رعاية الله عز وجل. فسرق ذلك الشاب بعد سنة، فقطعت يده عقوبة له على سوء أدبه مع الأشياخ.

وسمعت الشيخ خطاب المجذوب بنواحي ثغر رشيد يقول: حكم الشيخ حكم من سلك تابع الثور الذي يحرث ويلطف مزاجه ويخلقه بأخلاق الصالحين ويجلسه في حضرة ربه عز وجل فيحتاج مسلك تابع الثور إلى صبر شديد حتى يتلطف من تلك الكثائف، ومتى يصير تابع الثور ولياً لله عز وجل يهدي الناس إلى شرعه ويعلمهم الأدب مع الله تعالى.

وسمعت الشيخ برهان الدين بن أبي شريف رحمه الله يقول: من لم ير خطأ شيخه أحسن من صوابه هو لم ينتفع به.

وكان سهل بن عبدالله يقول: كان رجل مشهور بالولاية بالبصرة، وكان خبازاً، فمضى

إليه شخص من أصحابي يأخذ عنه فوجده ممتقعاً خوفاً من شرر النار، فقال في نفسه: لو كان هذا ولياً لله تعالى ما أحرقه شرر النار، فقال له الشيخ: يا ولدي إنك استصغرتني وما بقيت تنتفع بكلامي، فرجع إلى سهل وذكر له القصة، فقال ما استصغر أحد فقيراً إلا حرم فوائده ارجع إليه بالحرمة فرجع إليه فانتفع بزيارته، وعقد التوبة على أنه لا يعترض على فقير في حاله حتى يموت. فعلم أن كل مريد صحب الأشياخ على غير طريق الاحترام حرم فوائدهم وبركات نظرهم، ثم لا يظهر عليه من آثارهم شيء ولو تكلف هو ذلك بل أفعاله تكذب دعواه. واعلم يا أخي أنه قل مريد يصدق مع شيخه الصدق الكامل فإنها طريق غيب غير محسوسة لا يسلك فيها إلا بالقلوب وأين من يتخذ قلبه مع قلب شيخه حتى يسير به في الغيب والأسرار؟ هذا لايكون إلا لمريد قد قارب مقام الشيخ في الأدب والانقياد حتى كان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: إذا صدق المريد مع الشيخ كان كل منهما تلميذاً لصاحبه من وجه وشيخاً له من وجه، قال ويتشيخ إذا مات المريد قبل وصوله إلى المقام الذي كان عينه له أن ينزل إلى مرتبة المريد ويعمل عليه حتى يصل إليه، فإذا وصل إلى ذلك المقام خلعه على المريد في قبره فيكمله به، فيبعث من قبره كاملاً، والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه أن لا يكون عنده دلال على الشيخ خوفاً أن يأمره بأدب فلا يمتثل أمره، فإن ذلك من علامة عدم إفلاحه، بل من شأن المريد الصادق أن يجهد على أن يكون جلوسه على باب الشيخ رجاء أن يقع بصر الشيخ عليه كلما خرج، فربما يغمره بنظره إليه أكثر من مجاهدته فيا سعادة من كانت خلوته تجاه باب الشيخ.

ومن شأنه إذا تعذر عليه الفتح أن يقيم العذر لشيخه، ويجعل اللوم على نفسه دون شيخه، ويقول: النقص مني، وقد قال تعالى لسيد المرسلين: «إنك لا تهدي من أحببت» فإذا كان سيد المرسلين بهذه المثابة فكيف شيخي؟ فإن الله غالب على أمره، ولم يزل أهل كل عصر يعترفون بالقصور عن مقام من تقدمهم من أسلافهم.

وقد قال القشيري في أول رسالته التي أملاها في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة:

اعلموا أيها الإخوان أن المتحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطريق إلا آثارهم، ثم أنشد:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائهم!!

ثم قال: حصلت الفترة في الطريقة؟ لا، بل اندرست الطريقة، مضى الشيوخ الذين كان لهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسننهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة، حتى عدوا قلة

المبالاة بالمعاصي والشهوات أوثق ذريعة. إلى آخر ما قاله. فإذا كان هذا قول القشيري في زمانه، فماذا يقول القائل في أهل النصف الثاني من القرن العاشر صاحب الغرائب والعجائب؟ وقد أدركت أنا بحمد الله تعالى نحواً من سبعين شيخاً وماتوا كلهم بغصصهم ولم يروا مريداً يعجبهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فاعلم أن مقام الشيخ في هذا الزمان مشاكل حال المريد ومن طلب شيخاً متصفاً بعين ما اتصف به الإمام الجنيد مثلاً فكأنه رام المحال في هذا الزمان، ولكن حيث ما كان الشيخ أعلم بالطريق من المريد كفاه ذلك ويجب عليه التقيد عليه، فإن من لا شيخ له لا يفلح أبداً في الطريق، كما مر في الباب الأول.

لا يصح دخول الطريق قبل التوبة

وكان أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: إذا لم يكن للمريد أستاذ يأخذ منه طريقه نفساً بنفس وإلا فهو عابد لهواه، وأجمعوا على أن من لم يتب على يد شيخه أو غيره من جميع الزلات، سرها وجهرها، صغيرها وكبيرها، ويرضي جميع أخصامه، لا يفتح له من هذه الطريق بشيء وعلى ذلك جروا، فإن طريق القوم كلها حضرة الله عز وجل، كحضرة الصلاة، أو كالجنة، فكما لا تصح الصلاة مع النجاسة، ولا دخول الجنة مع تبعات الخلائق، فكذلك لا يصح دخول الطريق مع المعاصي والتبعات.

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: يجب على المريد أن يصحح عهده بينه وبين الله تعالى أن لا يخالف شيخه في كل ما يشير به عليه، فإن الخلاف للمريد ضرر عظيم، ومن ابتدأ طريقه على مخالفة إشارة أستاذه لم يزل يخالفه في مستقبل الزمان، فيجب عليه أن لا يعترض على شيخه بقلبه إذا استعمله في نزح السراب مثلاً، أو قال له: اعمل سراباتي.

وقد كان فتح الشيخ خليل المالكي صاحب المختصر بسبب نزحه سراب بيت الشيخ عبدالله المنوفي رضي الله عنه، فسمع الشيخ بطلب القنواتية فأتى بالفاس والزبيل من الليل وصار ينزح إلى الظهر، فما رجع الشيخ عبدالله من الدرس حتى نزح السراب كله، فدعى له الشيخ فصار علماء المالكية كلهم يرجعون إلى قوله وترجيحه إلى وقتنا هذا.

وقيل: إن القصة المذكورة إنما وقعت للشيخ عبدالله المنوفي مع شيخه.

وكان الشيخ أبو القاسم القشيري يقول: كل مريد خطر بباله أن له في الدنيا والآخرة قدراً وقيمة أو على وجه الأرض أحد من المسلمين دونه في الدرجة، لم يصح له في الإرادة قدم، وذلك لأن المريد إنما يجتهد في العبادة ليحصل له الذل والمسكنة بين يدي الله عز وجل لا

ليحصل لنفسه المنزلة والجاه عند الناس، إما في العاجل وإما في الآجل.

ومن شأنه أن لا يكتم عن شيخه شيئاً من أحواله الظاهرة والباطنة حتى الخواطر التي استقرت عنده، ومتى كتم عنه شيئاً فقد خانه في الصحبة، وكان عليه تجديد الصحبة إن أرادها، والمراد بما قلنا الأمور التي يحصل بها الترقي عادة في الطريق من ذكر علل الأعمال دون الأمور العادية.

وأجمعوا على أنه إذا حصل من المريد مخالفة لإشارة شيخه أو جناية على أحد بغير حق كان عليه أن يُقِرّ بين يديه بالجناية على الفور ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه من العقوبات للنفس على تلك الجناية من سفر يكلفه أو خدمة شديدة ونحو ذلك، وأجمعوا على أنه لا يجوز للأشياخ التجاوز عن زلات المريد، لأن ذلك تضييع لحقوق الله عز وجل، وكذلك أجمعوا على أنه لا يجوز للشيخ أن يلقن المريد شيئاً من الأذكار معنى التلقين الخاص إلا بعد تجرد المريد من كل علاقة دنيوية.

ويجب على الشيخ أن يأمر المريد أن يذكر الله تعالى بلسانه بشدة وعزم فإذا تمكن من ذلك يأمره أن يسوي في الذكر بين قلبه ولسانه ويقول له: اثبت على استدامة هذا الذكر، كأنك بين يدي ربك أبداً بقلبك، ولا تجر على لسانك غير الاسم الذي لقنته لك ما أمكنك، ولا تترك الذكر حتى يحصل لك منه حال وتصير أعضاؤك كلها ذاكرة ولا تقبل الغفلة عن الله تعالى. وتقدم في الباب الأول أن ثم جماعة من أولياء اليمن يلقنون المريد لفظ الصلاة على رسول الله ﷺ ويأمرونه بالاشتغال بها ليلاً ونهاراً وتحصل له بذلك سلوك الطريق، ويكون شيخه رسول الله ﷺ، ولكن الجمهور كلهم على تلقين أسماء الله تعالى فقط، ثم بعد أن يلقنه الذكر يأمره بالجوع على التدريج شيئاً فشيئاً لئلا تقل قواه فينقطع عن الذكر، فإن في الحديث «إنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» والمراد بالمنبت الذي حمل دابته فوق طاقتها حتى عجزت واضطجعت في الأرض، فهذا لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وقد كان سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله يأمر المريد بأن يتناول غذاءه المعتاد كمية من حب القمح، ثم يصير ينقص كل يوم قمحة، وتارة يعادل ذلك بخشب طري، فيصير ينقص غذاءه كل يوم بحسب ما ينقص ثقل الخشب، وذلك أمر لا يحس به البدن، ولا يؤثر فيه ضعفاً، فمن أراد أن يقلل الأكل على التدريج فليفعل مثل ذلك. وكانت طريقة شيخنا محمد الشناوي رحمه الله الأكل المعتاد مع كثرة الذكر بعزم وهمة. ويقول: إن الذكر يهضم الطعام، ويقول: إن في الحديث أذيبوا طعامكم بذكر الله تعالى ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم.

وكان كثيراً ما يقول: نحن لا نحتاج مع الذكر إلى فجل ولا خلّ ولا شيئاً مما يهضم

الطعام لاستغنائنا عن ذلك بالذكر، ولكن كان أصحابه أصحاب أعمال شاقة من حرث، وحصاد، ودراس، ونحو ذلك، فلكل حال رجال، والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه أن لا يفعل مع الشيخ شيئاً يوحش قلب الشيخ منه فإن الله تعالى قد يغضب لغضب الشيخ ويرضى لرضاه، لأنه قد يكون أعظم حرمة من والد الجسم. وإيضاح ذلك أن الشيخ لا يأمر المريد إلا بما أمر الله به فمن خالفه فقد خالف الشارع ﷺ ووقع في غضب الله بحسب تلك المعصية من كبيرة أو صغيرة، فيا شقاوة من غير قلب شيخه وقتاً من الأوقات، وعلى المريد إذا لم يجد من يتأدب به في بلده أن يسافر إلى من هو منصوب في وقته لإرشاد المريدين ثم يقيم عنده ولا يبرح عن بابه حتى يفتح عليه، ثم إن قابله الشيخ بالجفاء وعدم الاحتفال بأمره صبر، فربما فعل الشيخ معه ذلك ليريه عزة الطريق ليدخل إليها بالتعظيم ولا يستهين بها، وربما أمر الناس بصفعه على عنقه وعدم تمكنه من دخول الزاوية، كما وقع ذلك «لسيدي محمد الغمري» مع سيدي «أحمد الزاهد».

وربما لحن الشيخ في كلامه العادي ليمتحن ذلك المريد إذا كان نحوياً كما وقع لسيدي الشيخ أبي السعود الجارحي مع الشيخ محب الدين اللقاني فإنه لما جاءه يطلب الطريق قال له الشيخ:

يظنَّ بي الناس خيراً وإنّي أشرُّ الناسَ إن لم يعفُ عنّي

بنصب الناس وأشر ففارقه ساكتاً وقال: هذا لا يعرف الفاعل من المفعول، فرأى رؤيا فيها تعظيم الشيخ فجاء يقصها عليه، فأول ما رآه الشيخ قال: الصواب رفع الناس وأشر، فقال الشيخ محب الدين: الله أكبر، فقال: على كل مخالف للأدب كيف تطلب أدب الطريق، وتفر من نصْبه، وتأتي برفعه؟ فتاب واستغفر فقال له الشيخ: أنا اشتغلت بالنحو زماناً، وإنما أردت اختبارك.

وكان أبو القاسم القشيري يقول: يجب على كل من زار شيخاً أن يدخل عليه بالحشمة والحرمة، فضلاً عن شيخ الإنسان، ثم إن أهّله الشيخ لشيء من الخدمة عدّ ذلك من جزيل النعمة، وليحذر من أن يقيم ميزان عقله الجائر على من يدخل عليه من الأشياء، فربما مقته ذلك الشيخ فلا يفلح بعدها أبداً، بل بعضهم تنصّر ومات على دين النصرانية، كما حكي.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: مما أنعم الله تعالى به عليّ أني ما دخلت قط على شيخ إلا وميزان عقلي مكسور وأرى نفسي تحت نعاله، فلا أخرج من عنده إلا بمدد وفائدة.

من أدب الطريق استئذان الشيخ

ومن شأنه أن لا يحج إلا بإذن شيخه، فإن معرفة الأدب مع رب البيت مقدمة على معرفة أدب البيت، فمن سافر إلى البيت قبل معرفته بصاحب البيت المعرفة التي يعرفها القوم، فقد أخطأ طريقهم ولم يحصل له إمدادُها، وبعيدٌ أن يسقط عنه بها حجة الإسلام، كما أنه فرق عظيم بين حج شيخ الإسلام وبين حج آحاد العوام.

وغاية أمر من يحج بلا إذن شيخه تفرقة قلبه بانتقاله من واد إلى واد، ولو أنه كان ارتحل بإشارة شيخه خطوة واحدة لكان ذلك أحسن له من ألف سفرة بالجهل.

وقد قال علماؤنا: وللزوج تحليل امرأته من حج تطوع لم يأذن فيه وكذا من الفرض على المذهب، وأقل مقام طاعة الشيخ أن يكون كالزوج للمرأة، ويكون يتصرف في المريد كما يتصرف الرجل في زوجته، من حيث التحجير عليها والتربية لها.

وقد بلغنا أن الشيخ يوسف القطوري دخل على سيدي محمد الحنفي الشاذلي رضي الله عنه وهو يخمر طيناً فقال له: سيدي محمد انزع عمامتك وساعدنا، فنزع عمامته وخمر الطين، ثم لم يقل له الشيخ بعد ذلك البس عمامتك، فلم يزل من غير عمامة إلى أن مات، فقيل له في ذلك فقال: إن الأستاذ لم يأمرني بلبسها بعد أن أمرني بنزعها، وليس من الأدب أن أبدأه بالمشاورة على لبسها، هكذا قال. وهذا أدب عظيم، ما بلغنا مثله عن مريد، وإن كان الأولى مشاورة الشيخ ولبسها، لأن العمامة سنة رسول الله ﷺ، ومن شأنه أن يعتقد في شيخه الكمال، وذلك بأن يعتقد فيه أنه أعلم منه بطريق الشريعة والحقيقة قالوا: لكن لا يبالغ في كماله بحيث يرفعه إلى مقام العصمة.

وقد قال الإمام القشيري رحمه الله: لا ينبغي للمريد أن يعتقد في شيخه وأضرابه العصمة، إنما الواجب عليه الانقياد لهم فيما يأمرونه به من الخير ويذرهم وأحوالهم مع إحسانه الظن بهم، ويراعي مع الله حدوده فيما يتوجه عليه هو من الأمور، وما وصل إليه مع علم الشريعة يكفيه في التفرقة بين ما هو محمود وبين ما هو مذموم، فيعمل بما حققه ويَسْتَفْتهم فيما أشكل عليه. قال: ومن أصدق دليل على سعادة المريد قبول قلوب المشايخ له، وكل من رده قلب شيخ من المشايخ المتحققين فلا بد أن يرى عاقبة ذلك ولو بعد حين، ومن خذل بترك احترام الأشياخ فقد أظهر رقم شقاوته، والله أعلم.

ومن شأنه إذا أقامه الشيخ في خدمة سفراً وحضراً دون أن يحضر مجالس الذكر أن لا يتكدر فإن الشيخ إنما يستعمله فيما يراه خيراً له من سائر الوجوه، ومتى تكرر أو رأى أن اشتغاله

بغير ذلك أفضل نقض عهد شيخه فإن الشيخ أمين من جهة رسول الله ﷺ على أمته، ومطالب بأن يفعل معهم ما يرقيهم وينهاهم عما يؤخرهم في المقامات، فقد يكون ما يطلبه المريد يورثه عجباً ورياء وشهوة، أو يبتغي به ثناء ومدحاً بين الناس، فيخسر مع الخاسرين. وقد بلغنا أن سيدي إبراهيم المواهبي لما جاء إلى سيدي الشيخ أبي المواهب يطلب الطريق إلى مقدمة الأدب مع الله تعالى أمره أن يجلس في الإصطبل يخدم البغلة ويقضي حوائج البيت وقال له: احذر أن تحضر مع الفقراء قراءة حزب أو علم فأجابه إلى ذلك، فمكث سنين حتى دنت وفاة الشيخ فتطاول أكابر أصحابه للإذن لهم في الخلافة بعده، فقال ائتوني بإبراهيم فأتوه به ففرش له سجادة وقال له: تكلم على إخوانك في الطريق فأبدى لهم العجائب والغرائب نظماً ونثراً حتى انبهرت عقول الحاضرين، فرجع الذين كانوا تطاولوا للإذن وتعجبوا من ذلك، فكان سيدي إبراهيم الخليفة بعد الشيخ ولم يظهر من أولئك القوم شيء من أحوال الطريق، فعلم أن معرفة الأمور التي يقع بها الفتح راجعة إلى الشيخ لا إلى المريد.

قال القشيري: وإذا أمر الشيخ المريد أن يخدم إخوانه كان على المريد أن يخلص نيته في ذلك، ويصبر على جفاهم له، مع شدة خدمته لهم، وعدم حمدهم له على ذلك، وينبغي له أن يعتذر لهم، ويقيم لهم العذر على نفسه ويقول: أنا الظالم الذي لم يعمل على مرادكم حتى حفوتموني ويقر بالجناية على نفسه ولو علم أنه بريء الساحة ما لم يكن في ذلك تعزير واحد، فإن إقراره على نفسه بذلك من غير أن يقع منه ظلم للنفس وذلك حرام.

ومن شأنه أن يلزم الأدب مع الشيخ إذا أسكت الجماعة في مجلس الذكر فليس له بعد ذلك أن ينفعل في الذكر لأن الشيخ لا يشير عليهم بالسكوت إلا بقدر استئذانه الحق تعالى بقلبه ومعرفة ما ألقى به إليه من طريق الإلهام من الإذن له في إسكاتهم أو عدمه، ويعرف ذلك غالباً بانشراح القلب وانقباضه، فإن انشرح لإسكاتهم أسكتهم، وإن انقبض تركهم في الذكر، وقد تقدم بسط ذلك في الباب الأول.

وكان شيخنا سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: لما أخذ عليّ شيخي العهد بأني لا أخالفه ولا أكتم عنه شيئاً من أمري، كنت لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا أقرب من زوجتي، حتى أقول بقلبي: دستور يا سيدي وقال لي: من واظب على ذلك في حق أستاذه ترقى منه إلى صحة معاملة الله عز وجل لأن الشيخ مرتبة إدمان للمريد يتمرن فيها قبل معاملته لله عز وجل، فكل أدب لم يحكمه مع شيخه لا يصح له فعله مع ربه عز وجل إلا برعونة نفس، وليس في ذلك ترقٍ.

وكان رضي الله عنه يقول: كل مريد منعه شيخه شيئاً من الدنيا وتكدر لذلك فكذلك ربما

يسخط على مقدور الحق تعالى إذا منعه شيئاً كان يطلبه وقس على ذلك سائر الأمور فليحذر المريد من التكدر إذا فرق الشيخ ذهباً أو فاكهة مثلاً ونسيه، فإن ذلك سوء أدب مع الشيخ والله أعلم.

ومن شأنه أن يكون فطناً لما هو من جنس ما يأمره به شيخه، أو ينهاه عنه، ولا يحوجه إلى تصريح بأمر أو نهي فيه لا سيما بحضرة من ليس من القوم، بل يفهم من الرمز والإشارة.

وقد كان خادم الشيخ أبي يزيد البسطامي رحمه الله لا يحتاج معه إلى لفظ إنما كان أبو يزيد يكلمه بالقلب من غير لفظ فيفهم الأمر ويفعله. وكذلك وقع لسيدي أبي العباس الغمري مع خادمه.

وقال لي الشيخ عبدالله الفاعل مرة: كان الشيخ أبو العباس يكلمني بالباطن من غير لفظ فأفهم الأمر وآتيه بما يؤكل أو يشرب أو يلبس على التعيين.

وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي أحد أصحابه قال: قال لي يوماً سيدي أبو العباس يا محمد أريد منك أنك تصير تفهم إشارتي من غير لفظ وتفعل كل ما أكلمك فيه بقلبي، فقلت له: نعم. فدخل علينا ابن السلطان قايد باي فالتهى به الشيخ عني ثم لم أتجرأ أن أسأله عن ذلك الأمر إلى أن مات.

ومن شأنه أن لا يشرك مع شيخه أحداً في المحبة من سائر من لم يأمره الله تعالى بمحبته فيجعل محبة الله وسط قلبه ويجعل محبة رسول الله ﷺ قريبة من ذلك، وهكذا على اختلاف مراتب المحبوبين شرعاً ممن تكون محبتهم من الإيمان. فمثل محبة هؤلاء لا تضر مع محبة الشيخ، لأمر الحق تعالى المريد بها.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: محبة الأنبياء والأولياء وصالحي المؤمنين لا تضر مع محبة الشيخ، لأنها من جملة الشريعة، والشريعة نور، والأنوار تتداخل، بخلاف الأمور التي نهت الشريعة عنها فإنها ظلام كثيف لا تتداخل، فلو وضع في البيت الواحد ألف سراج شع نورها كلها.

وكان يقول كثيراً: إياكم أن تشركوا في المحبة مع شيخكم أحداً من المشايخ، فإن الرجال أمثال الجبال وهم على الأخلاق الإلهية المشار إليها بقوله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»، فكما أن الله تعالى (لا يغفر أن يشرك به) فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن يشرك بها وكما أن الجبال لا يزحزحها عن أماكنها إلا الشرك بالله تعالى ما دام العالم باقياً، فكذلك لا يزيل همته عن حفظ مريده من الآفات إلا شرك موضع خالص المحبة من قلبه، وقال تعالى: «وتكاد

السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا أن دعوا للرحمن ولداً» وهو أي كلام الشيخ يحتاج إلى تعقب. فاطلب يا أخي من نفسك الصدق في محبة أستاذك تنل به ما تريد، ولا تطلب منه أن تشغل قلبه بك، وتهمل أنت أمر نفسك فإن ذلك لا يفيد.

ومن شأنه إذا كان بعيد الدار عن مكان شيخه أن يحافظ على الصلاة في زاوية شيخه ما أمكن، وقد كان لي صاحب اسمه الشيخ أبو بكر الديربني ساكناً بجوار الجامع الأزهر فكان يصلي عندي الجمعة ويترك الجامع الأزهر، مع كثرة جماعته، فقلت له: صلِّ في جامع الأزهر فإنه أفضل لك، فقال: إن لي في ذلك غرض شرعي، فكنت أتعجب من صدقه رحمه الله في اعتقاده. فإن لم يتيسر للمريد صلاة الجمعة عند أستاذه فليتخيله عنده في أي مسجد صلى فيه، فإن الحكم دائر مع القلب لا مع الجسم.

ومن شأنه أن يعتقد في شيخه أنه أعرف بخواطره وعيوبه الباطنة منه لكن من طريق الإلهام لا من باب سوء الظن والكشف الشيطاني.

وإيضاح ذلك أن العامة لا تقيس غيرها إلا بالميزان الذي عندها في الباطن من خير وشر، والأشياخ قد ترقت عن مثل ذلك، فلم يكن في باطنهم شر أبداً حتى يقيسوا عليه حال غيرهم، ولما علم الله احتياج المريد إلى اطلاعهم على ما في باطنه من الشرّ ليداووه بما يزيله، أعطاهم الإلهام الصحيح بدل ذلك الميزان الذي كانوا يحملون عليه أحوال الناس؛ فهو أعرف من المريد بأحواله، ويؤيد ذلك أن البيطار أعرف من صاحب الدابة بعيوبها مع أن صاحبها مخالط لها ليلاً نهاراً، وهذا الاعتقاد قليل في المريدين حتى كان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول وهو في عام أربع وثمانمائة: لم أجد إلى الآن مريداً صادقاً معي، يعترف لي بأني أعرف منه بخواطره، وصفاته الباطنة، ولو وجدته لأفرغت فيه جميع ما عندي من العلوم والأسرار.

وكان رضي الله عنه يقول: كل الأشياخ يموتون بغصصهم، ولا يجدون من يحمل أسرارهم، ولكن من فاته سر أستاذه فليواظب على ورده فإن سره فيه.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: يا مريدي إن صدقت معي وصح عهدك فأنا منك قريب غير بعيد، وأنا في ذهنك، وأنا في طرفك، وأنا في جميع حواسك الظاهرة والباطنة، وإن لم تصدق معي كنت منك بعيداً، ولا تشهد أنت مني إلا البعد.

وكان رضي الله عنه يقول: إذا صدق المريد مع شيخه ونادى شيخه من مسيرة ألف عام أجابه حياً كان الشيخ أو ميتاً، فليتوجه الصادق بقلبه إلى شيخه في كل أمر دهمه في دار الدنيا، فإنه يسمع صوت شيخه ويغيثه مما هو فيه؛ ومهما ورد عليه من مشكلات سره، يطبق عينيه، ويفتح عين قلبه، فإنه يرى شيخه جهاراً، فإذا رآه فليسأله عما شاء وأراد.

وكان يقول: يا ولدي إن كنت صادقاً فلا تصحب غير شيخك واصبر على جفاه فإنه ربما امتحنك بترك ما تحب يريد بك الخير، وتكون محلاً لأسراره، ومطلعاً لأنواره.

وكان يقول: المريد الصادق مع شيخه، كالميت مع مُغسله لا كلام ولا حركة، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيبته، ولا يدخل، ولا يخرج، ولا يخالط احداً، ولا يشتغل بعلم، ولا قرآن، ولا ذكر إلا بإذنه، لأنه أمين على المريد فيما يرقيه، ورب عمل فاصل دخلته النفس فصار مفضولاً.

ثم يقول: هكذا كانت طريقة الخلف والسلف مع أشياخهم، فإن الشيخ هو والد السر في اصطلاحهم ويجب على الولد عدم العقوق لوالده وليس للعقوق ضابط يرجع إليه، إنما الأمر عام في سائر الأحوال، وما جعلوه إلا كالميت بين يدي الغاسل.

فعليك يا ولدي بطاعة والدك المذكور وقدمه في كل أمر لك بأوامر الله على والد الجسم، فإن والد السر أنفع من والد الجسم، وذلك لأن والد السر يأخذ الولد كأنه قطعة حديد جامد، فلا يزال يسكبه، ويذيبه، ويقطره، ويلقي عليه من سر الصنعة سراً حتى يجعله ذهباً إبريزاً.

قال: وقد صحب كثير من الناس الأشياخ بلا أدب فماتوا ولم ينتفعوا منهم بشيء، وبعضهم مقت آه آه آه من صدور الرجال ومن صحبة الأضداد ومن سماع المريد المحال.

ومن شأنه أن لا يلتفت لشيء من الدنيا بعد أن جمعه الله على شيخه فإن بين يديه جميع ما قسم للمريد من الدنيا والآخرة.

وقد كان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: إن وجدت أستاذك المحقق فقد وجدت حقيقتك، وإذا وجدت حقيقتك وجدت الله عندها، وإذا وجدت الله عندها وجدت كل شيء، فليس كل المراد إلا في وجد هذا الأستاذ. فافهم تغنم.

وكان يقول: إذا صدق المريد صار عين أستاذه.

وكان يقول: أنت على الصورة التي تشهد أستاذك عليها، فاشهد ما شئت وانظر ماذا ترى، إن شهدته منافقاً فأنت منافق، وإن شهدته مخلصاً فأنت مخلص، لأنه مرآتك، ولا ترى في المرآة إلا صورتك لا جرم المرآة.

وكان يقول: ما الأمر إلا أن تجد أستاذك وقد وجدت مرادك، هنأ الله فؤادك.

وكان يقول: ليس للمريد أن يحكي ما يقع له مع شيخه، فقد لا يؤمن من يحكي وقائعه

له بكلام أهل الطريق ويضعفه، وما للسالك مع الهالك.

وكان يقول: لا يتعذر عليك أيها المريد العمل بما أمرك به أستاذك إلا لعدم كمال قبولك لذلك، ونقص استعدادك، وإنما كلمك أستاذك بذلك ليرقي همتك إلى ما هو أرقى مما أنت فيه.

وكان يقول: لا تطالب أستاذك بشيء ولا بالجواب عن شيء سألته فيه، وليس ذلك من شأن المريد الصادق مع شيخه.

وكان يقول: مهما رأيته من شيخك من كمال أو نقص فهو صنعة باطنك، ولشيخك في نفسه مقام آخر فوق ذلك فإياك أن تظن نقصاناً بأهل الكمال فتقول: «وعصى آدم ربه» بل اعرف ان ذلك إنما كان تعليماً لك كيف تتدارى إذا وقعت في الذنب، وتغيرت أحوالك بالكدورة بعد الصفاء.

وكان يقول: من شأن المريد الصادق أن يكون أصدق الناس إلى امتثال أمر شيخه، فإن كان لم يبادر إلى امتثال أمر شيخه فهو دليل على عدم صدقه، وصدقه على قدر تخلقه في الأوائل أو الأواخر، ومن هنا كان الإمام أبو بكر أسبق إلى تصديق رسول الله ﷺ من سائر قريش، لكونه كان أضعف قريش رابطة فيما كانوا عليه مما تضاد طريق الهدى، وأقواهم رابطة فيما يقرب من طريق الهدى.

وكان يقول: من أحب من المريدين أن يكون في حفظ رب العالمين فليخدم شيخه بصدق، ويبادر إلى طاعته، ولا يخالفه فيما يشيره عليه، قال تعالى: «ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين» فانظر كيف حفظ الله الشياطين لما كانوا في خدمة أوليائه الصادقين وتحت طاعتهم.

وكان يقول: ما دام المريد تحت حكم أستاذه فترقيه دائم، فإن خرج عن حكمه ولو اعتماداً على ما حصله منه قبل ذلك من الأقوال والأفعال هلك مع الهالكين، كمثل الحجر المرفوع إلى نحو السماء تراه يرتفع ما دامت القوة الرافعة تمده وتصاحبه، ومتى فترت عليه القوة الرافعة انحط إلى الأرض، والقوة هي نظر أستاذك إليك فافهم تغنم.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يربي أولاده بالنظر من غير كلام، ويقول: إن السلحفاة تربي أولادها بالنظر وكل من توارى عليها من أولادها هلك، فنحن أولى بذلك من السلحفاة.

ومن شأنه أن لا يقنع بمجرد اعتقاده في الشيخ، ويتساهل فيما يأمره فيه أو ينهاه عنه ويقول: نظر سيدي يكفيني، فإن ذلك جهل بالطريق.

وقد قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ: أسألك مرافقتك في الجنة فقال له ﷺ: «أعني على نفسك بكثرة السجود» فلم يجبه ﷺ إلى اتكاله عليه دون العمل، وخرج ﷺ مرة فقال: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً».

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: لا تطلب من شيخك أن يمنحك الأسرار وأنت لم تتطهر من أعمال الفجار، فإن من وضع العسل في قشور الحنظل تمرّر لمرارة وعائه، والتبس على الجاهل أن العسل مرّ من أصله.

وكان يقول: المريد الصادق عرش لاستواء رحمانيّة أستاذه عليه، وقد كتب الله تعالى على نفسه أن لا يدخل قلباً دخله سواه، ولا يظهر لعين رأت غيره في مرآة، ومعنى دخول الحق القلب، دخول رضاه ورحمته، والله أعلم.

ومن شأنه أن يعطي شيخه الأمان من تغيير اعتقاده فيه، وذلك بأن يكون محباً لشيخه لا معتقداً فيه، فإن المحب لا يتغير والمعتقد يتغير إذا تغيرت الصفة التي اعتقده لأجلها، ولذلك كان الشيخ الكامل لا يعبأ باعتقاد المريد فيه ولو بالغ في الاعتقاد، فإن نفس المعتقد إنما تسكت حيث عقلها عقلها النظري بعقال ظني مسده من لحى أعراض الأحوال والأعمال والأقوال والظنون بالتناسخ، ومعلوم أن الأعراض لا تبقى وكأنك بالعقال وقد انحل أو تمزق ورجع المعقول إلى توحشه وإفساده، بخلاف المحبّ فإن الشيخ منه في قرار البحار، لا يريد إلا ما يريد، فالمحب قليل، والمعتقد كثير، وما قلّ ونفع خير مما كثر وألهى، وكفى باللهو ضرراً.

وكان سيدي علي بن وفا يقول: لا يخلو مريد من محبة شيخه، ولكن غالب تلك المحبة لعلة، والمحبة الصادقة فوق العلل كلها كمحبة الوالدة لولدها.

وكان يقول: احذر أيها المريد الصادق إذا بعت نفسك لشيخك أن تخفي عنه شيئاً من عيوبك، فإن البائع إذا بين وصدق بورك له في بيعه، وإذا كذب وكتم محقت بركة بيعه، والمشتري إذا اشترى بعد بيان العيب لم يبق له أن يرد السلعة، وإن اشترى من غير بيان كان له الرد، ومن ثم جاء في الحديث (من اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه).

وكان يقول: اجعل نفسك عبداً لله تعالى وكالعبد لشيخك بحكم الواسطة كما جعلت سيدك ونبيك ﷺ واسطة بينك وبين الله تعالى فإن لسان حال الأستاذ في كل زمان ينادي على

لسان الأفهام، قال الله تعالى «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» وكفى من كان محباً لله ولرسوله وشيخه أن يكون مع من أحب.

وكان يقول أيضاً: لسان حال الأستاذ يقول لكل مريد صادق: تقرب إليَّ بنوافل امتثال الأوامر حتى أحبك فإذا أحببتك ورأيتك صادقاً في المحبة ظهرت فيك على قدر استعدادك.

وكان يقول: إن تحقق المريد الصادق بمحبة شيخه كان كله جداً وحقاً وإلا فهو باطل وهزل، فهو بحسب صدقه وكذبه.

ومن شأنه أن لا يرى نفسه يستغني عن علم شيخه ولو صار من مشايخ الإسلام، فإن طريق القوم أمر خاص زائد على علوم الظاهر، ولا يقدر غالب أصحاب العلم الظاهر على إزالة شيء من أمراض الأعمال الباطنة، وإنما يقولون للسائل عنها: تب إلى الله عنها من غير بيان طريق إزالتها بخلاف أصحاب القلوب فإنهم يقولون له: أكثر من ذكر الله عز وجل حتى ينجلي قلبك، وتذهب رعونات نفسك، فهناك تدرك الحق والباطل، وتعرف أنك محجوب عن ربك بسبعين ألف حجاب، فتطلب حينئذ الشيخ طلباً ضرورياً ليعلمك الآداب الخاصة بالطريق، وترى نفسك لم تشم من طريق أهل الله تعالى رائحة من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد كان الشيخ أبو العباس رحمه الله يقول: ما صحب عالم مشايخ القوم إلا ازداد علمه نوراً إلى نور، فالعاقل من اتخذ له شيخاً ولم يكتف بما عنده من علم الظاهر، لأن الشيخ يصل به إلى محل القرب من حضرة الله تعالى، فيصير يكره المعاصي طبعاً في تلك الحضرة حتى لو قيل له اعص الله تعالى لا يقدر لارتفاع حجابه.

وقد اتخذ الإمام الغزالي له شيخاً مع كونه كان حجة الإسلام.

وكذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام اتخذ له شيخاً مع كونه لقب بسلطان العلماء. فغايتك يا أخي في العلم أن تكون كأحد هذين الشيخين.

وكان أهل العصر الأول لقلة أمراضهم وعللهم لا يحتاجون إلى شيخ فلما ذهبوا وحدثت الأمراض احتاج الفقيه إلى شيخ ضرورة، ليسهل عليه طريق العمل بما علم.

الصوفي الحق

فإن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه، أي على وجه الإخلاص لا غير، فليس علم التصوف إلا معرفة طريق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير. فلو عمل العالم بعلمه على وجه الإخلاص كان هو الصوفي حقاً.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: لو أن العالم أتى إلى الصوفية خالصاً من العلل والأمراض لأوصلوه إلى حضرة الله في لحظة، ولكنه أتاهم بأمراض وعلل ظاهرة وباطنة من دعوى العلم، ومحبة الدنيا وشهواتها، وباطنه مملوء من الحسد، والمكر، والخداع، والحقد، والغش وغير ذلك، فلذلك أمروه بعلاج ذلك ليتطهر منه، فإنها أخلاق الشياطين.

وقد أوضحنا ذلك في مقدمة كتابنا المسمى «مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية».

ومن شأنه أن يلزم كلياً جمع قلبه على الله تعالى ويترك كلياً تشتيت قلبه عن الله بأن يلزم المأمورات ويترك المنهيات، فلا يرى إلا في فعل واجب أو مندوب أو أولى، ويجتنب الحرام والمكروه وخلاف الأولى؛ وذلك لأن الله عز وجل يرفع الحجاب عنا في المأمورات ويسد له علينا في المنهيات، فلو أردنا أن نحضر بقلوبنا معه في حرام، أو مكروه، أو خلاف الأولى، لا نقدر، ولو أردنا أن نحتجب عن شهودنا له في واجب أو مستحب أو أولى لا نقدر ولا يصح لنا ذلك إلا إن طرأ على المأمور رياء أو عجب ونحو ذلك، فإنه حينئذ يخرج عن قسم المأمور، ويصير من قسم المنهي، فتأمّل ذلك فإنه نفيس.

ومن شأنه أن لا يتساهل بهجر شيخه، فقد قال سيدي محمد وفا رحمه الله: كل مريد هجره أستاذه فلم يتأثر من ذلك ولم يشتق إليه ولم يبادر لتطييب خاطره عليه، فقد مقته الله و مكر به.

وكان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: عمدة أحوال المريد صدقه في محبة أستاذه، وكل مريد خاف من أحد من الخلق مع وجود أستاذه فهو كاذب في استناده إليه، فإن المريد مع شيخه كولد اللبوة في جحرها، أفتراها تاركة ولدها لمن يريد اغتياله؟ لا والله.

وكان يقول: لا تطالبوا الشيخ بأن يكون خاطره معكم، بل طالبوا أنفسكم بأن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده، لأن همته مصروفة إلى حضرة الحق تعالى لا إليكم، فالمريد هو الذي يتعلق بشيخه، لا أن شيخه يتعلق به.

وكثيراً ما يقع من أصحابي الصادقين أنهم يشهدوني معهم في البلاد البعيدة كمصر ومكة والمدينة والروم، ويصيرون يحلفون بالله أنهم رأوني هناك يقظة ومناماً فأعرف بذلك صدق ارتباطهم بي، فإني ما علمت أني رحت إلى تلك البلاد إلا منهم ولو كنت رحت حقيقة لكنت أعلم بذلك، فمن صدق اعتقادهم تخيلوني عندهم.

وكان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: لا ينبغي أن يكون بين المريد وأستاذه عورة من حيث الأمراض التي عنده لأن شيخه طبيبه، وحال المريد الباطن عورة ويجوز كشفها للطبيب لضرورة التداوي، ولا ينبغي له أن يكلف شيخه بمكاشفته بعيوبه، لأن الأشياخ منزهون في كشفهم عن الاطلاع على العورات، لأنه كشف شيطاني يجب عليهم التوبة منه وسؤال الحجاب حتى لا يقع بصرهم على عورة أحد من خلق الله تعالى، ولولا أن المريد يخبرهم بأحواله الباطنة ما عرفوها منه.

وكان يقول: كل مريد تشوش من أستاذه إذا ناقشه في أعماله وأحواله فقد جهل وأساء الأدب ونقض العهد، فإن الواجب في اصطلاحهم على الشيخ مناقشة المريد، ومطالبته بحقائق دعاويه، فإذا بلغ المريد مبلغ الرجال استغنى شيخه عن مطالبته بالبرهان لخروجه حينئذ عن مقام التلبيس.

ورأى مرة مريداً قد زهد في الدنيا ورأى نفسه بذلك على إخوانه فقال: اسمع يا ولدي إن الذي رأيت نفسك بالزهد فيه على إخوانك أصغر قدراً من ذلك لأنه لا يزن عند الله جناح بعوضة، فكيف تزدري المؤمن الذي هو أعظم حرمة من الكعبة بتركه.

وكان يقول: اعمل أيها المريد على صحة نسبك من شيخك لتحيط بأنواره، فلا يدخل حضرةً إلا وأنت معه.

وكان يقول: احفظ كل ما تسمعه من شيخك ولو لم يتفهمه حال السماع فإن قلم قلب شيخك ربما كتب في قلبك ما لا تفهم أنت معناه في الحال لتفهم معناه في المستقبل، فاحتفظ به حتى يجيء أوانه.

وكان يقول: إذا صحّت نسبتك من شيخك كان تأثيره بالأمداد فيك أكثر من تأثير أذكارك وجميع أعمالك.

وكان يقول: قلوب المريدين تحت ظل قلب الأشياخ، وقد خاب من لم يكن تحت ظل قلب شيخ.

وكان يقول: ما نظر مريد إلى شيخه بعين توقير ووداد إلا كان سالكاً سبيل حق ورشاد.

وكان يقول: عليك أيها المريد بالتقيد بإشارة شيخك، فلئن تسير قدماً واحداً على أثر قدم شيخك أحسن لك من مائة ألف فرسخ تسيرها بهواك.

وكان يقول: لا ينبغي لمريد أن يفارق شيخه ولا خدمته حتى يعاين الطريق، ذوقاً لا علماً، فلا يقنع بسمعت ورويت، وإنما يقول: شهدت ورأيت.

وكان يقول: من أدب المريد مع شيخه أن يرى خدمته مقدمة على خدمة أبيه الطيني المجرد عما يعلِّمه له شيخه من الخير، لأن أباه كدره وأباه الروحي صفاه. وأباه الطيني مزجه بالماء والطين، وأستاذه رقاه إلى أعلى عليين.

وكان يقول: سماعك من شيخك كلمة أدب في لحظة واحدة أفضل من أدب أبيك ومعلمك في الأدب الظاهر عشرين سنة وذلك لأن العارف يؤدب روحك وغيره يؤدب نفسك، وإيضاح ذلك أن معلم الروح أعلى من معلم النفس، وإن كانا حقيقة واحدة عند المحققين، وأين روح الولي المطهر من الأدناس من روح العاق الملطخ بالأدناس.

ومن شأنه أن يكثر من شكر الله تعالى الذي جمعه على الشيخ، فإن كل مريد لم يصادق رجلاً يربيه خرج من الدنيا وهو متلوث بالذنوب ولو كان على عبادة الثقلين.

وكان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: لا يصدق المريد في محبة شيخه حتى يصير كلامه من جهاته محيطاً به وليس مراد العارفين بكلامهم للمريد إلا أن يخرجوه من الضيق إلى السعة، ومن الظلمة إلى النور.

وكان يقول: المريد الصادق لا يطلب من الشيخ أن يقبل عليه كلما أتاه، فإن الشيخ مشغول بربه عز وجل، وربما يقع له في بعض الأوقات أنه لا يعرف ولده فضلاً عن غيره، وربما كان في جملة أهل بلده أو إقليمه فلا يصير له التفات إلى أحد من الخلق، ولا يلتفت إلا لمن يشاركه في البلاء، وأنت أيها المريد ضعيف الحال، ولو أنك حين شاركته لعذرته حين يذوب جسمك كما يذوب الرصاص على النار.

ومن شأنه أن لا يتعب شيخه في تربيته بأن يكون سميعاً مطيعاً لكل ما يشير به عليه.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: ليس المريد من يفتخر بشيخه، وإنما المريد من يفتخر شيخه به.

وكان يقول: متى لم يكن المريد يعتقد في شيخه الاعتقاد التام، وإلا لم يفلح على يديه بل تنعكس ظلمة باطنه عليه فيظن أن صفاته هو هي صفات شيخه فلا يهذبه بأخلاقه ولا يؤدبه بإطراقه ولا ينور باطنه بإشراقه.

وكان يقول: كل من لم يصبر على صحبة شيخه ابتلاه الله بخدمة النساء وموت القلب.

وكان الشيخ أبو الحجاج الأقصري رضي الله عنه يقول: من صدق في الإرادة مع الشيخ لا يحتاج إلى الاجتماع بجسمه بل يكفيه التوجه إليه بالقلب لأن صور صحة المعتقدات إذا

ظهرت لا تحتاج إلى صور الأشخاص ولكن إن حصل للمريد الجمع بين الصورتين فهو أكمل.

وكان يقول: من شرط المريد أن لا يصحب شيخه بنفس ولا ملك ولا اختيار، بل يرى نفسه ملكاً لشيخه يتصرف فيها كيف يشاء، وكل من طلب الوصول إلى مقامات الرجال بغير محبة شيخ ومخالفة نفس فقد أخطأ الطريق.

وكان يقول: من خدم شيخه بلا أدب جره ذلك إلى العطب، ومن خدمه بالأدب فقد حاز عز الدارين وحصل الأرب.

وكان يقول كثيراً: لا ينال المريد الصادق درجة الرجال حتى يبذل الروح ويفني إرادته تحت مراد شيخه، ثم ينشد:

ولو قيل لي مُت متُّ سمعاً وطاعة وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحبا

وكان يقول: من علامة شقاء المريد أن يُرزق صحبة الشيوخ ولا يحترمهم.

وكان أبو بكر الوراق رحمه الله يقول: كل مريد لا تغنيه رؤية شيخه عن الطعام والشراب أسبوعاً فليس بصادق.

وكان يقول: كل مريد لا ينتفع بأفعال شيخه لا ينتفع بأقواله.

وكان يقول: كل مريد اشتغل بخدمة شيخه ترقى الى حسن خدمة الله عز وجل، ومتى فرط في خدمة شيخه حرم حسن معاملة الحق تعالى. فعليكم أيها المريدون بخدمة الأشياخ، فإنهم كالصياد الذي يصطاد المريدين من أفواه الشياطين، وكل من بلعه الشيطان في بطنه شقي إلى الأبد.

وكان يقول: إذا أمرك شيخك بالخلوة فاسمع ولا تطالبه بدليل على ذلك وتقول إنما اختلى رسول الله ﷺ في غار حراء قبل نزول الوحي عليه فلما نزل الوحي عليه لم يبلغنا أنه اختلى، وقد وجدنا نحن بحمد الله الوحي «من قرآن وسنة» وما بقي إلا العمل بهما، فأي فائدة للخلوة؟ بل اسمع لشيخك فإنه إنما يريد بخلوتك تقوية استعدادك وتهيئته العمل بالكتاب والسنة، حتى تتلطف كثافتك بالرياضة، فتصير تفهم أسرار الشرع وترسخ في مقام الإيمان، فلا يفتنك الشيطان، لا في الحياة، ولا عند الموت، فالخلوة مرتب عليها العمل بثمرة الوحي وظهور نور الله عز وجل، وإنما كانت أربعين يوماً لأن مدة الدرّ في صدفه كذلك، وكذلك هي عدد أيام توبة نبي الله تعالى داود، وفيها يكون نتاج النطفة علقة، ثم مضغة، ثم صورة.

وكان يقول: عليك أيها المريد بصحبة الشيخ صاحب الحال، فإن لم تجده فعليك بصاحب المقال، قال تعالى: «فإن لم يصبها وابل فطلّ» وإياك وصحبة من لا حال له ولا مقال.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: لا يكمل الفقير إلا إن كان ذا مال وحال، وقال: من لم يطعه بحاله أو مقاله أطاعه بماله.

وسمعته يقول: هل العراق حال بلا قال، وأهل الشام قال بلا حال، وغالب مشايخ مصر لا حال ولا قال، فلا تصحب أحداً منهم إلا بعد تفتيش.

وكان أبو محمد الكتاني رحمه الله يقول: إذا مات شيخ الإنسان ولم يجد بعده إلا من هو دون شيخه في الدرجة، بحيث لا يكفيه في طريق سلوكه، فلا ينبغي له أن يخدمه بل يخدم الله تعالى، فإنه أولى به.

وكان يقول: ما ثقل مريد على قلب شيخ إلا لعلة بالمريد أخفاها عن الشيخ.

وكان يقول: حضرة الشيوخ صباغة، فكل من دخل عليهم بشيء من إنكار أو اعتقاد خرج مصبغاً به.

وكان يقول: من الشيوخ من ينتفع به مريده الصادق بعد موته أكثر من انتفاعه به حال حياته، وبعضهم سمع نطق شيخه من قبره يأمره وينهاه كأنه يقول: صحبة الشيخ الذي يتنزل لمقام المريد هي النافعة، فإن من لا يتنزل لمريده لا يقدر مريده يسير وراه.

وكان يقول: إياك أن تفشي أسرار شيخك في تقريره لكلام القوم لمن لا يؤمن به ولا ذوق له في الطريق، فربما مقتك الشيخ بسبب ذلك فلم تفلح بعدها.

وسمعت ورأيت خلقاً من هؤلاء كثيراً فشوا أسرار أشياخهم وشنوا الغارة بتحريفهم كلام شيخهم عن مواضعه وبعضهم قتل، وقد أخفى رسول الله ﷺ قراءة القرآن مدة بحضرة من لا يؤمن به حتى قوي الإسلام وأسلم عمر بن الخطاب وغيره.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: إياك أيها المريد أن تفشي أسرار شيخك بين إخوانك من أصحابه، فربما نقضوا عهد شيخهم واجتمعوا بأعدائه وبمن لا يؤمن بكلامه، وشنوا عليه الغارة، وصاروا يقولون: ما سمعنا ذلك إلا من أخص أصحابه.

فإياك يا أخي وعثرات اللسان بإظهار عثرات شيخك، فربما تغيرت أحوال من أفشيتَ سر شيخك لهم، وجعلوا ما سمعوه منك سلاحاً لوقت العداوة، فكيف بعثرات اللسان عند من ليس هو من أهل طريقك؟؟

قال: وقد أصيب من هذا الباب خلق كثير لثقتهم بأصدقائهم، فالعاقل من صحب شيخه كما يصحب الملوك، وقد أنشدوا في ذلك:

إذا صحبت الملوك فالبس من التوقي أجلَّ ملبس
وادخل إذا دخلت أعمى واخرج إذا خرجت أخرس

وقد كان أبو القاسم الجنيد رحمه الله إذا طلب أحد منه الصحبة يقول له: اذهب فاخدم الملوك، ثم تعال بعد ذلك نصحبك.

من شأن المريد أن لا يقول لشيخه لم؟!

ومن شأنه أن لا يقول لشيخه قط لم، فقد أجمع الأشياخ على أن كل مريد قال لشيخه لم، لا يفلح في الطريق.

وكان الشيخ عبد الرحمن الجيلي رضي الله عنه يقول: ربما منع المريد من الزيادة في المقامات لأجل قوله لشيخه لم؟ فإنه ذنب عند أهل الطريق ولا يشعر به غيرهم، فإن الطريق كلها أدب وتأديب، فمن تأدب مع حضرة شيخه، تأدب مع حضرة الله تعالى، ومن أساء الأدب مع حضرة شيخه، أساء الأدب مع حضره الله تعالى، ولا يكمل شيخ في مقام التربية حتى يناقش المريد في الأدب معه أو مع الله تعالى مناقشة الجليس جليسه، والصاحب صاحبه، لأن الأشياخ بوّابو حضرات الحق تعالى، فهم يعلمون كل من أراد دخول حضرة من الحضرات آداب تلك الحضرة رضي الله عنهم أجمعين، فما نفرت نفسه من مناقشة شيخه إلا من أشقاه الله تعالى.

وكان يقول: لا تجالسوا الشيخ إلا بالأدب، فقد أساء قوم الأدب مع الشيخ فمقتوا ومحي اسمهم من ديوان أهل الإرادة.

وكان يقول: كل أديب لا يؤدبه الصوفية فليس بأديب.

وكان كثيراً ما يقول: عليك بمناقشة نفسك، والصبر على مناقشة شيخك لك، فإنه ما يناقشك إلا في إزالة ما يمنعك من المواهب. ويحجبك عن شهود ما فيك من العجائب، فإنه ما ورد عليك وارد ولا ظهر إلا وهو منك، ولا جلي عليك أمر إلا وأصله منك، مثال ذلك: النواة إذا زرعت فكل شيء ورد عليها من ورقها وثمرها كان فيها موعاً بالقوة، كذلك أنت أيها المريد لا يرد عليك شيء خارج عنك، بل كل وارد عليك كان فيك غيباً، ثم إنه ظهر لك شهادة لتعرف مقدار ما أنعم الله تعالى به عليك من الطاعات فتشكره، وما فيك من النقائص فتستغفره، ووراء ما أشرنا إليه رموز ولغوز، في ضمنها كنوز، يا سعد من لها يجوز.

وكان يقول: كل مريد رأى نفسه معرضة عن موادة الشيخ وإخوانه، فليعلم أنه قد شرع في الأخذ في طرده عن باب الله عز وجل.

ومن شأنه أن لا يرى أنه كافأ أستاذه ولو خدمه ألف عام، وأنفق عليه الألوف من المال، ومن خطر بباله بعد ذلك أنه قابله بشيء فقد خرج عن الطريق، ونقض العهد، فقد كان الشيخ داود بن باخلا السكندري شيخ سيدي محمد وفا يقول: لا يصح من مريد أن يرى أنه يعترض على شيخه لأن ذلك الأمر الذي استفاده منه لا يقابل بالإعراض.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: لا تصحبوا الأشياخ إلا بصدق وإذعان وصبر على جفائهم لكم بغير سبب ظاهر، ولا تأتوهم إلا بهمة وقادة، فإنه أسرع في قبول الشيخ لكم، وما قال شيخ قط لمريد جاء يطلب الطريق اصبر يوماً أو يومين أو ساعة إلا لما يراه من فتور همة ذلك المريد وسوء أدبه، ولو أنه رأى عنده أدباً لبادر لأخذ العهد عليه، ولم يجز للشيخ أن يقول قف ساعة لأن ذلك يطفىء نار عزم المريد.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: يجب على المريد أن يلقي حيله وأسبابه وكل ما اعتمد عليه من معمولاته بين يدي أستاذه حتى يلتقمها حكمه وحكمته، فلا يبقى له عمدة على علم ولا عمل دونه، فلا يرى اعتماده بعد الله إلا على فضل شيخه، ولا وصول خير له إلا بواسطته، كل ذلك ليسير به الأستاذ إلى حضرة ربه في حال نجوى نفسه ليلاً، ويخرجه من مواطن تحكم العدو، إلى مقامات حكم الحق جل وعلا، وهناك لا تزلزله الزلازل وإن اشتدت.

وكان يقول كثيراً: ملازمة المريد للشيخ قد تكون أفضل من سفر المريد إلى مكة، لأن الأستاذ إنما جعل ليرقي المريد إلى معرفة رب البيت الذي هو أعظم من البيت، وكيف للمريد أن يترك تعظيم بيت وضعه الحق تعالى لمعرفته وأسراره، ويشتغل ببيت وضعه الحق تعالى للناس فإن حضرة الأستاذ هي من حضرة الحق جل وعلا، التي احتوت على أسرار أئمة الهدى، لأنه وارث علم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن شأنه أن لا يأتي حضرة أستاذه قط إلا بالصدق، ولو تكرر إتيانه كل يوم ألف مرة.

وقد كان سيدي علي بن وفا يقول: ما جاء مريد إلى حضرة أستاذه بالصدق إلا وكان من أهله وجاز للشيخ كشف الأسرار له، وان جاء بغير الصدق كان أمره بالعكس.

وكان يقول: إذا اعتقدت في أستاذك أنه مطلع على جميع أحوالك فقد عرضت عليه صحيفتك فقرأها، فهو إما يشكرك، وإما يستغفر لك، فيا سعادة من كان له أستاذ.

وكان يقول: إياك أن تقيس حال أستاذك على حالك، فتهلك ولا تشعر، لأن الشيخ إنما يبكي ويتضرع لأجل أتباعه، حتى يقتدوا به في ذلك، وربما بكى وتضرع لله تعالى ليشفع فيهم حتى لا يعاجلهم الحق تعالى بالعذاب لأجل إصرارهم على الذنوب، فتكون شفاعة غيبيّة فيهم.

وكان يقول: من وجد من شيخه ضيقاً وحرجاً ومشقة، ووجد نفسه نافرة مما يأمره به أو ينهاه عنه، فليصبر وجوباً إن لم يصل إلى مقام الرضى وانشراح الصدر، وليسأل الله تعالى كشف الحجاب حتى يطلعه الحق تعالى على مراد شيخه له من حصول الخير في الدنيا والآخرة، فإنه لو كشف حجابه لذهب عنه الضيق والحرج جملة، وبادَرَ هو إلى ذلك الأمر.

وتأمل يا أخي لو أمرك إنسان بحفر كوم عال لايستنبط منه ماء كيف يثقل عليك ذلك، فإذا أخبرك من تثق به أن تحت ذلك التراب كنزاً من ذهب ليس دونه موانع، كيف يخفّ عليك الحفر ونقل التراب، ولو مكثت في ذلك شهراً وأكثر. فهكذا الحكم فيما يأمرك به أستاذك، لا يخلو قط من فائدة، وإنما كتم عنك ثمرة العمل خوفاً عليك أن تعمل لأجل غرض دنيوي أو أخروي فيحبط عملك أو يفوت كماله، فأراد منك أن تعمل لله عز وجل امتثالاً لأمره والله أعلم.
ومن شأنه أن لا يحدّث نفسه بمفارقة أستاذه إذا صار علمه يتجلّى فيه بديهة، بل يلازمه أبداً ما عاش، فإذا كان من شأنه ذلك مع كونه قد صار كأنه هو فكيف يفارقه وهو يولد عنده بتعليمه المعلومات كالطفل الذي يرضع من ثدي أمّه فلعله يهلك.

وقد كان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: الزم الأستاذ فإنه يُظهِرُ سرّ الربوبية، فربما أوْحَى إليك ربك في حجاب قلب شيخك من طريق الإلهام، فإن قلبه مظهر سر الربوبية، فعلى المريد أن يقف عند أمر أستاذه ولا يتعداه، ولا يلتفت عن أستاذه يميناً ولا شمالاً، إذ ليس المريد من يتوجه بقلبه إليه غير الأستاذ، وليس من مرتبته صحة التوجه إلى الحق تعالى لجهله به إلا أن يكون مضطراً.

وكان يقول: من أرشدك إلى ما به تتخلص من غضب ربك عليك وتحصل به في رضوانه، فقد شفع فيك عند ربك من هذه الدار، لكن بشرط أن تطيعه وتقبل منه ما يرشدك إليه، فإن لم تطعه ولم تقبل منه ما أرشدك إليه، فلا تنفعك شفاعته فيك، قال تعالى في حق أقوام: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين).

وكان يقول: روح المريد من روح الشيخ وعقل المستفيد من عقل المفيد، وكل من أراد

الكمال بغير استاذه وهاديه فقد أخطأ طريق المقصود، لأن الثمرة لا تكمل إلا بوجود النواة التي هي أصلها وكذلك المريد لايكمل إلا بوجود أستاذه، ومن شأنه إذا قدم إستاذه عليه أحداً من إخوانه أن يخدمه أدباً مع الاستاذ، وليحذر أن يحسده فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوق السوء، ولكن إن أراد التقدم على الإخوان فليطع شيخه ويتخلق بالصفات التي يستحق بها التقدم وهناك يقدمه شيخه كذلك على أقرانه فإن الشيخ حاكم عادل بين المريدين، وهذا الأمر قلّ أن يَنجو منه مريد.

كيف يحتفظ المريد بمحبة اخوانه له؟

وكان يقول: من أراد ثبات الإخوان على محبته، القاصي منهم والداني، وأن يثنوا عليه بكل لسان، فليقابلهم بالحلم والغفران، وليتأمل في قوله تعالى: (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده إنه كان حليماً غفوراً) فأخبرك أنه ليس بعد الحليم الغفور من يمسكهما.

وكان يقول: إذا كان أبو جسمك لا يحلّ لك أن تنتسب إلى غيره، فكيف بأبي الروح الذي هو شيخك؟ فإن أبا الروح هو الأب الحقيقي.

وكان يقول: كل شيخ اشتغل بإرشادك ومناقشتك اكثر من بقيّة إخوانك فالزمه فانه يريد أن يلحقك بمراتب الرجال.

وكان يقول: من صدّق شيخه في كل ما يقول فهو رجل وإن كان أنثى، ومن كاذبه فهو أنثى وإن كان ذكراً.

وكان يقول: إذا عرفت أن شيخك يعرف الحق وأنه واسطة بينك وبينه، فهو وجه الحق الذي يواجهك به، فالزم طاعته تفز بالعز الدائم، وكن كأنك من الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون.

وكان يقول: اخدم العارف بالحق تُخدَم، وإياك أن تخالف شيخك على المشاهدة فتلعن وتطرد، فإن إبليس لعِن وطرد بتركه السجود لكونه كان في حضرة المعاينة، وكم ترك غيره السجود والصلاة، لكن لما كان هذا على جهل وحجاب أُمهل ولم يعاجل بالعقوبة، كما وقع لإبليس، فانه عجلت عليه العقوبة بإخراجه من حضرة الله الخاصة، وإن كان قد حلم عليه من حيث الإمهال وتأخير الإهلاك إلى يوم القيامة.

وكان يقول: لا تقوم لشيخك بجزاء ولو خدمته إلى الأبد ، فإن فضل مرشدك إلى الله تعالى المفيض عليك من أمداده على نحو من فضل النبي ﷺ على أمته وإن تفاوت المقام.

وكان يقول: مرشدك الى الحق تعالى هو العين التي ينظر الحقُّ بها إليك باللطف والرحمة، وهو وجه الحق الذي يقبل بواسطته عليك، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه، فاعرف والزم وانظر ماذا ترى.

وكان يقول: لا تطلب أيها المريد أن تحصر شيخك في سجن قيودك وحدودك، فانك إن لم تعرف أنه محيط بك فأنت تعرف أنه أكبر منك مقاماً، وكيف ينحصر لك الاكبر الأوسع في الأصغر الأضيق؟ فشأن المريد أن يكون تحت طاعة أستاذه لا أن يطلب من أستاذه أن يطيعه.

وكان يقول: لا يظفر مريد بأستاذ إلا وذلك المريد مخصوص عند الله تعالى ولولا أنه مخصوص عنده ما جمعه على من يوصله إلى حضرته فسلِّم لشيخك أيها المريد تسلم وتغنم.

وكان يقول: أستاذك بالنسبة إليك هو فضل الله عليك ورحمته، فتحققك به خير من جميع ما استفدته منه (وقل بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).

وكان يقول: إنما أستاذك أعلم بأحوالك منك لأنه حقيقة روحك.

وكان يقول: معرفتك بنفسك على قدر معرفتك بأستاذك.

وكان يقول: ما لم يرتفع عنك حكم المغايرة كلها لأستاذك فأنت بالحقيقة لا شك ضائع، فارجع إلى ربك فاسأله أي فلا تقوم بالأدب مع أستاذك إلا إن رأيت من شدة القرب أنك هو، وهناك يمدك بإمداده، إذ حكم المغاير كحكم الفرع المقطوع من الشجرة، لا يسري فيه شيء من ماء الشجرة، وكأنه يقول: من كان لا يرى من أستاذه إلا وجه بشريته فقد غاب سعيه ولا يزيده ما كشفه له الحق المبين إلا إعراضاً وتكذيباً، إذ من شأن البشر عدم انقياده لبعضه بعضاً وكراهته لكل من يرأس عليه فتصده تلك الكراهية عن سماع نصحه وإرشاده ولو بالقرآن ما لم تحفه العناية. وإلى ذلك الإشارة بنحو قوله تعالى: (واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) وذلك لأنهم نظروا اليه من وجه بشريته ولو نظروا إلى وجه روحانيته وما أرشدهم به من الوحي والخصوصة، لربما انقادوا اليه.

قال سيدي علي بن وفا رحمه الله: ومن ثم لا تجد الأستاذ قط يظهر لقوم إلا من حيث

يشهدونه وما دام في طور المماثلة لهم لا يكلمهم إلا بلسانهم، ولا يعاملهم إلا بكيلهم وميزانهم، ومن هنا قال ﷺ: «لا تفضلوني على موسى» ثم إنه بعد زوال حجاب البشرية عنهم قال لخواص أصحابه «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» فقبلوا ذلك منه ببشاشة وتصديق خالص، ولو أنه قال ذلك لمن بشريته قائمة لتوقف وارتاب، قال: وهكذا كل وليّ في حال ظهور بشريته للناس لا يقبلون منه أكثر كشوفاته الظاهرة الصادقة فضلاً عن غيرها ثم إنهم يقبلون ذلك منه إذا رأوه من غير وجه بشريته.

وكان يقول: لما كان الحق تعالى لا يغفر أن يشرَك به فكذلك الأشياخ لا يغفرون أن يشرك بهم تخلقاً بنظر مسمى أخلاق الله عز وجل، فإذا رأيت أيها المريد شيخك يتشوش منك إذا أشركت في محبته شيخاً آخر فإياك أن تسيء به الظن بل اشهد أن ذلك من أخلاق الله عز وجل الذي يقول: «لا يغفر أن يشرك به» ظهر على لسان وليه.

وقد تقدم في الباب الأول إجماع الأشياخ على أنه لا يجوز للمريد أن يتخذ له شيخين وقالوا: كما أنه لا يكون للعالم آلهين، ولا للمرأة زوجين، ولا للرجل قلبين، كذلك لا يكون للانسان شيخين، وأجمعوا على أن كل مريد رأى أن علم شيخه لا يكفيه فليس له أن يتقيد عليه، وربما كان أحد الشيخين غير محقق فيأمر المريد بما يوافق هواه لغير حكمة فيهلك، وبالجملة فلم يقع لأحد قط أنه سلك الطريق ووصل إلى مقامات الرجال بين شيخين أبداً.

وكان يقول: أقل أحوال المريد مع شيخه أن يكون له كالأم تؤثر ولدها بالراحات وتحمل عنه المشقات وتحبه على جميع الحالات وتوافقه في كل ما يهواه وتحمله على أحسن المحامل، ولا تكاد تضيف إليه عيباً ولا نقصاً؛ والشيخ أحق بتلك المراعاة فإنه يهتم بأمر المريد عند ربه أعظم من اهتمام أمه به.

وكان يقول: لا تقسْ بنفسك في أحوالك الظاهرة من العبادات والمجاهدات على حال شيخك، فان الشيخ ولو قلّت أعماله الظاهرة فهو بباطنه، وكل يوم من أيام الأستاذ عند ربه كألف سنة مما يعد المريدون عند ربهم.

لا تعترض على شيخك ايها المريد

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تقف مع ظاهر شيخك بل اخرق الى شهود قلبه، وانظر ما هو فيه، تعرف مقامه. فكل من نظر إلى ظاهر أستاذه فقط لم يحصل له به ابتهاج، بل لا

تزيده تلك النظرة إلا غفلة واستغراقاً في سوء الظن به وبسائر الأشياخ، وذلك لأنه حجب يورث الحجاب عن رؤية الأحباب، وربما يقول في نفسه أي فرقٍ بيني وبين شيخي وقد أطعمه الله مثله؟ فيتلف بالكلية. ومن شأنه أن يرى كل خير أصابه من الله ببركة أستاذه فان نور كل مريد من نور أستاذه.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: جميع ما تراه فيك من المدد فهو من فيض أستاذك وجميع ما تراه فيه من النقص فهو صفتك، (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) فان رأيت شيخك زنديقاً فأنت زنديق في الغيب الأزلي فإنه مرآة الوجود وإن رأيته صديقاً فأنت صديق في علم الله. وأما حقيقة الشيخ فلا يعرفها إلا من أشرف على مقامه، أو كان أعلى مقاماً منه، وقد قال مريد مرة للشيخ أبي يزيد: رأيتُ وجهك يا سيدي هذه الليلة وجه خنزير، فقال: صدقت يا ولدي فانني مرآة الوجود، فرأيت وجهك فيَّ فحسبت أنك أنا فطهّر نفسك يا ولد من صفات الخنازير ثم انظر إليّ تجدني غير خنزير.

وكان يقول: صورة الاستاذ الناطق مرآة سرّ المريد الصادق إذا نظر فيها ببصيرته شهدها على صورته الباطنية، فأول مبادىء أمر المريد حينئذ أن يتجلى له طويته بصفات أهل الصلاح والولاية، فاذا كشف لبصيرته عن أستاذه رأى صورة صلاحه وولايته في صفاء مرآة صورة أستاذه، هو الصالح الولي، فيستمد من بركاته ملاحظاته المتوالية وهممه العالية، ثم لا يزال يطلب من أستاذه الدعوات المنيفة والخواطر الشريفة، ويتودد إليه تودد المتأنس حتى ينفخ إسرافيل في صور العناية صورة قلبه روح التخصيص الأدمي، فهنالك يشهد أستاذه هو آدم الزمان ومالك ازمة الأكوان بحكم الإرث لصاحب ذلك المقام، فيعظمه تعظيم الشاب لأبيه المهابَ إلى ان تنفر صورة الآدمية بعد رفع الحجاب عن جمال ما خصه من نفحة الروح المحمدية، وهناك يشهد أستاذه محمديّ المقام فيكون له خادماً ولا يجعل له سواه أرباً الى ان تغشى سدرة سره الأنوار الرحمانية، فينظر إلى أستاذه فلا يرى إلا واحداً يتجلى له في كل مشهد على قدر طاقة الشاهد فيصير عدماً بين يدي وجود ومحواً في حضرة الشهود، فأول أمر هذا المريد توفيق وواسطه تصديق وآخره تحقيق. وبعد التحقيق يكون بداية السعادة والله أعلم. ومن شأنه الصبر تحت مناقشة الشيخ له ومخالفته لأغراضه، فإن ذلك من أقوى دليل على أن الشيخ شم منه رائحة الصدق، ولو أنه لم يكن شم منه ذلك لعامله معاملة الأجانب، من الملاطفة والترحيب، كما تقدم تقريره مراراً. فليثبت هذا المريد على مخالفة الشيخ أهويته عملاً بإشارة أستاذه فإنها طريق لا تكون إلا بعد ان يموت المريد كذا كذا ألف موتة، فإن كل مخالفة للهوى موتة، والأهوية لا تحصر.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: من ليس له أستاذ فليس له مولى، ومن ليس له مولى فالشيطان به أولى والمراد أن من يكون لا مولى له، فإن الحق تعالى يعامله بتعسير الأرزاق ونحو ذلك، قال تعالى: (وإن الكافرين لا مولى لهم) وفي الحديث: «فكم من لا مطعم له ولا مأوى» وليس المراد نفي المولى جملة فان ذلك لا يصح في العالم.

وكان يقول: من وافق أستاذه في أفعاله طابقه فيما أخبر به من معارفه، والعكس بالعكس.

وكان يقول: من كان مع أستاذه بلا إياه كان أستاذه معه بالله، وكل من ظن في أستاذه أنه لا يعرف أسراره، فهو بعيد عن حضرته ولو جالسه ليلاً ونهاراً في زاويته.

علامات فلاح المريد

وكان يقول: لفلاح المريد ثلاث علامات: ان يحب شيخه بالإيثار، ويتلقى منه كل ما أمره به بالقبول، ويوافقه في كل أمر يرومه.

وكان يقول: من تقرب الى أستاذه بالخدم تقرب الحق تعالى الى قلبه بأنواع الكرم.

وكان يقول: من آثر أستاذه على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن نزه حضرة أستاذه عن النقائص، منحه الله بالخصائص، ومن احتجب عنه أستاذه طرفة عين فلا يلومن الا نفسه اذا أوبق بوائق البين، ولا يصل المريد إلى هذا المقام إلا إن جعل مراد شيخه مراده.

وكان يقول: من لم يستحل مقارع الأستاذ لم يستحل منه عروس الوداد، تبّاً لمريد جمح بطبعه عن الدليل، لقد ضل والله عن سواء السبيل.

وكان يقول: إياك أن تصغي لقول حاسد أو عدو في حق شيخك فيصدك بذلك عن سبيل الله، فقد سبقت كلمة الله التي لا تتبدل، وسنة الله لا تتحول، أن لا ينفخ الحق تعالى روح العلم الإلهي في مخصوص من أهل حضرته إلا انقسم الخلق فيه قسمين: ملكي ساجد، وشيطان حاسد، كما وقع في قصة آدم عليه السلام، فاحرص أيها المريد على أن تكون لأهل الاختصاص خادماً وخاضعاً إما لتسلم او لتعْلم او لتُرحم، وإياك أن تكون لهم مبغضاً أو حاسداً فانك إما تُسلب وإما ترجّم وإما تحرم.

وكان يقول: قلب شيخك ايها المريد حضرة الله تعالى وحواسه أبوابها، فمن تقرب الى

حواس شيخه بالقرب الشرعية الملائمة له فتحت له أبواب تلك الحضرة، ومن شأنه أن لا يأتي شيخه قط إلا بنيّة أن يهتدي بهديه، ولا يحصل له ذلك الا بأن يرى نفسه على ضلال وغواية عن طريق أهل الهدى، وهو مضطر إلى كشف تلك الغمة عنه، وإلا فمتى رأى نفسه مستغنية عن تأديب شيخه له فلا يقدر على القيام بواجب هذا الأدب، ولو كان على عبادة الثقلين.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: مدد الأستاذ حكم حبة وضعها في أرض قبول تلميذه ثم سقاها بتفهمه وتأييده، فمهما ظهر من التلميذ او عنه فهو من ثمرات تلك الحبة وثمراتها ونتائجها، وان كثرت فانما هي ملك لغارس الحبة في ارض محل استحقاقه، فكل ما ظهر من التلميذ من رشد وصلاح فانما هو في الحقيقة حق لاستاذه، فليحذر ان يظن في نفسه انه ظفر بشيء لم يظفر به استاذه، ومن ظن ذلك بنفسه فهو من أجهل الجاهلين باستاذه، والله أعلم. ومن شأنه ان لا يبدأ بنفسه بالسؤال عن شيء مطلقاً الا لضرورة كأن يسأله عن شيء من الأحكام الشرعية أو عن شيء يأكله هو وعياله في ذلك الوقت بخلاف ما ليس بضروري، فانه لا ينبغي ان يبتدىء الشيخ بالسؤال عنه بل يصبر حتى يبدأه به شيخه، وان كان يعتقد في شيخه انه لا يعرف خواطره فبئس ما اعتقد. وقال الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام ﴿فان اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ وإيضاح ذلك ان المريد اذا بدأ شيخه بالسؤال فقد أحوجه الى الجواب وفي ذلك ترتب حق له على استاذه يصير يطالبه به بالظاهر أو بالباطن وربما كان الجواب عن ذلك يورث المريد الزهو والعجب على الإخوان، فان قال قائل: ان الأعراب كانت تبدأ رسول الله ﷺ بالسؤال ويقرهم على ذلك، فالجواب ان رسول الله ﷺ كان مشرعاً بوحي من ربه عز وجل والضرورة داعية الى سؤاله عن ذلك، وكلامنا فيما لا ضرورة اليه، كما تقدمت الاشارة اليه، فلو توقف الناس على عدم بداءته بالسؤال لضاعت اكثر احكامه الشرعية، بخلاف الشيخ فإنه يُسأل عن أمور قد تقررت في الشريعة لا يخشى ضياعها وكان آمناً على أصحابه من وقوعهم في العجب بعلمهم او الإخلال بشيء من المأمورات أو اجتناب شيء من المنهيات.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: لا تغتر ايها المريد بحلاوة كلام شيخك استاذك لك وتظن انك صرت عنده في أعلى مقام.

كيف يدعو الداعي؟

وإن من سياسة الداعي إلى الله تعالى أن يؤلف الضعفاء بالكلام الحلو والإحسان

وتخفيف الأوامر ثم إذا رسخوا في الطريق فله التحكم فيهم كيف شاء فيزجرهم بمرّ الكلام ويمنعهم عن لذيذ الطعام ومن مجالسته على الدوام وله غير ذلك.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول: من أراد الترقي على يد شيخه فلا يدخل عليه قط إلا وهو تارك لمعلوماته الدنية[1] ليدله على المعلومات العلية. أعني بالعلية دقائق العلوم وبالدنيّة ما كان سهل التناول قريباً من الأفهام، وإلا فالعلوم ليس فيها شيء دني، وإنما تخفض العلوم او ترفع بالنية لأنها كلها هي علم رسول الله ﷺ المشار إليه بقوله: (فعلمت علم الأولين والآخرين).

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تستصغر شيئاً من أعمال شيخك، فإن ورد الأولياء الأكابر إنما هو اسقاط الهوى، ومحبة المولى، ورد النفس عن الباطل في عموم الأوقات، وللمريدين قدم في مثل ذلك.

وكان يقول: أشياخ الناس في كل زمان، علماء، وعبّاد، وزهاد وعارفون بأدب الشخص مع أمثاله، فأدبه مع العلماء ألا يحدثهم إلا بالعلوم المنقولة والروايات الصحيحة، فاما أن يفيدهم وامّا ان يستفيد منهم، وذلك غاية الربح معهم. وأدبه مع العباد والزهّاد أن يرغبّهم في الزهد والعبادة، ويحلي لهم ما استمدّوه منهما. فاذا أقبلوا عليه، فليفتح لهم شيئاً من معرفة طريق العارفين التي هو فيها ليرفع همتهم عن الاعتماد على أعمالهم واستبعادهم أنهم يدخلون النار. وأدبه مع العارفين أن يحفظ لسانه وقلبه، قياماً بواجب حقهم وإن لم يأخذوه هم بذلك.

ومن شأنه أن يلزم الأدب مع شيخه، ولا يطلب منه قط كرامة ولا وقوع خارقة ولا كشفاً ولا غير ذلك، فمن طلب من شيخه كرامة حتى يتبعه فهو إلى الآن لم يؤمن بكون أستاذه من أهل العلم بطريق أهل الله.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: احذر أيها المريد أن تطلب من شيخك كرامة، حتى تتبعه في أمره لك بالمعروف ونهيه لك عن المنكر؛ فإن ذلك سوء أدب وهو دليل شكّك في دين الاسلام، لان ما دعاك إليه شيخك، ليس هو شرعه، إنما هو شرع رسول الله ﷺ، فهو تابع لا متبوع. ولولا أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، لكان كل من خالف أمر داعيه إلى خير، هلك من وقته. وكان يقول: إياك أن تظن أيها المريد أن أستاذك لا نور له قياساً على حالك أنت، فتحرم فوائده عقوبة لك، فلو كشف لك عن نوره لأضاء ما بين السماء والارض.

---

(١) القريبة.

وكان يقول:

إياك ان تستغرب من شيخك نطقه بالمغيبات فإن القلب إذا انجلى أخبر صاحبه بما مضى وبما آت وليس ذلك من الغيب الممنوع منه فإن هذا ما نطق به حتى شهده بنور قلبه فهو عنده من قسم الشهادة لا من قسم الغيْب. ثم إن ذلك الغيب لا يكون قط مخالفاً للشرع بين أظهرنا وانما يكون مؤيداً له فافهم.

وكان يقول كثيراً: إياك ايها المريد ان تستقلّ بمقام شيخك حين ترى المعرضين عن الله تعالى لا يقيمون له وزناً، فإن الولي في كل عصر لم تزل الناس لا يلقون اليه بالاً ثم اذا مات ندموا على عدم اعتقادهم فيه حين يرون عدم تخلق احد بأخلاقه الشريفة، ويزول عنهم حجاب الحسد الذي كان منسدلاً عليهم ليقضي الله امراً كان مفعولاً.

وكان يقول: من اين يعرف المعرضون عن حضرة الله اولياء الله حتى يمدحوهم؟ وقد قال ابو تراب النخشبي: الاولياء كالعرائس المخبأة في خدورها فإياكم والانكار على شيء من احوالهم وأنتم معرضون عن الله فان القلب اذا أعرض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله ومن وقع فيهم هلك فاياكم ثم اياكم.

وكان الشيخ ابو العباس يقول: اعمل ايها المريد على ان تتحد بشيخك فيكون ما عنده من المعارف عندك على حد سواء ويكون تميزه عليك انما هو بالاضافة لا غير، قال: وقد قال لي الشيخ ابو الحسن الشاذلي يوماً: يا ابا العباس ما صحبتك الا لتكون انت انا وانا انت.

وكان يقول: عليك ايها المريد بالعكوف على أعتاب شيخك ولو طردك فلا تبرح وسَارِقْهُ في القرب منه فان الاشياخ لا يكرهون احداً من المسلمين لحظ نفس وانما يقع ذلك منهم تأديباً.

وكان يقول: لو علم المريد ما انطوى في شيخه من الاسرار لخضع له ولم يستطع البعد عنه لحظة، ولكان يطوي الطريق البعيدة من شدة عزمه وهمته.

قال الشيخ ابو العباس: ولقد كنت ساكناً بباب البحر من مصر وكنت كل يوم اذهب الى اسكندرية وأرجع ضحوة النهار أقرأ على الشيخ أبي الحسن كتاب ختم الاولياء للحكيم الترمذي رحمه الله.

وكان يقول: معرفة المريد بمقام شيخه من معرفة الله عز وجل فان الله تعالى معروف للخلق بكماله وجلاله وقدرته ولا هكذا المخلوق، ومتى يعرف الانسان علو مقام مخلوق مثله يأكل كما يأكل ويشرب كما يشرب.

وكان يقول: ينبغي للمريد اذا سمع شيئاً من استاذه وخاف نسيانه ان يستودعه الله تعالى فانه لا تضيع عنده الودائع فينبغي فعل ذلك للعالم اذا خاف نسيانه شيئاً من أحكام الشريعة لينفع به الناس.

وكان يقول: ما توقف مريد في فهم كلام شيخه الا لجهله وشدة نسيانه فالواجب عليه العمل على جلاء مرآة قلبه ولا يقول لمعلمه أوضح لي الجواب عن ذلك؛ فانه لا فائدة فيه في طريق القوم، لأنهم لا يقنعون بالعلم وانما يطلبون الذوق بالباطن ليطابقوا بين اللسان والقلب ويخرجوا من صنعة النفاق.

وكان يقول: عليكم بمعانقة الادب مع استاذكم ولو باسَطَكُم فان قلوب الاولياء كقلوب الملوك تنقلب من الحلم الى الغضب والانتقام في لمحة، فاذا ضاق ذرع الولي هلك من يؤذيه في الوقت، واذا اتسع حمل الاذى من الثقلين. ومن شأنه ان لا يقيم ميزان عقله على كلام شيخه حتى لو قال له لا تحضر مجلس فلان العالم الواعظ فلا ينبغي له حضوره وذلك لان شيخه أمين عليه في كل شيء يرقيه او يوقفه او يؤخره، وغير شيخه لم يلتزم ذلك معه فربما علّمه ما يضره ويورثه الاعجاب بنفسه مثلاً فيهلكه، لا سيما ان كان اعذب لفظاً من شيخه. والنفس من شأنها الخيانة فتفرح بحضور مواضع البحث والجدال ومغالبة الخصوم ولا تقوى على العمل بما تسمع بخلاف مجلس الشيخ فان غايته تضييق على المريدين ومناقشة لهم ومخالفة لما تهواه نفوسهم فربما نفرت نفس المريد الضعيف الحال من ذلك.

وكان يقول: للشيخ ان يخرج المريد من ورده الى ورد آخر فاذا نهاه عن ورد بادر الى امتثال أمره، وليس له الاعتراض عليه بباطنه ويقول ان الورد خير فكيف ينهاني عن فعله فربما رأى الشيخ في ذلك الورد ضرراً على المريد بدخول علة قادحة في الاخلاص مثلاً، ورب عملٍ جاء الشرع بأفضليته فدخلته النفس فصار مفضولاً ولا يشعر المريد بذلك.

وكان الامام ابو بكر الصديق رضي الله عنه لا يجهر في قراءته بالليل، وكان عمر رضي الله عنه يجهر، فأخبرا بذلك رسول الله ﷺ فقال لابي بكر: لِمَ لَمْ تجهر؟ فقال قد أسمعت من أناجي وقال لعمر: لم تجهر؟ فقال: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال ﷺ لابي بكر: ارفع قليلاً وقال لعمر: اخفض قليلاً. وذلك ليخرجهما عن مرادهما لمراده لانهما كانا في مقام التعليم والتربية لهما.

وكان يقول: اذا سألك عن شيء من أحوالك الباطنة فأجبْه على الفور من غير تفكر فان الشيخ يريد ان يعلم مقامك الثابت لك وتفكّرك انما تريد به الجواب بما هو أعلى من مقامك فيحصل بذلك التلبيس على شيخك وتقع في الغش لنفسك. وكل شيء نطق به الانسان فوراً

فهو مقامه الحقيقي واذا نطق القوم ظهرت مراتبهم، وقد وقع ان مريداً حج بغير اذن سيدي ابي العباس المرسي رحمه الله فقال له الشيخ لما رجع كيف كان حجك في هذه السنة؟ فقال كان الماء كثيراً والحشيش كثيراً والبقسماط كثيراً، فقال له الشيخ بالله العجب اسألك عن الحج وكيف كان أدبك فيه مع الله تعالى فتجيبني بالعلف! وصار الشيخ يتبسم متعجباً ويقول قد عرفنا مقامك يا أخي.

وكان كثيراً ما يقول: اذا ضحك الشيخ في وجه احدكم فاحذروه ولا تجالسوه الا بالأدب فإنه قد يكون سيفاً ونقمة في حال كونه غيثاً ورحمة.

وكان يقول: لا تفرّط قط في كلام غرسه شيخك في قلبك فربما لم يثمر الا بعد موت الشيخ، لان زرعهم لا يخيب ان شاء الله تعالى، فاحتفظ يا ولدي على كل كلام تسمعه من الشيخ ولو لم تجد له ثمرة عقيب سماعه والله أعلم. ومن شأنه ان يفتح لإخوانه باب الأدب مع الشيخ ويغلق عليهم باب سوء الادب معه فلا يكون مقداماً لإخوانه في سوء الأدب مع الشيخ مطلقاً، وان وقع انه اساء ادبه معه فليبادر وجوباً الى كشف رأسه والتوبيخ لنفسه ليرتدع غيره، ولو تأمل المريد بعين الانصاف لوجد نفسه ظالماً على الشيخ وانه لا يتشوش من المريد الا فعله شيئاً ينقص دينه. ومن اعظم ما يقع فيه المريد من سوء الادب مع الشيخ عدم حضوره مجلس الذكر الذي رتبه للمريدين صباحاً ومساء، فان مدد كل شيخ يكون في ورده ومن ترك ورد شيخه حرم مدده، ولكن ان كان للمريد عذر في تخلفه عن المجلس فليذكره للشيخ فان ظهر له صدق عذره والا ناقشه وبين له عدم صدقه ليتوب عن مثل ذلك. ومن علامة صدقه الندم على فوات ذلك المجلس حتى تضيق عليه الدنيا بما رحبت، ويترك غداه وعشاه ذلك اليوم لشدة الاسف ولايصير له وجهة إلى الناس ولا إلى ضحك ولا لعب نظيرَ من مات له ذلك اليوم ولد عزيز فلا يزال في تشويش حتى يرضى عنه شيخه، فاذا رضي عنه الشيخ فذلك عنوان على ان الله تعالى قبل عذره في تركه ذكره ذلك المجلس. واعلم يا أخي انه يتأكد على جيران الشيخ حضور ورده كل يوم وهم اولى بذلك من الاباعد الذين يسمعون الذكر وهم جالسون في بيوتهم ولا يذكرون الله تعالى لا في بيوتهم ولا في الزاوية. بل الذي ينبغي لجماعة الشيخ وجيرانه ان يكونوا هم الجالبين الناس الى حضور ذكر الله عز وجل، فانها حضرة الله التي لا يشابهها شيء من حضرات اعظم ملوك الدنيا. آه آه آه من صحبة من اغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هوى نفسه وكان امره فرطاً.

قال سيدي علي المرصفي رحمه الله: ولا ينبغي للمريد ان يتعلل في حضور مجالس الذكر بالاشتغال بالعلم فان شيخه لو رآه مخلصاً في علمه لما قال له اتركه واذكر الله ابداً لأن من

كان مخلصاً في علمه فهو جليس الله كالذاكر لله على حد سواء فما امره بحضور مجلس الذكر لما رأى عنده من الرياضة وحب الشهوة فاراد له كثرة الذكر لينجلي قلبه ويرفع حجابه فيدرك وقوعه في الرياء والعجب ونحو ذلك فيستغفر منه ويتوب، وقد كان الامام الشافعي رضي الله عنه يقول: طلب العلم افضل من صلاة النافلة، قال بعض العارفين: مراده العلم الذي لا يدخله رياء ولا سمعة حتى لا يعارض النصوص التي جاءت في عذاب الذين يراءون بعلمهم.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول: ينبغي لكل مريد تخلف عن مجلس ذكر بغير عذر او غير ذلك من مجالس الخير ان يوبخ نفسه بحضرة اخوانه ويقول مثلاً: يا فوزكم، حضرتم المجلس وجالستم ربكم عز وجل، ويا شقاوتي تخلفت عنه! فلعل ذلك التوبيخ يكون جابراً لذلك الخلل. ولا ينبغي لمريد ان يسامح نفسه في ترك التوبيخ ابداً لأن في ذلك استهانة بفوات مجالسة الله عز وجل وباعثاً للاخوان على عدم احتفالهم. وفي الحديث: من لم يكثر ذكر الله فقد بريء من الإيمان. وفي القرآن في صفة المنافقين: «ولا يذكرون الله الا قليلاً». وبالجملة فمتى كان المتخلف عن حضور مجلس الذكر لو عرض عليه في حضوره ذلك المجلس الف دينار مثلاً لم يتخلف فهو كاذب في تخلفه عن الذكر لضرورة فان ذكر الله تعالى ومجالسته لا يعادلها شيء من الدنيا والآخرة. ولعل اكثر المتعللين بالضرورات لو وعد احدهم بدينار واحد كلما حضر المجلس لأزال ضروراته كلها قبل وقت المجلس خوفاً على فوات ذلك الدينار، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ومن شأنه انه يمتثل امر شيخه ونهيه اذا قال له لا تمد رجليك الا لضرورة او لا تقرأ القرآن بعوض من الدنيا وان كان ذلك جائزاً بالشرع لان الشيخ انما يأمره بالترقي، وقراءة القرآن بالعوض لا ترقي فيها عند القوم، وكل مريد فتح ذلك الباب في زاوية شيخه فقد اساء الادب في حق شيخه وحق اخوانه وربما عوقب على ذلك بالامراض التي يصرف فيها اكثر مما جمعه من القرآن. وكذلك من شأن المريد انما يسد في وظيفة كل من غاب من اخوانه في الزاوية بغير معلوم احتساباً لوجه الله عز وجل. قالوا: ويحرم على المريد ان يخذل كلمة الشيخ في الزاوية بالباطل، كأن يريد الشيخ اخراج احد منها لمصلحة فيعارضه بنفسه وباخوانه ويقولون بأي ذنب تخرجه؟ وفي ذلك خراب امر الزاوية، بل الواجب عليهم ان يشدوا عضده في ذلك، ثم اذا حصل له التأديب يشفعون في رجوعه بإذن الشيخ. وسمعت الشيخ سيدي علي المرصفي يقول: من شرط ادب المريد مع الشيخ ان يعادي من عاداه ويوالي من والاه فقد ورد في الحديث الحسن ان الله تعالى يأمر ببعض العباد الى النار فتقول الملائكة يا رب انه كان كثير الصلاة والصيام والحج ويذكرون شيئاً من القربات فيقول الله عز وجل: قد كان كذلك ولكنه كان لا يوالي من والاني ولا يعادي من عاداني فتقول الملائكة سحقاً سحقاً. وكذلك لا ينبغي للمريد ان يفتح باب اللوث لشيخه اذا دخل الزاوية

هدية من فاكهة أو غيرها ولم يعطه شيئاً منها ويقول: إن الشيخ قد مسح الخشب على الهدية الفلانية وتخصص بها أو اعطى منها موالح الرقبة الذين يخاف منهم دون الفقراء اللينين الجانب ونحوذلك، بل الواجب عليه حمل الشيخ على أحسن المحامل ويقول سيدي ما حرمنا منها الا رحمة بنا ولعلها من وجه شبهة او تحتها حملة فله الفضل الذي منعنا الأكل منها. ثم من الواجب على كبار الزاوية ان يزجروا كل من لاث الشيخ بسبب من الأسباب الدنيوية وان لم يزجروه بغى بعضهم على بعض من باب اولى وعمّهم المقت اجمعين. ومن شأنه ان يعتقد كمال شيخه جزماً لينتفي عنه التردد فلو ان جميع اهل مصره مثلاً فهموا شيئاً وفهم أشياخ الطريق شيئاً وجب على المريد تقديم ما فهمه اشياخ الطريق. وكان الشيخ نجم الدين الكبري يقول: طريق القوم هي الصراط المستقيم وهو أجلّ الطرق وأسناها اذ الطرق تشرف بشرف غاياتها وغاية طريق القوم معرفة الحق تعالى والادب معه في جميع ما شرعه على لسان محمد ﷺ، والدال على هذا الطريق سيد الادلاّء لانه وارث علم رسول الله ﷺ وعامل بشريعته فهو الحقيق بأن يلقب بشيخ الاسلام وبالوارث وبالاستاذ. ومن شأنه ان يسمع اشارة شيخه له بالسكوت اذا كان يقرأ في كلام القوم ثم حضر من لا يؤمن به من المحجوبين عنه، وليس له بعد الاشارة ان يقرأ ويجادل ذلك المحجوب. وقد أجمعوا على انه اذا دخل عليهم منازع في أذواقهم وعلومهم فمن الأدب قطع الكلام لان علومهم كعلوم الانبياء لا تقبل منازعة. وفي الحديث عن النبي «لا ينبغي التنازع» ومن شأن القوم ان لا يتعدوا علوم شريعة النبي الصريحة ولا يتدينوا برأي لا يشهد له ظاهر الشريعة كما قال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة انتهى، وانما لم يذكر الاجماع والقياس لان الاجماع والقياس انما يثبتان وتقوم دلالتهما بموافقتهما للكتاب والسنة والله أعلم.

وإيضاح ما ذكرناه من ذم التنازع كما قاله الشيخ نجم الدين الكبري ان علوم القوم خارجة عن تمخض استبداد مدارك العقول من حيث كون العقل ناظرة وباحثة لا من حيث كونها قابلة فهي مبنية على الكشف الموافق للشريعة في باطن الامر لان الشريعة المطهرة جاءت كذلك، فترى غالب احكامها لا يصل العقل الى ادراك حكمته ببادىء الرأي بل لا بد للشخص من معلم يوقفه على خفايا الحكم والله أعلم. ومن كان يخبر عما يعاين ويشاهد فلا يجوز لاحد ان ينازعه فيما أتى به الا بنص صريح او اجماع وانما عليه التسليم والتصديق ان كان مريداً. واذا كان المريد لا يعتقد صدق ما يقول له الشيخ فمتى يفلح.

وقد كان الشبلي رحمه الله يقول: لا ينبغي للمريد أن يتكلم الا فيما يشاهده ويعاينه من العلم. والصمت عليه واجب والفكر عليه مكروه لانه ربما أخرجه عن المقصود فهو غاش ساعٍ في هلاكه مكنّف لحجابه وطرده عن باب حضرة ربه الخاصة، قال: والاولى بالشيخ اذا رأى

المريد يجنح الى استعمال عقله في النظريات ولا يرجع الى رأي شيخه ان يطرده عن منزله وإلا خيف عليه ان يفسد بقية أصحابه إذ المريد الصادق ليس له نظر الى غير ما يقوله شيخه ابداً والله أعلم.

ومن شأنه إذا سقطت حرمة استاذه من قلبه ان يخبر استاذه بذلك ليداويه من هذا المرض العضال، إما بطرده عن صحبته، واما باستعمال ما يزيل عنه الحجب التي طرأت عليه بواسطة وقوعه في معصية او نحوها، واذا طرده فليكن ذلك بالقلب دون اللفظ إلا بسياسة تامة فان المنكر على الشيخ من أكبر الأعداء وليس له ان يحتمله خوفاً من افساد بقية الفقراء.

واكثر من يقع في هذا المرض الذين يجالسون الشيخ كثيراً، ولذلك قالوا لا بد للشيخ من ثلاثة مجالس: مجلس للعامة ومجلس للخاصة ومجلس يعاتبه فيه كل مريد على انفراده، ثم لا يجالس كل نوع إلا غباً يوماً بعد يومين او بعد أيام، مصلحة للمريد لا تكبراً وقياماً للناموس الطبيعي. وشرطه في مجلس العامة أن لا يترك أحداً من المريدين يحضر معهم فيه ومتى سامحهم في الحضور فقد غشهم، قالوا ويكون مجلسه للعامة في ذكر ترغيبهم في الصلاة والصوم والصدقة، وبيان ثمرة ذلك، ولا يخرج بهم الى ذكر شيء من الأحوال والكرامات وما كان عليه الأكابر لأنهم لا يقدرون على المشي عليه. وشرطه في مجلس الخاصة أن لا يخرج عن نتائج الاذكار والخلوات والرياضات، وبيان الطريق الموصلة الى ذلك. وشرطه في مجلس الانفراد مع الواحد من أصحابه زجره وتقريعه وتوبيخه وتصغير أعماله الصالحة في عينه، ويقول له حالك يا ولدي ناقص عن مقام الصادقين وينبهه على دناءة همته، فعلم انه لا ينبغي للمريد أن يطلب من الشيخ أن يأذن له في الجلوس معه كلما أراد، فان الشيخ وان لم يكن عنده أحد من الخلق فهو حاضر بقلبه مع ربه لا يسعه أن يلتفت الى أحد سواه كما قال ﷺ: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» فافهم.

وقد تقدم في الباب انه لا ينبغي للمريد أن يكلف الشيخ بالجواب إذا ذكر له واقعة وقعت له أو سؤالاً في معنى أحوال الطريق بل يرضى عن الشيخ إذا لم يجبه على ذلك، ولكن قال الأشياخ ينبغي له إذا لم يجبه عن سؤاله أن يعطيه من الأعمال ما يكشف حجابه عما سأل ليرقيه إلى ما هو أعلى وأشرف مما طلبه اذا كان أهلاً لذلك، فان من سبق علمه منزلته ربما اكتفى بالعلم وادعى مقام شيخه من غير ذوق والله أعلم.

ومن شأنه ان ينشرح إذا منعه شيخه من الجلوس مع اخوانه او مع تلامذة شيخ آخر فان المضرة بذلك سريعة للمريدين، لا سيما ان كان المريد ضعيف الاعتقاد في شيخه ويخاف عليه التزلزل بل ولو كان ثابتاً يخاف عليه من الرياء والوقوع في تزكية نفسه عند جماعة ذلك

الشيخ ، إذ النفس تشتاق لذكر مناقبها عند من لا يعرفها إلا من يشاء الله . وبالجملة فليس للمريدين الاجتماع ببعضهم بعضاً سواء كانوا جماعة شيخ واحد أو جماعة شيخ آخر فان آفات ذلك كثيرة، وليس لهم الاجتماع إلا في مجلس الورد أو بحضرة الشيخ . وكل شيخ سامح مريده في الجلوس في مجالس القيل والقال فقد غشه ، إلا ان يسبق لذلك المريد الشقاوة بأن صار الشيخ ينهاه عن مثل ذلك فلم يسمع ، فحينئذ للشيخ ان يسكت عنه إذا أدّى اجتهاده الى ان السكوت عنه أنفع لدينه من حيث قلة صدور المخالفة منه . أما غيره فعَلى الشيخ النصح وعلى المريد السمع . وقد كثرت خيانة المريدين للمشايخ ولم يحصلوا من طريق الارادة سوى الاسم فقط، فليوطن الشيخ نفسه على عدم نفع اكثر تلامذته به، كما درج عليه أكثر الأشياخ الماضين، فربما لقن الشيخ الألف وأكثر فلا يفلح منهم إلا واحد .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: ليحذر الشيخ في هذا الزمان من غالب المريدين أشد الحذر فان أكثرهم غير صادق ويفارقون شيخهم ولو على طول ويجتمعون بأعدائه ثم يصيرون يقعون فيه عندهم ويقولون لمن قال لهم كيف فارقتم شيخكم ما كل ما يعلم يقال ولو وجدناه على شيء ما فارقناه فيزكون نفوسهم ويجرحون شيخهم ، قال: وما حدثنا إلا بما رأيناه وقع من بعض أصحابنا والنصح من الإيمان قلت: وايضاح ذلك ان جميع بني آدم تحت أسر القدرة الإلهية فيتغيرون مع الانفاس وما خرج عن ذلك إلا المعصوم ، فالعاقل من لم يعول على أحدٍ لان ذلك الاحد لا يقدر على حفظ نفسه من التغيير بل تتغير قهراً عليه والله أعلم .

ومن شأنه ان يصحب الشيخ للتربية فقط دون علة أخرى من أكل وشرب ووظيفة ونحو ذلك . ومن دخل في صحبة الشيخ بعلة من هذه العلل أو غيرها لا يفلح أبداً ما دامت تلك العلة فيه، واذا تفرس الشيخ من المريد أنه أشرك في صحبته للتربية علة أخرى من أكل أو غيره وجب عليه ان يخرجه عن ذلك ويأمره بالأكل من عمل يده وكثرة الذكر منفرداً حتى يربي له يقيناً، فان تربية اليقين للمريد مقدمة على الاشتغال مع الجماعة بالذكر وغيره، ومن هنا عدم أكثر المجاورين عند الشيخ الانتفاع بالشيخ لكونهم عبيد بطونهم .

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول: من المحال ان يتربى للمريد يقين مع كون الشيخ ينفق عليه ويهيىء له ما يأكل ويلبس، وكل مريد تفرس الشيخ فيه الميل الى ذلك وجب في اصطلاحهم على الشيخ أن يخرجه ويأمره بالجلوس في الخرابات والمواضع التي يقل مرور الناس فيها ولا يعرفه فيها أحد، وكل موضع عرفوه فيه يتحول منه ويقول له: عليك بالتجريد والاشتغال بالله تعالى على الصفاء. وليمده الشيخ بالهمة فان فقدها

فبالسياسة، وإذا جلس المريد في موضع لا يمر فيه أحد وجاع فلا بد أن الله تعالى يفتح عليه اما بالصبر واليقين وإما بشيء يأكله حتى يفاجئه اليقين الكامل فاذا فاجأه اليقين الكامل وعرف الشيخ منه أنه تساوى عنده الجلوس في الزاوية والجلوس في البرية على حد سواء فهناك يصلح أن يجلس عنده في الزاوية والله أعلم. ومن شأنه ان يلزم الادب مع شيخه ولا يتجسس له قط على حال ولا حركة ولا سكون ولا يتعشق الى ذلك ولا يقف له على نوم ولا طعام ولا شرب ولا غسل من جنابة، وكل مريد تجسس على مثل ذلك حصل له المقت لان غالب المريدين ضعفاء الحال. واذا اطلع على شيء ربما نقصت حرمة شيخه في قلبه لجهله بأحوال الكمل ومعرفة مشاهدهم. قالوا وليس للشيخ ان يسامح المريد في تجسسه على حاله بل الواجب عليه اصطلاحاً هجره وزجره مصلحة له. وقد قالوا: خصلتان اذا فعلهما المريد اتلف كل شيء رباه له الشيخ وهما كثرة الأكل والاطلاع على نوم الشيخ أو أكله أو جماعه فليحذر المريد الصادق من مثل ذلك. ومن شأنه ان يزيد في الاعتقاد في شيخه كلما استتر بين الناس فان الصادقين هكذا يكونون كلما طال عمرهم ازدادوا خفاء. وقد قال الرازي رحمه الله: قد جرت سنة الله تعالى في الكمَّل من أوليائه ان يسترهم عن من ليس من اضرابهم حتى لا يكاد يعرفهم احد من أهل الظاهر. وفي الحديث ان الله تعالى يقول: «ان أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري» قلت يحتمل ان يعرف حقيقتهم غيره تعالى او لا يعرفهم قبل كونهم اولياء بالفعل غيره او لا يعرفهم بعد كونهم تحت قبابه غيره ويحتمل غير ذلك والله تعالى أعلم. قال وسبب اختفاء الكمل من الواصلين قلة صدق الطالبين فان غالب المريدين صار طلبهم للطريق مخلوطاً بالحظوظ النفسانية والأهواء المضلة عن سواء السبيل لا سيما وقد ظهر أقوام كثير ادعوا معرفة الطريق وليسوا باهل لذلك فقاس الناس الصادقين على غير الصادقين، وراج أمرُ الكذابين عند الامراء والاكابر وتعطل أمر العارفين وصار جلاس الكاذبين يرجح على جلاس الصادقين، وصرت تقول لغالب الناس فلان من أولياء الله عز وجل فلا يصدقك ويقول كل هؤلاء مصابون مراءون.

ومن ثم قال الرازي رحمه الله: يجب على المريد الصادق ان لا يبادر لصحبة كل أحد بل يتمهل ويتربص وينظر في أحوال مشايخ بلده فكل من رآه زاهداً في الدنيا يحب الخمول ويكره الشهرة وأعماله موافقة للكتاب والسنة لا يكاد يجد كاتب الشمال شيئاً يكتبه عليه وأوقاته محفوظة عن الضياع لا تجده إلا في عمل مشروع، فمثل هذا يجب على المريد ان يتتلمذ له ويعكف على خدمته، لا سيما ان شهد له بالصدق فقراء عصره وكان جالساً باذن من شيخ صادق والله أعلم. ومن شأنه ان لا يقنع في طريق فقره بالآباء والجدود كما عليه اولاد غالبية المشايخ بل يجب عليه ان يتخذ له شيخاً يربيه فليست المشيخة بالارث انما هي بالجد والاجتهاد.

وكان الرازي رحمه الله يقول: لا ينبغي للشيخ ان يبادر لأخذ العهد على أولاد المشايخ المتمشيخين بالآباء والجدود إلا بعد امتحانهم في الصدق في طلب الطريق ودخولهم أمره ونهيه فان غالبهم يرى نفسه افضل من جميع المشايخ الظاهرين في عصره ممن ليس له سلف في المشيخة بل سمعت بعضهم يقول أنا لا اعتقد في أحد إلا إن كان أبوه في تابوت فبلغ ذلك القول الى شيخ ليس أبوه في تابوت فعمل لابيه ستراً وتابوتاً وهذا كله من خفة العقل. قال الرازي: وقد أخذت العهد على جماعة من اولاد المشايخ القانعين بالزي من غير علم ولا عمل فما نتج منهم احد وعلمت ان التعب معهم ضائع لا سيما اولاد شيخ الانسان فان نفوسهم تكاد تنكبس ان يأخذوا الادب عن أحد من مريدي والدهم ابداً ولو بلغ الطريق اقصى الغاية ويقولون ان هذا لم يكتسب الصلاح الا من والدنا ونحن الاصل فاياك يا أخي ان تطلب ان مثل هؤلاء يتلمذون لك وتصير تتحكم فيهم كغيرهم فإن ذلك بعيد جداً، ولكن ان اردت ان تنصحهم فانصحهم على لسان والدهم من طريق بعيدة فتقول بلغني ان والدكم كان من خلقه كذا وكذا وانه كان ينصحني بكذا وكذا وتقدر صفاتهم الخبيثة وتضيفها لنفسك. قلت وقد حمى الله تعالى من ذلك اولاد شيخي الشيخ محمد الشناوي فكان ولده الشيخ عبد القدوس يحبني اشد المحبة وينقاد لي اشد الانقياد وكذلك ولده الشيخ عبد القدوس الذي هو في زماننا هذا فالله تعالى ينفعنا ببركاتهم فانهم كادوا ان يتجاوزوا مقام شيخهم سلفهم في الاخلاق المحمدية رضي الله عنهم. قال الرازي وقد جلس جماعة في عصرنا من غير اذن من أشياخهم وصاروا يأخذون العهد على المريدين من غير علم بالطريق فأفسدوا أكثر مما اصلحوا وكان عليهم اثم قطاع الطريق اي طريق القوم وربما كان أعظم من اثم قطاع الطريق عرفاً في بعض الأحوال وأحدهم شيطان في زي انسان انتهى. وكان سيدي احمد الزاهد رحمه الله يقول: لا ينبغي ان يسمّي كلاً من فقراء القلندرية والحيدرية والملامتية على الاطلاق فقراء اي وليّاً أو صوفياً فقيراً لان اكثرهم خارج عن الشريعة كما قال وكذلك الحكم في أكثر فقراء الاحمدية والرفاعية والبسطامية والادهمية والمسلمية والدسوقية فان افعالهم يكذبها طريق اشياخهم التي كانوا عليها من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد على ظاهر الكتاب والسنة فلا يؤمر مريد بالادب مع هؤلاء بل الأولى له هجر مجالسهم. قال والضابط الذي يعرف به الصادق من غيره ان كل من رأيناه متقيداً بظاهر الكتاب والسنة متأدباً بآداب اهل الطريق على وفق سير المشايخ المنقولة في مثل رسالة القشيري والحلية لأبي نعيم فهو صادق في دعواه المشيخة فيجب علينا التأدب معه كما سيأتي إيضاحه آخر هذا الباب ان شاء الله تعالى. ومن شأنه ان يزداد تعظيماً لشيخه على ممر الايام وذلك دليل على سرعة نتاجه في الطريق وسرعة ادراكه فانه على قدر ما يسقط عنه من حرمة شيخه يطول زمن فتحه.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: احذروا من مكر الأشياخ بكم فربما طردوكم بالقلب حين لم يتفرسوا فيكم خيراً وربما مزحوا معكم مزاحاً خارجاً عن مزح أهل الطريق فأزالوا حرمتهم من قلوبكم ففارقتموهم وانتم غير معتقدين فيهم. ومن هنا أجمعوا على أنه ليس لمريد ان يصحب إلا من سكنت عظمته في قلبه وأمن من التزلزل فان السلامة مقدمة على الغنيمة.

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: حكم المريد قبل اخذ العهد عليه حكم الجديد النقرة وحكمه بعد مفارقته الشيخ بزلة من الزلات حكم النصف الزغل فلا أحد يقربه والله أعلم. ومن شأنه ان يعتقد في طريق شيخه انها على الكتاب والسنة قبل ان يدخل في عهده من طريق التفرس والمخالطة وذلك ليأمن الاعتراض عليه، فان المريد في بداية أمره حاله ضعيف والانكار على طريق شيخه يوحشه ويورثه الشك في صحة طريقه فلا يفلح على يديه.

قلت: وكان لي رفقة من طلبة العلم يحبونني فلما تحول عزمي الى طريق القوم جفوني وصرت كأني مرقت من الدين عندهم فقلت ان طريق القوم ليس فيه ما يخالف ظاهر الشرع فلم يصغوا الى قولي ومكثوا ينفّرونني عنها نحو عشر سنين مع اني بحمد الله ما طلبت طريق القوم الا بعد حفظي المنهاج وكتاب الروض والتوضيح والالفية في النحو والالفية في علم الحديث وتلخيص المفتاح وعدة كتب وشرحتها على الأشياخ. وكذلك وقع للامام اليافعي التميمي رضي الله عنه فحكى في كتابه المنهاج انه مكث خمس عشرة سنة في نزاع فخاطر يدعوه الى الاشتغال بالعلم على طريق العلماء وخاطر يدعوه الى الاشتغال بما عليه الصوفية، قال: وكان الفقهاء يأمرونني بموافقتهم ويقولون طريقنا يتضمن طريق غيرنا وطريق غيرنا لا يتضمن طريقنا، فقلت في نفسي بتوجه تام اللهم بيّن لي أي الطريقين اقرب اليك، فبينما انا امشي في شارع من شوارع زبيد اذ لقيني شخص من ارباب الاحوال وقال الى متى تشك في طريق القوم؟ اسلكْ منها فانها أقرب الطرق الى الله تعالى، قال فقلت له: اريد البيان، فقال نعم، فدخل زاويته وقال ارسلوا لنا خلف العالم الفلاني ممن لا يرى الشيخ اذ ذاك رد السلام اذا سلم فخرج النقيب اليه فقال الشيخ للجماعة لا احد يرد السلام اذا جاء ولا يقوم له ولا يفسح له فقالوا سمعاً وطاعة. فلما حضر قال السلام عليكم فلم يرد احد عليه السلام فقال حرام عليكم فجلس فلم يفسحوا له فقال خالفتم السنة فقال له الشيخ الفقراء في أنفسهم منك شيء فقال وانا في نفسي منهم أشياء واشار باصابع كفه كلها فقال للشيخ: انظر يا يافعي ما اثمرهُ علم هذا. ثم قال للنقيب ارسل وراء الفقير الفلاني وأمرهم ان لا يردوا عليه السلام ولا يقوموا له ولا يفسحوا له ففعلوا معه ذلك فصار يبتسم ويقول أستغفر الله تعالى ثم وقف عند النعال وأخذ النعال على رأسه وبكى فلم يلتفت أحد إليه فقال له الشيخ الفقراء في نفوسهم منك شيء فقال انا أشهد ان

لا اله الا الله وان محمداً رسول الله فقال الشيخ لليافعي انظر ما أثمره صحبة الفقراء. قال اليافعي : ما أقبلت بكليتي من ذلك الوقت على طريق القوم الى ان كان ما كان انتهى.

وقد كان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام من أشد المنكرين على الصوفية في بداية أمره ويقول وهل ثم طريق يتقرب بها الى الله تعالى غير ما بأيدينا من العلم؟ فلما اجتمع بالشيخ ابي الحسن الشاذلي وتلمذ له صار يمدح طريق القوم ويقول ان هؤلاء القوم قعدوا على قواعد الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم. قال ومن أصدق دليل على قولي هذا انه لا يقع على يد فقيه قط كرامة ولو بلغ في العلم ما بلغ الا إن سلك طريقهم في العمل، اذ الكرامات فرع المعجزات، وهي دليل على صدق الاتباع للشريعة انتهى.

فعلم ان طالب العلم لو أخلص في طلبه لهذب العلم اخلاقه واستغنى عن الاجتماع بالصوفية وكان هو الصوفي ولكن لما قنع بحفظ النقل ولم يعتن بالاخلاص احتاج الى صحبة من يهذب أخلاقه.

وقد كان الشيخ ابراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: أقبل يا ولدي على طريق القوم فانها هي الطريق التي درج عليها السلف الصالح من الصحابة والتابعين لكن بعد معرفتك ما اوجب الشرع عليك معرفته والله تعالى اعلم. ومن شأنه ان يجلس بين يدي شيخه دائماً حتى يفرغ قلبه من حظوظ نفسه في جميع معلوماته طالباً للزيادة وذلك ليفرغ عليه الشيخ علماً آخر فوق علمه، وقد كان المشايخ الذين ادركناهم اذا جاءهم فقير يطلب الطريق يقولون له امسح لوحك وتعال فان اللوح اذا كان مكتوباً لا يقبل كتابة أخرى ولو قدر ان احداً كتب على تلك الكتابة فلا يصح قراءة الأولى ولا الثانية.

وأنشد سيدي علي بن وفا في ذلك أبياتاً وهي:

يـا طـالبي لا يغـرك انـك من الابـرار ... فحضـرتي ما يـدخل فيهـا سـوى الاحـرار
ان رمت تسمع قولي فـرغ لقولي سمعـك ... من كـل ما قـال غيـري في سـائر الادوار
واعزم على تجريـدك ودك وهمك يـا فلان ... فـان انـوار نـطقـي على التـوهم نـار
اقْضِ اجـل اوطـارك ولا تـرى أهليتـك ... واخلع نعـل معقولـك وألْقِ عصى الاخيار
اضـرم جميع اوطـارك بنـار صـدق محبتي ... وأْنس الى نـور كشفي ان احـرق الاغيـار
واسْعَ مجرد مفـارق عن كل شيء تـألفـهْ ... من بـاطن او ظـاهـر مقبـل بـلا ادبـار
وان بقـا فيك بقيـة وقفت مـع لـذاتهـا ... وان فـنيت جميعـك رأيـتـني اجـهـار
ان كنت خاطب راغب ادخل على شرط الوفا ... واعمل فحوله ورجله واهجم على الاخطار

ولا يردك مانع عن ان تجد هذا المنى ... ولا تهب شيء دونه وان هابه الشطار
وان وجدت محبة وصدق وجد يجذبك ... فذاك اذن بأنك تبقى مع الحضار

إلى آخر ما قال. فتأمل يا أخي في هذه الابيات فانها جامعة للادب مع الاشياخ والله أعلم.

ومن شأنه بل من الواجب عليه ان يبادر الى مصالحة شيخه اذا غضب عليه وان لم يعلمه بذنبه، ومن تساهل في عدم المبادرة الى صلح استاذه فهو دليل على خذلانه وربما رجع الى حالة أنقص من الحالة التي كان عليها قبل صحبة الشيخ فان كانت مدة صحبته عشر سنين مثلاً يرجع إلى حالته التي كان عليها قبل سوء الأدب إلى عشر سنين وكأنه في العشر سنين يعمل في غير معمل وقس على ذلك. وقد قالوا من أكل لقمة من حرام لم يعد الى حالته اربعين سنة وغضب الشيخ ربما كان من تلك اللقمة ومتى قال لأستاذه قل لي على ذنبي فقد اساء الادب لانه لا تحجير على الشيخ فيما يفعله مع المريد من الامتحانات التي يختبره بها.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: من لم يكن شيخه عليه اشد من دخول النار فليس له في الصدق قدم وهو دليل على استحكام الخبث في باطنه واقبح من ذلك غضبه هو على شيخه وطلبه من شيخه أن يبدأه بالصلح لان في ذلك غش للمريد واستهزاء بالطريق ومن شأن الطالب لشيء الذل والمطلوب منه ذلك الشيء العز والمريد هو الطالب.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: اذا كان العاق لوالده الطيني لا يرفع له الى السماء عمل فكيف بوالده الروحي الذي يريد ان يجعله جليساً للحق جل وعلا لا يمنع من دخول حضرته في ليل ولا نهار انتهى.

وسمعت ولدي عبد الرحمن وهو ابن خمس سنين يقول: المريد الصادق اذا غضب شيخه عليه تكاد روحه تزهق منه فلا يأكل ولا يشرب ولا يضحك ولا ينام حتى يرضى عنه شيخه واذا غاب عنه شيخه في سفر أو مرض يعد ذلك من جملة شقائه ثم لا يزال عاكفاً في عتبة باب شيخه اذا مرض حتى يخرج فيكون ذلك اليوم عنده اعظم من العيد، والمريد الكاذب بالعكس يفرح اذا غاب عنه شيخه خوفاً ان يناقشه في أحواله، قال لي: وغالب المجاورين الذين عندك في الزاوية يفرحون اذا غبت عنهم انتهى.

فاعجبني اطلاعهُ على هذه الاحوال مع صغر سنه فأسأل الله ان يجعله من خواص اوليائه من فضله وكرمه آمين. ومن شأنه ان يشكي خواطره المستقلة للشيخ دون ما لا يستقر، لا يهاب الشيخ في ذلك، فانه طبيبهُ والطبيب لا يجوز للمريض ان يكتم عنه شيئاً من أوجاعه التي يتعطل

بها عن عبادة ربه ويشوش عليه الحضور مع ربه عز وجل اما الخواطر التي لا تستقر فلا ينبغي له ذكرها لأنها مغفورة وتستغرق العمر كله اذ هي سبعون ألف خاطر في اليوم والليلة عدد الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور كل يوم فان جبريل ينزل كل يوم نهراً فيغتسل منه ثم ينتفض فيقطر منه سبعون ألف قطرة فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكاً هكذا قال الشيخ محيي الدين ابن العربي في الفتوحات المكيّة. ثم لا يخفى عليك ايها المريد انه لا ينبغي للشيخ التصريح بالخواطر المذمومة على رؤوس الأشهاد الا ان كانوا كلهم من أهل الصدق، اما اذا كان هناك اخلاط فلا ينبغي التصريح بشيء من ذلك لما يترتب عليه من الأفات اقلها الاستهزاء باهل الطريق واساءة الظن بهم. ودليل القوم في شكواهم الخواطر لاستاذهم ما رواه البغوي في كتاب المصابيح وصححه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس الى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله اننا نجد في نفوسنا ما يتعاظم احدنا ان يتكلم به، فقال ﷺ: او قد وجدتموه؟ قالوا نعم فقال: ذلك صريح الايمان انتهى، فانه يفهم من هذا الحديث انه ينبغي للمريد الصادق وان علت مرتبته ان لا يتخلف عن مجلس شيخه ولو بعدت داره ليزيده من فضله اذ الشيخ باب رحمة الله للمريد لانهم ما جاؤوا الى النبي ﷺ الا من محل بعيد عن مجلس النبي ﷺ. ويُستفاد من قول الصحابة رضي الله عنهم في الحديث انا نجد في نفوسنا ان تربيتهم كانت كملت وان سؤالهم انما كان في المعارف الالهية والتجليات الربانية التي يخاف من النطق بها الوقوع بالكفر كما اشار اليه رسول الله ﷺ بقوله لهم ذاك صريح الإيمان، وان سؤالهم لم يكن في شيء من مبادىء السلوك كاصلاح فرائضهم وسننهم لان ذلك لا يتعاظم في نفس المؤمن السؤال عنه. ويستفاد من الحديث أيضاً ان للمريد اذا عرض خاطره المحتمل للخير والشرّ بملأ من الناس يكون بالإشارة والكتابة دون التصريح بحقيقة الامر فانهم اخبروه بطريق الإشارة كما تقرر وانه ما منعهم من التعبير عنه الا التعظيم لله عز وجل. ويستفاد من قوله ﷺ او قد وجدتموه بهمزة الاستفهام ان للاستاذ ان يسأل مريده عن حاله وان كان يعلمه ويُظهر للمريد انه لم يطلع على خواطره خوفاً ان يخجله ويهتك سريرته عنده. ويستفاد ايضاً من قوله ﷺ للصحابة ذلك صريح الايمان ان للاستاذ ان يمدح المريد اذا لم يخف عليه الوقوع في عجب او نحوه. ويستفاد من الحديث ايضاً انه ليس للاستاذ ان يستفصح المريد عن حالة تحقق بها وادركها ذوقاً انما الواجب عليه في الطريق ان يصححها له بالجواب ويقره عليها كما يقره على جميع الافعال القلبية اذا وافقت الشرع، وانه ليس المريد ان يكتم عن استاذه شيئاً من الامور التي اشكلت عليه في الباطن. فقد علمت ان طريق شكوى الخواطر طريق صحيح على الكتاب والسنة خلافاً لمن أنكره من الجهلة، لكن يحتاج الشيخ الذي يزنها للمريد الى الاطلاع على محل تلك الخواطر من حضرات الاسماء الالهية فان الجاهل بتلك الحضرات لا يعرف

ميزان تلك الخواطر بل هو يخبُط في ضلال. وقد وضع السيد الشريف سيدي علي بن ميمون شيخ سيدي محمد بن عراق وغيره رسالة في بيان موازين الخواطر فراجعها ان شئت ـ والله أعلم ـ يؤول لافعال شيخه التي ربما يفهم أحد من ظاهرها الفساد على احسن الوجوه فان لم يجد تأويلاً فليسلم للشيخ لانه ربما أطلع الشيخ مريده على امور لا حقيقة لها كما يقع من أهل السيميا لان أبدان الأولياء مرايا ولا يرى المريد في المرآة الا وجه نفسه، على ان الشيخ لا يطلع المريد على شيء مما يخالف الظاهر الا لحكمة كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام. ولم تزل الاشياخ تمتحن المريدين ليظهروا لذلك مرتبتهم لهم او لاخوانهم. وقد روي ان رسول الله ﷺ قال يوماً لابي بكر ما اصبح لآل محمد قوت في هذا اليوم فأتاه بجميع ماله ثم قال لعمر بن الخطاب فأتاه بشطر من ماله ثم قال لابي بكر ما تركت لأهلك قال الله ورسوله ثم قال لعمر ما تركت لأهلك يا عمر قال شطر مالي فقال ﷺ بينكما مابين كلمتيكما قال عمر رضي الله عنه فمن ذلك اليوم علمت اني لا اسبق ابا بكر بشيء انتهى.

وقد كان سيدي احمد بن الرفاعي يقدم ابا الفتح الواسطي في المحبة على ولده صالح فقالت له امرأته كيف تقدم ابن أخيك على ولدك فقال لم أقدمه وانما الله قدمه، ثم قال له ولولده اذهبا فأتياني بشيء من النجيل فحش ولده حزمة وجاء ابو الفتح بلا شيء فقال لِمَ لم تأت بشيء من الحشيش فقال وجدته كله يسبح الله تعالى فاستحييت من الله تعالى ان اقطع من يسبحه، فقال لامرأته انظري حال هذا وحال ابنك فاستغفرت.

ووقع لسيدي يوسف العجمي انه كان يقدم فقيراً على جميع أقرانه فحسدوه على ذلك فامتحنه الشيخ يوماً وقال له اذا رأيت امرأة مزينة في الموضع الفلاني فأدخلها علي فاني رأيت انه مكتوب عليّ اني أنام معها هذه الليلة في الخلوة ثم قال لانسان من أصحابه الذين يحسدون ذلك الفقير اياك ان تخبر بذلك احداً، فقام معها الى الصباح ثم اغضب ذلك الانسان واخرجه من الزاوية وربطه من بيت الوالي وقال هو كثير الفساد، فقال ما كثير الفساد الا الذي ينام مع بنات الخطا في الخلوة ثم أتى بجماعة الوالي للشيخ فدخل عليه الخلوة فشهد الفقراء كلهم والجيران من نساء ورجال ان هذه المرأة هي ابنة الشيخ فافتضح ذلك الصاحب ثم قال للفقير كيف توافقني على ادخال امرأة لا تعرفها، فقال يا سيدي اني لم أخدمك على أنك معصوم وانما خدمتك على انك اعلم مني بطريق الله عز وجل. ووقع له مرة اخرى انه ذبح خروفاً ووضعه في قفة وقال لبعض المريدين يا ولدي إني جرى عليّ المقدور وذبحت هذا الشخص فاسترني فيه واحمله وادفنه في الكوم الفلاني وإياك ان تخبر بذلك احداً ثم أغضب ذلك المريدَ وسبه وقال للنقيب أخرج هذا فانه مفسد فأخرجه فأتاه الوالي وقال انه قتل قتيلاً ودفنه في الكوم الفلاني فذهبوا الى الكوم وحفروا فأخرجوا الخروف المذبوح فافتضح ذلك المريد.

وذكر اليافعي رحمه الله ان بعض الاولياء يقدره الله تعالى على قلب الاعيان التي يصح استحالتها فيجعل العسل قطراناً والقطران عسلاً والخمر حلاوة والحشيش حلاوة فيصير الناس ينكرون عليه وبعضهم أخذ حشيشة ليبلعها فقبض شخص على يده فاذا هي مأمونية.

وحكى لي خادم سيدي أبي الخير الكلبياني ان شخصاً أتاه وأخبره انه قال للشيخ ان زوجتي حامل وقد اشتهت مأمونية حموية ولم اجدها فقال له الشيخ ائتني بوعاء فأتاه به فتغوط له فيها مأمونية سخنة فقال الخادم وأكلت منها لعدم اعتقادي انها غائط انتهى.

ومثل هذه الامور مما لا يعارض النصوصَ الشرعية الأولى التسليمُ لأربابها، لأن الحسّ قد ساعدهم لوجود طعم الحلاوة او القطران او العسل. هذا كله في مواجيد الشيخ. اما اذا أمر المريد بأمر فليس له ان يتناوله على غير ظاهره بل يبادر الى فعله من غير تأويل والله أعلم. ومن شأنه ان يبادر لفعل ما يأمره به شيخه ولو لم يعلم له ثمرة كما مضى عليه المريدون الصادقون بخلاف ما عليه اكثر مريدي هذا الزمان، فيقدم المبادرة الى امتثال أمر زوجته مثلاً على امتثال أمر شيخه ولذلك تخلفوا عن الوصول الى مقامات الرجال، فحكم احدهم من ربط في عنقه صخرات عظيمة مثقوبة بعدد هفواته وأحكم ربطها في عنقه بحبال وثيقة، وداعيته الى السير ضعيفة، وشيخه يسحبُه الى قدام بحبل العنكبوت، وداعيته الى الشهوات تسحبه الى ورائه بالحبال الوثيقة.

وقد كان الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر يقول: المريد الصادق هو الذي لا يتعب شيخه فيه لما عنده من النهضة والعزم والله أعلم. ومن شأنه ان يكون غرضه فانياً في اختيار شيخه فمهما اختاره شيخه كان هو المراد فليحذر المريد أن يتكدر من شيخه اذا عمل المريد له طعاماً ودعاه فلم يحضره، أو عمل له ثوباً فلم يلبسه، فان مال المريدين مكروه للاشياخ في اصطلاحهم، الا ان صار المريد يرى نفسه وماله لشيخه، وعلة كراهة اكل طعام المريد على الشيخ كون ذلك يورثه الادلال على الشيخ ويصير له المنة على الشيخ ولو في باطنه فيحرم المريد الفائدة ويصير يستصغر شيخه ويحتقره لقبوله هديته وأكله من طعامه كما سيأتي بسطه ان شاء الله تعالى في هذا الباب والله أعلم. ومن شأنه ان لا يطيع في شيخه عدواً ولا بحالة فضلاً عن كونه لا يصاحبه إلا لضرورة شرعية، وايضاح ذلك ان شيخه لا يكون مُسلماً الا لأمر شرعي دعاه الى ذلك، واذا كانت معاداة الشيخ انما هي بوجه شرعي فينبغي للمريد ان يقلد شيخه في ان ذلك العدو يسوغ هجره وكراهته شرعاً يعني كراهة افعاله لا ذاته، وذلك كما يقلد الناس المجتهد من غير مطالبته بدليل. وكذلك من أدبه ان لا يباعد لشيخه صديقاً ولا يباغضه ولا يصغي قط لقول من مترض على شيخه في تصدره لنصح العباد كما يقع فيه طائفة من الجهّال

فيقولون عن الشيخ الذي لا ينصح الناس ولا يعظهم ولا يرشدهم ولا يربيهم هذا هو الشيخ الصالح الذي لم يفتح على نفسه باب مشيخة، وهذا هو من الجهل المبين فان حقيقة المشيخة ان صاحبها يتصدر لنفع العباد في دينهم وذلك واجب فكيف يمدح من ترك الواجب وعصى الله ورسوله.

وقد أجمع الأشياخ على انه لا يجوز لأحد ان يحمل مشايخ الطريق على ما يتبادر الى أذهان العامة من طلبهم بالوعظ والارشاد الرياسةَ على الناس حاشاهم رضي الله عنهم من قصد مثل ذلك فعلم انه ينبغي للشيخ ان يبين قصده الصحيح للناس حتى لا يقعوا في غيبته، وانه يجب على المريد ان يجيب عن شيخه اذا سمع احداً يعترض عليه الا ان نهاه شيخه عن ذلك، وكذلك يجب عليه ادباً ان يحب كل من احبه شيخه ويبعد عن كل من ابعده شيخه جملة واحدة، لانه ربما تزلزل اعتقاده في شيخه ككلام المعترضين بسماع والمنقصين ممن هو محجوب عن مشاهدة لم تدخل دائرته كما هو حكم غالب الناس، لان غايتهم الوقوف في دائرة الغير لا يكادون يبرحون عنها ودائرة الشيخ تبتديء من بعد نهاية دائرتهم بكثير فالمعترضون على الشيخ معذورون من وجه في انكارهم عليه لانه فعل شيئاً لا تحكم باباحته دائرتهم غير معذورين من الوجه الآخر، وهو ان فوق علومهم علوم.

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: ليس للمريد ان يجالس من يعترض على شيخه ابداً، لانه ربما أورث عنده شكاً في حال شيخه بكلامه الجافي وميزانه الجائر.

وسمعته مرة أخرى يقول: من ادل دليل على صحة عدم صدق المريد في محبة شيخه ان يسمح بكره احد من أصحابه او ينقصه او يكشف له عورة، فان ذلك يسوء الشيخ، والمحبّ لا يسوء محبوبه بسوء. ثم ان تنقيص صاحب الشيخ يرجع الى تنقيص الشيخ.

وكان يقول: ليس للمريد أن ينقص احداً من اصدقاء شيخه، ولكن ان أمره الشيخ بالتباعد عن أحد من اصدقائه فلا بأس لانه ربما أشغل احدهما صاحبه عن ربه عز وجل، ولا يغتر المريد باقبال شيخه على ذلك الصديق الذي نهاه عن القرب منه لأن من شأن الشيخ الاقبال على الناس كلهم محبهم ومبغضهم قبول رحمة وشفقة ونصح، ولا يقطعه ذلك عن الله بخلاف المريد، ثم ان جميع ما ذكرناه انما هو في حق المريد الذي يخاف عليه التزلزل كما أومأنا اليه زيغاً، لا في حق من لا يخاف عليه ذلك لصحة ارتباطه بشيخه، وإلا فقد حكى الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله انه عادى شخصاً كان يكره شيخه فرأى رسول الله ﷺ وصار يقول له يا رسول الله ما ذنبي فقال كيف تكره فلاناً لاجل بغضه شيخك اما علمت انه يحبني فلم لا أفنيت بغضه في شيخك في محبته لي، قال الشيخ محيي الدين فمن ذلك اليوم ما

كرهت احداً علمت انه يحب الله ورسوله لاجل ان شيخي يبغضه والله أعلم.

ومن شأنه ان يحذر من العجلة فلا يبادر لفعل ما امره به شيخه الا ان كان عالماً بشروط صحة ذلك الامر، كما انه لا يدخل الى الصلاة الا بعد معرفة شروطها ومعرفة كيفية افعالها كلها ويميز بين فرائضها من سننها كما هو مقرر في كتب الفقه فلا تكون المبادرة الا بعد معرفة اركان ذلك الامر وشروطه، قالوا واذا كان ارسله شيخه في حاجة وكان مكانها بعيداً فمن الادب ان لا يطلب له شيئاً يركبه الا ان كان عاجزاً عن المشي اليها عادة، وكذلك لا يطلب للحاجة محملاً الا اذا عجز عن حملها فان اقل مراتب الادب مع الشيخ ان يكون الحكم معه في ذلك كحاجة نفسه او حاجة زوجته واولادها اذا بكوها عليه فطلبوها منه، فان مراعاة خاطر شيخه مقدم على حاجة زوجته وغيرها. وقد رأيت من يمشي على نحو المرحلة في هوى نفسه وفي هوى زوجته، واذا قال له شيخه اذهب الى حاجة هي دون ذلك يطلب له حماراً، فمثل هذا لا يرجى له فلاح.

وقد كان سيدي محمد السروي يرسل شيخنا الشيخ محمد الشناوي في الحاجة ماشياً من فارس كوره الى طندتا فيذهب ويجيء بالحاجة ماشياً.

واخبرني الشيخ محمد الصبيحي احد اصحاب سيدي ابي العباس الغمري ان سيدي ابا العباس اهدى اليه انسان قفصاً من دجاج وهو في ناحية نبتيت بالشرقية، فقال مرادنا احد يوصل ذلك القفص الى دارنا بمصر فتوارى عنه سيدي الشيخ علي بن الجمال فحمل القفص على رأسه من نبتيت الى مصر وهي مسافة بعيدة فبلغ ذلك الشيخ سيدي ابا العباس فتكدر لذلك وقال لم أُرِد الامر على ما فعلت، مع ان سيدي الشيخ علي هذا كان قد طعن في السن وله تلامذة كثيرة؛ فرضي الله عن أهل المروات، فليحذر المريد من قوله لشيخه هات لي حماراً أركبه حتى اقضي لك حاجتك الا عند العجْز الظاهر والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يطأ فرش شيخه برجله اذا كان في طريق حاجته بل يطويه او يرفعه ثم يمشي لحاجته داخل بيت الشيخ او خارجه، وان اراد ان يطوي رجليه ويمشي على فرش الشيخ بركبتيه فلا بأس، وكذلك لا ينبغي ان يدخل لشيخه قط خلوة ولا بيتاً الا باذنه الخاص فلا يكفيه اذنه العام، كإن اذن لجماعة بالدخول فدخل معهم الا ان يكون نقيباً ويعرف بالقرينة انه يحتاج اليه في مد السماط للداخلين او خدمتهم مثلاً، فهناك يدخل بلا اذن خاص. وليحذر من الاعتراض عليه في امره بتقديم الطعام القليل الذي لا دسم فيه للأمراء وتقديم الطعام الكثير اللذيذ للفقراء، ويقول هؤلاء يستحقون مثل ذلك، فان ذلك من سوء الأدب مع الشيخ. وكذلك لا يعترض على الشيخ فيما لو فعل هو ذلك فقدم اللذيذ للامراء والقليل للفقراء وان للشيخ مشهداً صحيحاً في جميع افعاله.

وكذلك اذا رسم الشيخ لاحد بشيء من الطعام او الثياب لا ينبغي له الاعتراض عليه ولو بنفسه، ومن سلك ذلك مع الشيخ فلا بد ان يطرده الشيخ بالقلب ولو على طول لان من شرط النقيب ان يكون كاتماً لسر الشيخ لا يخبر احداً بما فعله الشيخ في داره مطلقاً. وكذلك لا ينبغي للمريد ان يبيت مع شيخه في مكان واحد ابداً كما مرّ تقريره في مبحث ان من ادبه ان لا يقول لشيخه دعني أبيت معك لان الشيخ ربما لم يقم يتهجد بالقيام والركوع والسجود ونحو ذلك من الاعمال الظاهرة تلك الليلة فيصغر في عين المريد فيحرم بركة صحبته له فان ورود الأكابر في الليل انما هي امور قلبية في الغالب من مراقبة ونحوها مما كل ذرة منه ترجح على عبادة المريد ألف سنة، اللهم الا ان يريد منه الشيخ ان يبيت معه فلا بأس لا سيما في الاسفار ايام المطر. وقد قالوا لا ينبغي للمريد ان يبحث عن احوال شيخه في الليل فان ذلك غير مشكور لانه كالعورة، وايضاً فان الأشياخ في النهار مع الخلق في حوائجهم وفي الليل مع ربهم معية محضة لا يشاركه فيها احد.

قالوا: وينبغي ان يكون موضع جلوس المريد دائماً تجاه مجلس الشيخ خلف حجاب بحيث لو طلبه الشيخ وجده اي وقت شاء فان حاجة المريد كلها عند شيخه فلا براح له عن بابه دنيا وأخرى.

وقد قالوا: متى غاب المريد عن شيخه ساعة ولم يشتق اليه وادعى المحبة لشيخه فهو كاذب، فكيف بمن يمكث الايام لا يرى شيخه ولا يشتاق اليه، فان اقل مراتب الشيخ في الاشتياق إليه ان يكون كالزوجة فيحن اليه كما يحن اليها، وأين منفعة الشيخ من منفعة الزوجة، واين من يشغله عن الله مثل من يشغله بالله! لكن ثم من المريدين الصادقين من يكون سبب بعده عن الشيخ الهيبة له مع بقاء الشوق والمحبة، فمثل هذا لا يضره البعد لانه لا استهانة فيه بالشيخ والله أعلم.

ومن شأنه انه اذا قدم شيخه عليه احداً من اقرانه من غير ظهور فضيلة لذلك الشخص فمن الادب التسليم لشيخه، ولا يقول ولو في نفسه هذا لا يستحق التقديم، فربما فعل الشيخ ذلك امتحاناً لنفس المريد الذي ادعى التواضع لاخوانه، وانه صار يرى نفسه أحقرهم وكأنه تحت نعالهم، لا بياناً لمقام ذلك الشخص، فعلم ان من ادب المريد ان يقدم على نفسه حتماً كل شخص قدمه شيخه عليه. وقد تقدم في هذا الباب ان من اراد ان يقدمه شيخه فيسلك طريق الاخوان ويؤثرهم على نفسه ويتحمل بعد ذلك اذاهم، فان الله تعالى قدمه عليهم ان شاء الله تعالى قال تعالى: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا). فما فرحوا بالامامة حتى بلغوا مقام التحقيق في الصبر بحيث شهد لهم تعالى به. وقد قالوا: المريد الصادق يكاد يملك قلب

شيخه من كثرة الأدب معه ومع الاخوان لما هو عليه من المروءة والخدمة، والمريد الكاذب بالعكس فتنفر منه قلوب الناس اجمعين. وأجمعوا على ان كل مريد نازع الشيخ في شيء فعله فهو ناقض العهد الذي اخذه عليه سابقاً بالسمع والطاعة، وكأن لسان حال هذا الكاذب يقول هذا الشيخ لا يعرف شيئاً وهو مغفل وانا أعرف منه؛ وهو عقوق محبط للعمل عند القوم، فمثل هذا لا هو مريد الشيخ ولا الشيخ يعده من مريديه والله أعلم.

ومن شأنه ان يزيد في احترام اصحاب شيخه الخاصين به واكرامهم ويبجلهم اكثر من اخوانه في العموم، وكذلك اولاد شيخه، واذا لطم ولد الشيخ الصغير وجه احد فيشكوه الى ابيه او وصيه او شيخه ولا يلطموه كما لطمهم أدباً مع الشيخ حتى لو مسك ولده وقال الطموه كما لطمكم، فليس من الأدب لطمه فانه جزء من الشيخ لا سيما ان كان ولد الشيخ شريفاً لانه جزء من رسول الله ﷺ، وبالجملة فلا ينبغي له التحكم في ولد شيخه مطلقاً، بل ان كان والده حياً شكوه له فيحكم فيه بما يرى، وإلا احتملوه رعاية لأستاذهم والله أعلم.

ومن شأنه ان يتجرد لخدمة شيخه اذا دعاه للسفر معه الى بلاد الريف او غيرها، ولا يعارضه في السفر ليلاً او نهاراً إلا لضرورة او باذنه، ويتعفف عن اطعمة الناس الذين يعزمون على شيخه جهده، ولا يأكل في مدة السفر إلا بقدر الحاجة الشرعية، فان في ذلك فوائد منها قلة حاجته للبول والغائط واخراج الريح لا سيما في المركب او البلد الذي هو قليل الماء، او الطريق. ومنها عدم تحمل منة الفلاحين في ذبحهم الجدي او العنز او الاوزة او الدجاجة وعينهم فيها لأنها كانت تسد عنهم مسداً في امر الظلمة النازلين بالبلد من كاشف او ملتزم والفقير يأكل ويذهب ليس يحمل شيئاً من همهم. ومنها عدم اللوث بالفقراء من الفلاحين، وقولهم في المجالس ما رأينا أشره نفساً من حماعة الشيخ الفلاني.

ولا يخفى على المريدين ان الناس اليوم قد صاروا في جمرة من نار المظالم لا تنطفيء إلا بموتهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم ان كان المكان الذي ينام فيه الشيخ مخوفاً فمن الادب للمنقيب ان يبيت سهراناً على وجه المناوبة وهذا ارفق، وليحذر المريد اذا رده الشيخ عن دخوله معه دار الضيافة ان يتكدر من ذلك فانه ربما امتحنه بذلك، وكذلك لا ينبغي له التكدر اذا بلغه ان شيخه شكى منه لبعض اخوانه وقال له فلان شره النفس، فربما كان قصد الشيخ شخصاً آخر من الفقراء قليل الحياء خاف ان يقول له ذلك فيفجُر على الشيخ في بلاد الفلاحين ويبهدل شيخه فأضاف الشره الى غيره ممن رآه وَطِيَّ الجانب ويحمل مثل ذلك الكلام فكلمه في حكايته المريد لعلمه بثبوت وده فليكن مالح الرقبة على حذر فانه هو المقصود بالكلام. وكذلك اذا قال الشيخ لمريد في نحو

القضية السابقة ما انت حولي إلا لأجل بطنك دون المحبة لي لا ينبغي له ان يتكدر بل ينبغي له ان يشكر الله على ذلك الذي حذره من الأكل من طعام الناس دون اخوانه لأنه لا سيما وطعام الفلاحين غالبه للعلل وامراض اقلها ليصير الشيخ يشفع فيهم عند الكاشف او شيخ العرب او عند استاذهم، وقلّ فلاح يسلم من مثل ذلك. وكذلك لا ينبغي للمريد ان يتكدر من شيخه اذا مشاه في السفر وركب غيره بل يفرح لأن شيخه يريد بذلك ان يرقي همته الى استحلاء افعال الحق تعالى معه لمخالفة هواه فان من لم يستحل مقارع الاستاذ لم يظفر منه بالوداد والله أعلم.

ومن شأنه ان يحرص على ان لا يدخل عليه محبة لغير شيخه وغير مَن امر الله تعالى بمحبتهم من الانبياء والاولياء وصالح المؤمنين، فان احب ما يكون المريد الى شيخه اذا نظر في قلبه فلم ير فيه محبة لغيره من اقرانه ولا مراعاة لسواه، ولذلك الحكم في نظر الحق تعالى الى قلب عبده اذا نظر اليه فلم يره يراعي غير ربه ولا يميل الى سواه اصطفاه واجتباه وجعله من خواص اهل حضرته، فالمريد الصادق عمله دائماً في نظافة قلبه من كل دنس وشبهة لان الحق تعالى غيور ومحل بلوغ العبد الى مقام محبة الله تعالى له كما ذكرنا ان لا يتأثر ممن يؤذيه وينقصه في المجالس لأن تأثير هذا يدل على مراعاة الخلق دون الحق فآثر نظر العبيد ورجح مراعاتهم على نظر الحق تعالى وذلك ابغض ما يكون عند ربه عز وجل لأنه كما كان الذي لا يراعي سواه في قلبه سواه أحب الناس اليه، فكذلك يكون من يراعي سواه ابغض الخلق اليه فافهم، فالله يجعلنا ممن يراعيه آمين آمين.

ومن شأنه ان لا يشاور شيخه على امر ابتداء إلا ان تقدم منه الاذن قبل ذلك، واما اذا كان تقدم منه المنع كأن قال له لا تبتدئني قط بكلام الا ان ابتدأتك أنا بالكلام، فلا ينبغي له ان يبتدئه ولو ابتدأ لا يلزم الشيخ جوابه، اذ على المريد السكون بين يدي الشيخ دائماً كالميت بين يدي الغاسل، وربما كان في الجواب عن ذلك الأمر الذي ابتدأ به الشيخ ضرر به او بالشيخ كأن قال لشيخه: خذني معك الى الحج او المكان الفلاني او دعني اجلس بين يديك كلما بدا لي ونحو ذلك، وقد درج الأشياخ كلهم على عدم تمكينهم المريد من ابتداء الكلام مع الشيخ والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يتقدم على شيخه في المشي وغيره بل يكون مشيه تبعاً لشيخه في الظاهر والباطن، فان تقدم عليه لحاجة فلا بأس كأن يتقدم ليجس له المخاضة او يكشف له عن حفرة في الطريق في الليالي المظلمة ونحو ذلك فان ذلك من جملة ايثار شيخه عليه بالنفع دون الضر، قالوا ولا ينبغي له ان يستدبر شيخه ابداً إلا باذن ويكون ذلك مع استشعار المريد الخجل والحياء حتى كأنه يمشي على الجمر فان شيخه أعظم حرمة من الكعبة، وقد استحب بعض

العلماء للانسان اذا فارقها انه يلتفت اليها بوجهه ويمشي القهقرى حتى يتوارى عنها بجدار او يبعد جداً.

وسمعت سيدي على المرصفي رحمه الله يقول: لا يعرف مريد مقام شيخه حقيقة إلا ان اشرف على مقام الكمال، فهناك يعرف ما يدعوه الشيخ اليه، اما قبل ذلك فلا يكاد يعرف للشيخ مقاماً، ومن لازم ذلك سوء الأدب معه ومخالفته دائماً امره غالباً والله أعلم.

ومن شأنه ان يرى نوم شيخه أفضل من عبادته هو لسلامة شيخه من العلل والامراض فليس نومه تهاوناً بعبادة ربه وانما ذلك لمشاهده بذوقها، وتقدم قولنا ان نوم العارفين يسمى ورداً، فيقال فلان في ورد النوم والورد من لازمه الوارد والوارد من لازمه الترقي فافهم.

واعلم يا أخي ان كل من ظنّ ان عبادته افضل من نوم استاذه فقد عقه والعاق لا يرفع له الى السماء عمل. وقد أرسل ذون النون المصري شخصاً إلى أبي يزيد يقول له إلى متى الدعة والراحة وقد سارت القوافل فأرسل أبو يزيد يقول له ليس الرجل من يسافر مع القافلة وإنما الرجل من ينام إلى الصباح ويصبح أمام القافلة، فقال ذو النون هذه درجة لم تبلغها أحوالنا فكان ذو النون كالمريد لأبي يزيد في هذه المسألة. ويعرف من هذه الحكاية ما حكي أن الإمام احمد كان يمدح الإمام الشافعي بين أهله كثيراً، فاتفق ان الإمام الشافعي نام عند أحمد ليلة وأهل أحمد يرقبونه فلم يروه قام ولا صلى فقالوا أين ما كنا نسمعه منك في حق هذا؟ فقال الإمام أحمد: إنه استنبط الليلة في هذه الضجعة مائة حُكم من القرآن تنتفع بها الأمة لا تزن صلاتي انا طول الليل حكماً واحداً مما استنبطه، فاستغفر اولاده وعياله في حق الإمام الشافعي رضي الله عنه هكذا درج عليه المريدون مع أشياخهم والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يتزوج ابداً امرأة رأى شيخه مائلاً الى التزوج بها ولا امرأة طلقها شيخه او مات، ومما يشهد لذلك ما ورد ان عمر رضي الله عنه عرض ابنته على ابي بكر رضي الله عنه ان يتزوجها قال لما تزوجها رسول الله ﷺ عاتب عمر أبا بكر في ذلك فقال ابو بكر انما منعني من ذلك اني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، وكذلك مما يشهد لما استشهدنا به ان المهاجرين الأولين طلبوا من سلمان الفارسي ان يؤمّ بهم فقال سلمان رضي الله عنه كيف أؤم قوماً هدانا الله للاسلام على يدهم وأبى ولم يؤم بهم.

وقد قدمنا ان للوارث من الادب ما للموروث وإنّ تفاوت المقام فلا يقال مثل ذلك خاص برسول الله ﷺ لأنا نقول ذلك حرام بنص القرآن وهذا ادب لا غير مع قولنا بجوازه فافترق الأولياء لمن رسول الله ﷺ.

ورأيت في مناقب سيدي محمد الحنفي الشاذلي القطب الغوث رضي الله عنه انه لما

حضرته الوفاة قال لزوجته اياك ان تتزوجي احداً بعدي فيخرب الله تعالى دياره وأنا لا أحب ان يخرب ديار أحد من أجلي .

وكذلك بلغنا عن سيدي محمد الشوعي احد اصحاب سيدي مدين والمدفون في زاويته تجاه قبته انه تزوج بكراً فمكثت معه يسيراً ومات عنها وهي بكر، وكان قال لها لا تتزوجي بعدي احداً أقتله . فلما مات خطبها شخص واستفتى العلماء فقالوا له هذا خاص برسول الله ﷺ فدخل بها فلما جلس عندها قبل ان يمسها خرج الشيخ له من الحائط بحربة فطعنه فمات لوقته .

وقد شاهدت انا شخصاً خطب زوجة سيدي محمد بن عنان بعد موته فأجابته وكتب كتابها، فبينا هو نائم تجاه قبر سيدي محمد خارج شباك ضريحه إذ خرج له سيدي محمد من القبر وطعنه في جنبه وصارت كالكبد المشويِ فأراها لي واخبرني بالقصة وقال احملوني الى بلادي فمات في الطريق .

هذه وقائع وقعت فمن شك فليجرب، اللهم إلا ان يأمر الشيخ بذلك لما رأى لزوجته من الحظ والمصلحة مثلاً فلا بأس بذلك فينبغي للمفتي في مثل ذلك ان يتوقف ويقول انا لا أفتي على احد من ارباب الاحوال كما كان شيخ الاسلام زكريا يقول وتبعه الشيخ شهاب الدين والله وأعلم .

ومن شأنه ان يراعي عيال شيخه بالخدمة والافتقاد بالطعام وغيره كلما سافر شيخه ويقوم مقامه في خدمتهم فان ذلك من الوفاء بحق شيخه، وهناك ان يترقى لخدمة الخلق اجمعين من حيث كونهم عيال الله كما اشار اليه حديث «الخلق عيال الله وأحبّهم اليه أنفعهم لعياله» فان الحق جل وعلا يحب من يحسن الى عبيده لأجله، فالشيخ كذلك لانه على الاخلاق الشرعية .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: من ادب المريد ان ينفق على اولاد شيخه وعياله في غيبة الشيخ وحضوره كل ما يحتاجون اليه حسب طاقته ولو لم يجد الا ثوبه او عمامته باعها واشترى لهم بثمنها ما طلبوه منه؛ ولا يشح على عيال شيخه ببيع عمامته او جوخته مثلاً الا من لم يشم رائحة الادب مع الشيخ، لان الذي يعلمه الشيخ له من آداب الحضرة الالهية لا يقابل بعوض في الدارين فليحذر المريد اذا انفق ماله كله على شيخه وعياله ان يرى انه كافأه على ادب واحد مما علمه له . وقد انفق سيدي ابو العباس المرسي على سيدي محمد الحنفي ثلاثين ألف دينار كانت معه وقال: لو وجدت معي أكثر منها لأنفقته عليه . وكانوا إذا لاموه على ذلك يقول: لأدب واحد تعلمته من الشيخ خير من كنوز الدنيا كلها لو كانت بيدي وانفقتها عليه . وكذلك انفق سيدي محمد على شيخه ابن أبي حمائل ماله كله ثم عوضه الله

تعالى غيره بعد ذلك بدعاء الشيخ له وقال له يا محمد نحن لا حاجة لنا بالدنيا ولو طلبناها لأتتنا ولكن قد اخترنا التقلل منها اقتداء بالسلف الصالح . ولما انفق سيدي محمد الشناوي ماله على الشيخ قال الشيخ أبو الحمائل اللهم عوض عليه خيراً مما بذل فصار ماله أضعاف ما كان؛ هاأنذا أخبرني به شيخنا رضي الله تعالى عنه؛ فعلم ان الاحسان الى عيال الشيخ من محبة الله له وشيخه وذلك أسرع في الفتح .

واعلم ان جميع ما ذكرناه انما هو في حق مريد يرى ان جميع ما بيده لشيخه فلا ينافي ذلك ما قدمناه في هذا الباب من نهي الشيخ ان يأكل من طعام المريد او يأكل منه هدية، لان ذلك في حق المريد الذي لم يصدق مع الشيخ وحكمه حكم الاجنبي فافهم والله أعلم .

ومن شأنه ان لا يقيم بصره في وجه الشيخ بل يغض بصره عن رؤيته ما امكنه وذلك لامور يذوقها السالكون لا تسطر في كتاب، ومن أخلاقه ﷺ انه كان لا يثبت بصره في وجه احد، وكان اذا رأى الهلال صرف وجهه عنه بسرعة، قال بعضهم : ويحتمل ان ذلك انما هو لكون التجلي الالهي في حديث الرؤية شبه به فافهم .

وكان الشبلي يقول : من أدمن النظر الى وجه شيخه فقد خلع ربقة كمال الحياء من عنقه، وتقدم في هذا الباب ان الشبلي يقول : سئلت عن لحية الجنيد هل كان شيبُها اكثر؟ فقال لم اخفق النظر اليها قط لاني كنت اكلمه وأنا مطرق رأسي لان المقصود سماع الكلام لا رؤية شخصه .

كان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : لكن ان ثبت المريد في مقام الادب مع الشيخ ، ولم يلزم من كثرة رؤية وجهه استهانة به بل قصد برؤية وجهه الشفا واللحظ فلا بأس، كما جوز العلماء حمل آيات من القرآن في التعاويذ، لان القرآن المقصود بها ان يكون حاملها في بركتها لا الاستهانة بها ترميه والله اعلم .

ومن شأنه ان لا يستعظم شيئاً من احوانه ان يذكره للشيخ كالزنا والكبر والعجب والنفاق ومحبة الرياء ونحو ذلك من المعاصي المستقبحة شرعاً، بل يذكرها كلها له ليعرفها بدوائها كما مر تقريره في مبحث الكلام على الخواطر في هذا الباب . وربما كتم المريد عن شيخه شيئاً من هذه الامراض فاستحكم العارض او احتاج الى ان يتعب في ازالته أشد التعب . وكل مقام يدخله المريد من مناهل الطريق له حلاوة لا يقدر قدرها، فلولا شيخه يرقبه لأقام فيه حتى مات لا ينتقل عنه اذ الشيخ موضوع لتقرب المريد الطريق وطيها للمريد، فلو كان لكونه خبر الطريق قبله وعرف منها مناهلها وحفرها ومهالكها، فلما رأى استحلاء المريد لشيء من احوال الطريق يقول له المطلوب امامك ويبين له علل ذلك الامر الذي وقف معه وانه من حظوظ النفس،

وهناك تطلب نفسه الانتقال عنه لان من شأنها طلب الزيادة ما دامت ترى ان وراء مقامها مقاماً.

وكان الشبليّ رحمه الله يقول: دخلت يوماً على الجنيد وهو جالس مع عياله أتواجد وانا سكران من حلاوة احوالي، فلما صحوت من ذلك قال لي لا يخلو حالك من امرين: إما ان تكون غائباً بحالك ولذته عن الحضرة، او حاضراً، فان كنت غائباً عن الله فيها متلذذاً بحالك الفاني فلا يليق بك الطرب لأنك محجوب عن الله، وان كنت حاضراً فذلك سوء أدب، فقال الشبلي التوبة يا أستاذ فتاب، فانظر كيف بين الجنيد له نقص حاله في الحالين وتوبته منه والله أعلم.

ومن شأنه اذا كان مجاوراً عند شيخه على وجه التأديب ان لا يخرج من الزاوية إلا باذن من الشيخ او من النقيب او من فقيه الزاوية لا سيما الخروج للسوق فانه قد يورثه قلة الحياء وكثرة الكلام والمحاجة عن نفسه لسرقة طبعه من اهل السوق.

وقد بلغنا ان فقراء سيدي محمد الغمري في المحلة الكبرى كان يأتي الواحد ابوه او عمه فلا يتجرأ أن يذهب للقائه بقصد ان يسلم عليه حتى يشاور النقيب ويقول ان الأدب مع شيخي مقدم على الادب مع أبي الطيني، ومن هنا قالوا من كان له أبوان لا يفلح في الطريق لانه يصير مذبذباً بين ما يريده هذا وما يريده هذا، كما يؤخذ مما يشمله نوع من وجوه الاشارة بقوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)، ثم ان ابا التربية لا يدعو الولد دائما إلا الى الآخرة، وأبوه الطيني الغالب انه لا يدعو ولده إلا الى الأمور الدنيوية فيقول له: اقرأ بالعجل وتعال نعلمك مباشراً في بلدنا او تخطب بالناس وتأخذ رزقة الجامع ونحو ذلك، هذا غاية نظره منه، ومنه قراءته القرآن والعلم مثلاً ولا يذوق شيئاً مما يأمره به الشيخ، فان كان ابوه الطيني يدعوه الى خير فهو أبوه من الجهتين فيتأكد عليه حقه جزماً.

وكان سيدي ابو السعود الجارحي يقول لمن يريد صحبته: هل لك أب؟ فيقول له نعم، فيقول أين هو؟ فيقول في البلاد مثلاً، فيقول له اذهب اليه أنا لا أصحب من له أب غيري.

وكان شيخنا الشيخ محمد الشناوي يرخص للولد في موافقة أمه اذا دعته الى خلاف ما دعاه اليه الشيخ في بعض الاوقات لقلة صبرها وجهلها بما يفعله الشيخ مع ولدها وليس عندها أحسن لابنها من ان الله تعالى يطيل عمره لها في عافية مع اتساع رزقها، والاقتصار على ذلك خلاف ما يطلب الشيخ بيقين وأهل الطريق على عدم مراعاة الوالدة في مثل ذلك لبنائها على الجد والاجتهاد، واذا تعارض عندنا مفسدتان لارتكبنا الأخف منهما، أو أمران دنيوي وأخروي، قدمنا الأخروي بشرطه، وايضاح ذلك ان الأشياخ عجزوا عن كونهم يسيرون بالمريد في الطريق مع اعانة شيئين فأكثر في وقت واحد، وأجمعوا على وجوب قطع العلائق

والالتفات الى الأهل والمال والعيال دون الله تعالى ولو جرى عليه الاشتغال بالله وحده، ثم اذا ذاق ما ذاق الرجال وكمل حاله وصار لا يشغله شيء في الكونين عن ربه، فهناك يقولون له التفاتك للدنيا وتصريفها في آمالها المشروعة كما درج عليه كُمَّلُ الأولياء هو الكمال فعُلم انه الواجب على الشيخ منع المريد من كل علاقة ما دام سالكاً وانه لا يبيح له أخذ شيء من الدنيا إلا بعد كماله ورجوعه للحق فانهم لو أمروه بمخالطة الناس واعطائهم حقوقهم لربما عجز عن السير.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول: كل ما يشتغل به المريدون الله تعالى من الحظوظ من تجارة او عمل حرفة او اشتغال بعلم الاخلاص فيه حكم من ربط في عنقه حبالاً وثيقة تجره الى ناحية قفاه وشيخه يجره الى امامه بحبل العنكبوت.

وكان يقول: اذا اشتغل المريد بالله وحده سار كما يسير الطائر، واذا اشتغل بالله وبغيره زحف كما يزحف الزَّمِنُ مع ضعف عزيمته طالباً وصوله الى البلاد البعيدة والله أعلم.

ومن شأنه ان يفرح اذا نقصه شيخه بين اخوانه وناقشه على النظرة والخطرة والنقير والقطمير، فان ذلك دليل على شدة اعتنائه به ورجائه له الخير والترقي، ولولا ذلك لكان أهمله كما أهمل من لم ير فيه خيراً، فليحذر المريد من موافقة هوى نفسه وتعيره على الشيخ ويقول ان ذلك دليل على كراهة الشيخ لي ولا ينظر. وقد أجمعوا على ان الشيخ اذا رأى مريده على سوء ادب او غفلة او يلغو في مجلس ولم يزجره ولم ينهره فقد مكر به وسعى في طرده عن صحبته، وذلك لأن المريد اذا تمادى في الغفلة واللهو وعدم المناقشة حتى استحكمت الغفلة فيه لا يصير يصغي لكلام الشيخ بل تنفر منه نفسهُ ويقول ان هذا يأمرني بأمر لا يطاق كما وقع لي ذلك مع جماعة من الزاوية وخرجوا عن طاعتي وصاروا يجالسونني بلا داعية ولا انقياد خوفاً من لوث الناس بهم اذا قطعوا مجالستي بالكلية فلم يزدادوا بذلك إلا مقتاً نسأل الله العافية.

ومن شأنه انه يرى ملازمة شيخه للادب والتربية أحب اليه من السفر والحج الذي اعتقد فريضته على نفسه لاحتمال خطأ اعتقاده بأن يكون جاهلاً بواجبات الحج والسؤال عنها كما عليه غالب الفلاحين وجهلة العوام، اما اذا توفرت اسباب الوجوب فمحال من الشيخ منعه، وان فرضنا انه منعه من ذلك فليس هو شيخ وانما هو عاص لله تجب مخالفته لأن الشيخ الحقيقي أمين على المريد في ترجيح اعماله على بعضها فلا يأمره بتقديم مفضول مثلاً إلا ان يرى في الأفضل علة قادحة في الاخلاص او حصول عجب او كبر بذلك على أقرانه ونحو ذلك، وقد رأينا كثيراً ممن حج بغير اذن شيخه حصل له في الطريق غاية الندم وصار يتمنى انه لو قدر على الرجوع لرجع، وموضوع العبادات كلها التقرب الى الله بها مع انشراح القلب، واما

مع السخط والندم فهو فيها الى الاثم أقرب. ثم لا يخفى ان مشاورة الشيخ انما هو في سفر الحج لا في الحج لا سيما ان كان المريد مع شيخه في مكة، فان ذلك لا يكاد يكون فيه مشقة ولا سخط لخفة مؤنته وقصر مدته، فلا يحتاج فيه الى شيخه كما لايحتاج الى مشاورته في حضور المسجد للجمعة والجماعة وصوم رمضان ونحو ذلك، لكن لو وقع ان المريد أقيم في عمل قيل انه ارجح من حج النفل مثلاً، فلا بد من مشاورة الشيخ في ذلك ليخبره بأنها ارجح حتى يقدمه.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول: انما يصلح السفر للرجال اذا كملوا، وأما المريد فاقامته في خدمة شيخه ساعة ساعة افضل به من خمسين حجة على الجهل بآداب الحج وشروطه، وما رأينا قط مريداً فتح عليه من حيث سفره الى مكة وسياحته في الجبال ونحوها بغير اذن شيخه ابداً بل بعضهم حجب هناك لسوء ادبه ولسان حال شيخه يقول له اصبر حتى اعلمك الادب مع الله تعالى في دخول حرمه وبيته ثم سافر على وجه الادب، فلا ينبغي الاعتراض على شيخ منع مريده الحج الا بعد الاجتماع بالشيخ وسؤاله عن العلة في ذلك فان لحوم الاولياء سم على من اعترض عليهم بغير حق والله أعلم.

ومن شأنه اذا اقام في زاوية شيخه ان يقنع بالخبز الحاف ويلبس الخيش بسد باب الاشتغال بالدنيا مما امكن، وقد اجمع الاشياخ على ان كل مريد لم يخلص النية في الاقامة عند شيخه للتربية وجلس لعلّة اخرى لا يفلح في الطريق ابدا ولو كان شيخه من اكبر الاولياء ولا يزاد على ممر الاوقات الا إدباراً ومقتاً لاستهزائه بالطريق وبالشيخ وتظاهره بمحبة الطريق كذبا وزورا. وقد مضى المريدون الصادقون كلهم على الاخلاص في محبة الشيخ والطريق، حتى ان سيدي الشيخ شهاب الدين المرحومي شيخ الشيخ ابي السعود الجارحي رحمه الله اقام عند سيدي الشيخ مدين سبع عشرة سنة لم يذق له طعاما ولا شرب عنده ماء وكان يخرج يشتري له من السوق ما يأكله وما يشربه ويقول لا احب ان أُشرك في الاقامة عند شيخي امرا آخر، فقيل له كل من طعام شيخك بقصد التبرك به لا غير فقال لم ابلغ الى تلك الدرجة انتهى.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: ما طالت الطريق على المريدين المقيمين عند الشيخ الا بعدم اخلاصهم في صحبته ولو انهم اخلصوا وتركوا العلل لحصل لهم كمال الانقياد للشيخ ووصلوا الى حضرته في مدة يسيرة كما كان يقع للصحابة مع رسول الله ﷺ ولكن لما عدم المريدون الاخلاص الكامل كان امرهم في سلوكهم على التدريج شيئاً فشيئاً ولا يكمل انقيادهم للشيخ الا بعد سنين بل غالب المشايخ الذين ادركناهم ماتوا بغصصهم ولم يفتح على احد من مريديهم ولكن باب الفتح مفتوح ما شاء تعالى.

وكان سيدي ابو السعود الجارحي رحمه الله يقول: كل مريد اقام عند شيخه لاجل وظيفته او خلوته او لاجل ما يحصل له على يديه من حين ترك الخرقة فهو خائن لا يجيء منه شيء ولو مكث عند الشيخ عمر نوح عليه السلام.

وسمعته يقول: ينبغي للشيخ اذا اجتمع به تاجر فطلب الصحبة وأتاه بجميع ماله وقال قد خرجت عنه ان يحفظه عنده ولا يتصرف فيه لان الغالب على مريدي هذا الزمان الكذب فربما تهوّر المريد في الخروج عن ماله اول مرة بغير صدق، ثم لما فترت همته احتاج الى ماله وصار يطالب الشيخ به بالحال والقال كما وقع لي ذلك مع عدة جماعة.

وسمعته مرة اخرى يقول: جلس عندي مرة جماعة وادعوا طلب الطريق وحكّموني في انفسهم فأخرجت عنهم وظائفهم في الزاوية وأعطيتها لاخوانهم فنقضوا العهد وفارقوني وصاروا يرافعون فيّ عند الحكام. وعلمت ان كل من جلس عند شيخه لاجل قراءة سبع أو حضور أو أكل أو شرب أو لاكرام الناس له لكونه من جماعة الشيخ فقد تودع من صلاحه للطريق، لان ذلك حكم الاشتغال بالدنيا والحرف التي كان تركها ودخل في صحبة الشيخ بعدها.

وسمعت سيدي على المرصفي رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي للمريد ان يشتغل بحرفة ولا وظيفة الا باذن شيخه، ومتى عرّض له بتركها فليس له فعلها. وقد وقع لسيدي محمد الغمري انه اشترى له قطناً وصار يعمل منه عراقي ويخيطها ويتقوت بها ايام مجاورته عند سيدي احمد الزاهد فنهاه عن ذلك، فقال: يا سيدي انما قصدت رفع كلفتي عن الاخوان حين رأيتهم في ضيق عيش، فقال يا محمد الفقراء انما يتركون الدنيا اختياراً بعد ان عُرضت عليهم ولو ان اهل مصر كلهم كانوا عيالي ما اهتممت لأجلهم انتهى.

وكذلك سمعت سيدي ابا الحسن الغمري يقول: لو صار عندي الف من المجاورين ما حملت لهم هماً لاني أعلم ان الله تعالى لا يضيّعهم كشفاً ويقيناً لا ظناً وتخميناً، وما قيّدهم عندي الا ويسوق لهم ارزاقهم. وكثيراً ما يأتي الشيطان الى المريد في بداية امره ويقول له: كيف تركت ما كان بيدك من الدنيا وجلست في هذه الزاوية فتأكل من أين، وتشرب من أين، وتلبس من أين، وما تعودت نفسك بالشحاذة وسؤال الناس فقل له أخشى لعنة الله تعالى اذا كان يرزقني وانا مدْبر عنه فكيف يضيعني وأنا مقبل على خدمته؟ وهناك يفارقه إبليس والله أعلم.

ومن شأنه ان يتمثل امر شيخه للاكثار من ذكر الله سراً وجهراً، ولا يكون له شغل إلا ذلك ولا يزيد على الفرائض والسنن المذكورة، فقد أجمع الأشياخ على انه ما تم طريق للمريد

اسرع جلاء من دوام الذكر فهو كالحصى للنحاس المصدي فهو وان كان ساعياً في الجلاء كذلك لكن يحتاج الى طول زمان بخلاف جلائه بالحصا الذي هو بمثابة الذكر. ومن هنا قالوا لا ينبغي للشيخ ان يأخذ العهد على مريد الا بعد تضلعه من علوم الشريعة بحيث يصير يعد للمناظرة كما درج عليه السلف الصالح وهي طريقة الشاذلية رضي الله عنهم ومن تبعهم وايضاح ذلك ان الطريق عزيزة لا تقبل إلا من اشتغل بها وحدها فمن اعطاها كله اعطته بعضها، ومن كان وراءه التفات الى مطالعة درسه مثلا فلا يصح له الاقبال على الذكر بكليته بل يصير في محاربة مع نفسه، وان اشتغل بالذكر كان كالمختلس لا سيما اعتراض عليه ويقولون له كيف تترك الاشتغال بالعلم وتشتغل بأمور وهمية فيحصل له التردد في طلب الطريق فلا يفلح فيها. ومن هنا اختار القوم للمبتدىء من المريدين مذهب المحدثين وهو الاخذ بما صرحت به الشريعة اولاً دون ما ولده العلماء بالاستنباط منها الا ان اجمع عليه بقصد التخفيف على المريد. ثم اذا رسخ في الطريق وقوي حاله وعمل بجميع ما صرحت به الشريعة من امر ونهي، هناك يؤمر بالعمل بما ولده المجتهدون والبحث عن اي موضع استنبطوه من الكتاب والسنة. وربما صفت سريرته فأطلعه الله تعالى على مستند اقوال العلماء من غير نظر كتاب، كما وقع لسيدي علي المرصفي وسيدي محمد الشناوي بإخبارهما لي ذلك. ويسمى هذا علم التعريف بالاحكام الشرعية، فلا يكون إلا من باطن الشريعة لانها هي المادة التي يقتبس العارف منها. وأجمعوا على ان اقل حصول ثمرة الذكر ان يصير يحضر بقلبه في صلاته لا يخطر في باله شيء من الأكوان من حين يحرم إلى حين يسلّم، ومتى خطر بباله في فرض الصلاة او نفلها غير الله تعالى فالواجب عليه عندهم الاكثار من الذكر لأنه الى الآن لم يحصل له ذكر وارد الكمال.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: انما حث الاولياء على الذكر لما فيه من جلاء القلب ليصير المريد يأتي الصلاة والعبادات كلها على الوجه المأمور به شرعاً لا غير، ومتى كان له حجاب او ميل الى شهوة من الشهوات فمن لازمه الاتيان بالعبادات على وجه النقص عما امر به. قالوا وانما لم يشتهر عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين الاكثار من الذكر ليلاً ونهاراً على طريق القوم الآن لسلامتهم من العلل، فكانت قلوبهم سليمة واخلاقهم محمدية ليس عندهم رياء ولا كِبر ولا عجب ولا نفاق ولا غير ذلك مما يطرق المريدين الآن، بل ربما يكون كل شيء حصدوه من الاخلاق الردية يطلع مكانه شيء آخر، ومن هنا اجمع العلماء على وجوب مجاهدة النفس وامروا المريد بالسفر اذا لم يجد في بلاده شيخاً يربيه والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يخالف شيخه اذا امره شيخه مباحاً من مباحات الشريعة ولا يحتجّ عليه بأدلة الاباحة، لان الشيخ انما مراده الترقي للمريد والمباح لا ترقي فيه من حيث هو مباح.

ومراد الشيخ ان تكون اوقات المريد كلها معمورة بامتثال امر أو اجتناب نهي فلا يوجد إلا في عمل يؤجر عليه، وما جعل الشارع المباح إلا لتنفس فيه الضعفاء من مشقة التكاليف لغلبة الملل عليهم من كثرة التحجير في الامور الشرعية. ولولا انه سبق في علم الله تعالى وقوع الملل منهم لما شرع لهم المباح بل كانوا كالملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وقد تقدم اجماع القوم على ان كل مريد ترخص ونام ولغى في الكلام وأكل اللذيذ من الطعام لا يرتجى منه خير، إذ الطريق كلها جد وجهاد لا صلح فيها مع النفس ما دامت نفساً ولا راحة حتى يموت العبد، فاعلم ان من شأن المريد الصادق المجدّ الأخذ بعزائم الشريعة دون رخصها.

قالوا ولا ينبغي للمريد ان يتشبه بشيخه في فعله المباح ولا غيره بحكم الارث لرسول الله ﷺ بخلاف المريد.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول ﷺ يذكر الله تعالى على كل احيانه يعني حتى في حال مزحه مع الاطفال والعجائز وغيرهم.

ونقل الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في الخصائص ان رسول الله ﷺ كان مكلفاً بالحضور مع الله تعالى حال خطابه للخلق فلا يشتغل عن الله تعالى بشيء.

ونقل الإمام القشيري عن سهل بن عبدالله التستري انه كان يقول: لي منذ ثلاثين سنة أكلم الله والناس يظنون اني اكلمهم انتهى.

وذكر العلماء ان لرسول الله ﷺ أجر الواجب من حيث انه ﷺ منتزع لأمته مبين لهم الأحكام، فكذلك الحكم للشيخ يبين للمريدين ما جهلوه من امور دينهم ويثاب على فعل المباح اذا أتوا به عرفياً صحيحاً بخلاف المريد لحجابه عن ذلك. فليحذر المريد من قوله للشيخ كيف تنهاني عن المباح الفلاني وتفعله أنت فان ذلك جدال بغير علم ويصير به ناقضاً للعهد والله أعلم.

ومن شأنه ان يقدم امر شيخه على جميع اهوية نفسه، فاذا امره بتنظيف المستراح وخدمة الفقراء في المطبخ والعجين رأى ذلك مقدماً على كل ما يترجح عنده فعله لان الشيخ اعرف منه بطريق الترقي، كما ان البيطار يعرف من امراض الدواب ما لايعرفه اصحابها، وقد خالف في هذا الأمر أقوام فحرموا بركة صحبتهم لشيخهم وحرمواالترقي، إذ النفس من شأنها التلبيس على صاحبها، فما فعل طاعة إلا ولها فيها دسيسة تمنع الاخلاص، وقد قالوا اعمل باشارة شيخك فان خطأه ارقى من صوابك أنت.

وسمعت سيدي علي المرصفي يقول: من خالف نفسه فقد افلح ، ومن وافقها وخالف شيخه فكأنه جعلها شيخاً له مع شيخه، ومن له شيخان لا يفلح ، لان القوم أجمعوا على ان توحيد القصد واجب ليجعلوا لهم هماً واحداً، وقالوا من لم يكن مقصده واحداً متعلقاً بواحد لا يشم من توحيد الحق تعالى رائحة. وقالوا متى خرج المريد بحركة واحدة لشيئين حاجة مثلاً والصلاة فقد أشرك في القصد الا ان تكون الحاجة مطلوبة شرعاً، وذلك لان الشرك ظلم عظيم على اختلاف انواعه، وهو مشتق من الظلمة، ومن دخل الظلمة يحار في الطريق، ومن حار فيها فلا ترجيح عنده، ومن فقد الترجيح فقد الترقي ، ومن فقد الترقي لا يفلح .

وكان سيدي ابراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول: ما من صنعة ولا حرفة الا ويمكن العارف الكامل ان يوصل المريد منها الى حضرة ربه عز وجل، وقد دخل الصحابة رضي الله عنهم في دين الاسلام وهم على حرف وصنايع فأقرهم رسول الله ﷺ على حرفهم وصنايعهم ولم يأمرهم بالخروج عنها وصار يربيهم ويعلمهم امور دينهم الى ان بلغوا مراتب الكمال وبعضهم وصل لدرجة الكمال من اول وهلة. وبالجملة فما دام المريد له اختيار وتدبير ورؤية خلاف ما يأمره به شيخه فهو في مقام العداوة لشيخه والمحاربة له والمنازعة.

وفي كلام سيدي محمد وفا رحمه الله موشح :

القيت عن عاتقي سلاحي وصرت سلماً على الطريق
طرحت نفسي وباطراحي نجوت من فجها العميق

فكن يا أخي سلماً لشيخك لا ضارباً والله يتولى هداك.

ومن شأنه ان يبادر لامتثال أمر شيخه ولا يتوقف على معرفة الدليل على امره به فان ذلك من اكبر قواطع الطريق، فان علم الاستدلال انما يكون للأشياخ والمجتهدين لا المقلدين، وليس قصد الشيخ من المريد الا انه يصير يتكلم من مواجيده وما يقذفه الحق تعالى في قلبه من معاني الآيات والاخبار، الا انه يصير يحفظ عبارات الناس وينقلها كالناسخ.

وأجمعوا على ان الشيخ متى سامح المريد في التحري عليه ومطالبته بالدليل على كل شيء امره به أو نهاه عنه فقد أفسد حاله، وربما سرى ذلك الى بقية جماعته فيتلف حالهم، ويدخلوا باب الجدال. فيجب على الشيخ ان يطرد مثل هذا عن مجلسه بحسن عبارة لا بالعنف، اذا توفرت عنده قرائن الالتباس من اخلاقه المعروفة عند القوم، وذلك كأن يقول له يا ولدي انك قد صرت من اهل العلم بحمد الله وما بقي عندي علم يكفيك فانظر الى احد يزيدك علماً ولا تخالفني تغشّ نفسك. ثم اذا اخرجه الشيخ عن صحبته فان كان فيه خير ومنّ الله

تعالى عليه بالهداية فسوف يرجع الى شيخه ويلزم معه الأدب، وان لم يكن فيه خير فقد استراح منه.

واخبرني شيخي شيخ الاسلام زكريا رضي الله عنه قال: سافرت من جامع الازهر الى المحلة الكبرى فأخذت الطريق عن سيدي محمد الغمري رضي الله عنه، وأقمت عنده أربعين يوماً وقرأت كتاب قواعد الصوفية نحو اربعة كراريس وكنت ابحث معه على طريق الفقراء فقال لي: يا زكريا خذ كلام القوم بالتسليم فانه لا يفتح في طريقهم إلا من سلم بهم فقلت سمعاً وطاعة، لم يُشْكل عليّ شيء من حين تركت مباحثته الا وبادر هو لازالة الاشكال عني ومن ذات نفسه. وكنت اذابحثت معه يتكدر مني اكابر الجماعة ويفرح بذلك أصاغرهم لأن الشيخ كان مجيباً وكانوا لا يتجرؤون على سؤاله، وعلمت حينئذ ان طريق القوم كلها ادب ومطالبات بالحقائق بخلاف اهل النقول انتهى، والله أعلم.

ومن شأنه ان يعظم شيخه كأنها حضرة الصلاة فلا يجلس بين يدي شيخه قط بقميص واحد الا ان يكون متجرداً من الدنيا ليس عنده غيره او يكون في شدة حر مثلاً. قالوا وينبغي للمريد ان يلبس لمجالسة شيخه احسن ثيابه ويتوب الى الله تعالى من كل ذنب كلما أراد أن يجالسه، فان المتلطخ بالذنوب لا يصلح له دخول حضرة الشيخ وانما يصح له دخولها اذا تطهر ظاهراً وباطناً من كل ذنب. قالوا واذا كان مكان الشيخ بعيداً وخرج لزيارته فليذهب اليه وحده ولا يدخل عليه. وكذلك لا ينبغي له اذا خرج لزيارة شيخه ان يشرك معه حاجة اخرى فان اشرك حاجة اخرى لقيه الشيخ بنصف البشاشة او ثلاث حوائج لقيه بثلث البشاشة. وهكذا فان الشيخ لا يلقى المريد إلا بقدر ما جاءه به.

وقد دخلت مرة على سيدي علي الخواص ومعي شخص فقال لا تعد تأتي معك بأحد، ثم قال لي في أذني: من غلبته شهوته فهو حمار، وقد كنت عزمت على ترك أكل شيء من الشهوات ثم غلبتني نفسي فأكلته. وخرجت مرة لزيارة أخي أفضل الدين وكان في حارة الشيخ، فلما زرته قلت أزور سيدي علي كذلك. فلما اقبلت عليه لقيني بنصف البشاشة التي كان يلقاني بها لما اخرج لزيارته وحده وقال لي حكم العدل مطلوب ففهمت المقصود، ومن ذلك اليوم ما أشركت معه احداً والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يتساهل ابداً في مد رجله تجاه شيخه لا حياً ولا ميتاً لا ليلاً ولا نهاراً مراعاة للادب مع شيخه غيبة وحضوراً، وما رسخ مريد في هذا الادب مع شيخه إلا وترقى منه الى مقام المراقبة لله تعالى اذ الشيخ هو سلّم للترقي ومحل ادمان يدمن فيه المريد، كأن الاشياخ يقولون للمريد: تعال أدمن فينا دون الحق تعالى حتى تذهب رعونات نفسك كلها،

فاذا ذهبت الرعونات فقد صلحت لمعاملة الحق جل وعلا. فاعلم ان كل من لم يحكم المقام في الادب مع شيخه لا يقدر على الادب مع الحق جل وعلا، ولا يشم له رائحة، فيستفيد المريد من حرمان شيخه كأنه يطلبه ويمنعه منها وهو راض بذلك رضاه عن الله كذلك اذا لم يقسم له ما يطلبه ويسعد بصبره على جفاه من غير سبب ظاهر صبره على تصاريف القصي. وهكذا فمن لم يرض بفعل شيخه لا يرضى بأفعال الله، ومن لم يصبر معه لا يصبر مع الله، وهكذا في سائر الامور، فكل ولي لله يحب ان الخلق يدمنون فيه ويفدي جانب الحق تعالى عن سوء الادب بنفسه فافهم.

وإياك ان تظن بالاشياخ انهم انما يأمرون المريد بالادب معهم حباً لتميزهم عنه في المقام رياسة، فان ذلك سوء ظن بالاشياخ، وانما أمروهم بالادب معهم ليترقوا الى الأدب مع الله تعالى، وقد بلغنا ان إبراهيم بن ادهم مد رجله مرة في الليل فنودي في سره ما هكذا ينبغي مجالسة الملوك فما مد ابراهيم رجله في الخلوة حتى مات انتهى.

ويقع لي ذلك كثيراً مع الاشياخ فربما اردت مد رجل فيمتد لي في كل وجه ولي تجاهها فأنام جالساً.

ووقع لي ذلك مع سيدي محمد بن عنان فسحب رجلي بيده وقال مدها ناحيتي فاستيقظت ونعومة يده في رجلي وكان ذلك بعد موته رضي الله عنه، فاعمل يا أخي على ذلك تجد ثمرته والله أعلم.

ومن شأنه أن يبادر لامتثال امر شيخه له بالذكر جهراً بالملأ ولا يتعلل بالحياء فان للاشياخ في ذلك اغراضاً صحيحة، وقد قالوا من لم يكسر قفص طبعه لم يكشف له حجاب، وقد انشد سيدي عمر بن الفارض رحمه الله في ذلك:

تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا　　　وخل سبيل الناسكين وان جلوا

ومراده بخلع الحياء كسر قفص الطبع وهو الاستحياء من ذكر الله تعالى او التواجد بحضرة الناس لا الحياء الشرعي، فان ذلك من ايمانه. ومراده بسبيل الناسكين مراعاة العباد في حركاتهم وسكناتهم واظهار الحشمة بحضرة الناس، مع اعتمادهم على اعمالهم دون الله تعالى، وهذا الامر قل ان يسلم منه عابد لا شيخ له ولو أنه اتخذ له شيخاً لكسر قفص طبعه.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: الواجب على المريد في بداية امره رفع صوته بالذكر في الملأ حتى يتحرق حجابه لان ذلك يجمع شتات قلبه. ثم اذا تمكن في الذكر وأنس بالحق تعالى دون الخلق فهناك لا يصح له مراعاة احد من المخلوقين دون الله تعالى، ثم

اذا اكثر من ترك الذكر برفع الصوت بحضرة الناس اصحاب الأنفس كالقاضي الجاهل بنفسه والمباشر حصل عنده خجل كأنه ارتكب معصية فمثل هؤلاء يجب عليهم الذكر برفع الصوت حتى يخرج عن الكبر والله أعلم.

ومن شأنه ان يتخذ له حجاباً بينه وبين اولاده وعياله كلما يذكر حتى لا يدخل احد عليه منهم الا بإذنه فيشوش عليه، وربما زعق الذاكر في وجه الداخل فيحصل له مرض او خرس كما وقع لسيدي تاج الدين الذاكر مع جارته؛ دخلت عليه وهو يذكر ففتح عينه وصاح فيها فتكسحت وصار يخدمها ويشيل القذر من تحتها حتى ماتت بعد سنين، وكان يعتذر اليها ويقول ما وقع لك لم يكن بخاطري والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يرفع صوته في محل يتأذى احد بـه، من قارىء ومدرس ونحو ذلك، كأن يجلس يذكر الله تعالى في مثل جامع الأزهر فان الجامع انما يجلس الناس فيه الآن لطلب العلم وتلاوة القرآن وذكر الله تعالى عقب الصلوات فقط، وربما أنكر عليه احد من المجاورين فمقت، وربما قال له شخص لا تؤذينا بذكرك فيقع في سوء الادب مع الله تعالى في منعه من ان يقول لا إله إلا الله، وربما رفع صوته بحضرة احد من المنكرين فاستهزأ قلبه بمخاصمته وانقطع عن الله عز وجل. وأثقل ما جاء على قلوب الغافلين ذكر رب العالمين فينبغي للذاكر ان يذكر الله تعالى في المساجد المهجورة فان في تلك عدة مصالح. ومن قال من المجادلين انا احب ذكر الله وانما أتأذى برفع صوته امتحناه وقلنا له اجلس بنا نذكر الله تعالى ساعة بصوت خفي واترك درسك النحو مثلاً، فان استحلى ذلك كلما دعوته اليه فهو صادق في محبة سماع ذكر الله وإلا فلا يخفى حاله، وأين هذا القول من قول سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه في كلمة لا إله الا الله:

تهذب أخلاق الندامى فيهتدي ... بها لسبيل العزم من لا له عزم
ويكرم من لا يعرف الجود كفه ... ويحلم عند الغيظ من لا له حلم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت ... لعادت اليه الروح وانتعش الجسم
ولو قربوا من حانها مُقعداً مشى ... وتنطق من نجوى مدامتها البكم
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ... ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم

الى آخر ما قال والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يجلس ابداً في مجلس شيخه الخاص بأبناء الدنيا فان المريد ليس له في ذلك منفعة، بخلاف الشيخ فانه مأمور بالاقبال على الناس كلهم قبول رحمة وشفقة، وتعليم وتأديب. فلا ينبغي للمريد ان يتأثر من شيخه اذا زجره عن الجلوس مع هؤلاء لأنه إنما زجره

خوفاً عليه ان يسرق طبعه من طباعهم فيتلف ويتعب شيخه في معالجته. وليحذر المريد من اعتراضه على الشيخ في مجالسته لابناء الدنيا فان ذلك انما هو تأليف لهم ليصرفهم عن محبة الدنيا بالمسارقة شيئاً فشيئاً اذ المشايخ انما شغلهم بالأعوج ليقيموه، واما المستقيم المنقاد فهم في راحة منه. فاعلم ان كل مريد جلس مع شيخه في مجلس ابناء الدنيا فقد اساء الادب والله اعلم.

ومن شأنه ان لا يزور احداً من أشياخ العصر الا باذن شيخه صريحاً او تعريضاً ولو كان ذلك المزور من اكبر اصدقاء شيخه. فانّ من شرط المريد ان لا يكون له الا شيخ واحد كما تقدم تقريره في أوائل الباب. وإذا كان المريد لا يرى ان شيخه يكفيه عن غيره فقد اتخذه شيخاً. قالوا ولا يجوز الاعتراض على الشيوخ إذا منعوا مريدهم من الاجتماع بغيرهم وحملهم على حب الرئاسة على أقرانهم بل الواجب حملهم على احسن المحامل، وبأنهم ما قصدوا بمنع المريد من زيارة غيرهم الا خوفاً عليه من تزلزل اعتقاده فيهم فلا يفلح على يد هذا ولا على يد هذا.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله: وكم فسد من الزيارة مريدون ثم فارقوا مشايخهم وصاروا عليهم وعلى جماعتهم، ويقولون لمن سألهم عن سبب فراقهم لو رأينا منهم خيراً ما فارقناهم وما كل ما يعلم يقال، وهناك يهلكون بالكلية لا سيما ان اجتمعوا بعد مفارقتهم لشيخهم على من ينكر عليه فانه يزيدهم منه نفرة وتنقيصاً، ولكن اذا اراد الحق تعالى رد ذلك المريد الى الخير وألهمه رشده جمعه على من يعتقد في شيخه فيحسن اعتقاده فيه حتى يندم على فراقه ويطلب الرجوع اليه، ثم اذا رجع وجب على الشيخ قبوله اذا شهد له قلبه بالصدق، والا فلا ينبغي له قبوله لئلا يتلف بقية الفقراء، وبالجملة فلا يكمل ادب مريد مع شيخه الا بعد اشرافه على مقام الشيخ ومعرفته بكماله وإلا فمن لازمه الاخلال بحقه وذلك لانه لا يشهد من الشيخ إلا مقامه هو فكل نقص رآه في الشيخ فانما هو حال ذلك المريد وهو لا يشعر اذ الشيخ مرآته كما تقدم تقريره مراراً في هذا الباب. فلو قدر ان المريد كمل أدبه مع الشيخ لأوصله الى حضرة ربه في لحظة والله تعالى أعلم.

ومن شأنه ان يعظم شيخه كل التعظيم ولا يطلب منه ان يأتي الى منزله او يأكل من طعامه، وفي كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه: وهان عليك من احتاج اليك. وقال بعض العلماء في معنى قوله تعالى «ادع الى سبيل ربك بالحكمة» قال هي الاستغناء عن المدعوين فان الداعي اذا كان محتاجاً الى مال المريدين هان في عيون المدعوين فلا يؤثر كلامه فيهم عادة والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يلبس لشيخه ثوباً ولا نعلاً ولا يجلس له على فراش ولا يسبّح على سبحته لا في غيبته ولا في حضوره، الا ان اذن له في ذلك. وقد لبس بعض المنشدين في مجالس الفقراء جوخة سيدي محمد الحنفي الشاذلي بغير اذنه وكانت موضوعة على الحبل فنظر اليه سيدي محمد نظرة فمشى بها ولم يلتفت اليه فحصل له تمزيق من ذلك اليوم وصار يفعل المحرمات، وكان عليه قبول عظيم في مصر فلم يصر قلبٌ ينظر اليه بمحبة ولا ود. هذا شيء عايناه وما رأينا احداً سلك الادب فعطبه احد أبداً. قال الأشياخ ولا ينبغي للمريد اذا وهبه شيخه ثوباً او نعلاً أو قلنسوة أو سواكاً ان يبغي به بدلاً فربما يكون الشيخ طوى للمريد فيه شيئا من اخلاق الرجال كما طوى ﷺ الرداء لابي هريرة رضي الله عنه ـ وكان كثيرَ النسيان ـ قال ابو هريرة فما نسيت شيئاً بعد ذلك مما سمعته أو رأيته. وبلغنا ان الجنيد وهب الشبلي سواكاً فأعطوه في ذلك مائة دينار فأبى. قلت ومما وقع لي اني وهبت الشيخ شرف الدين الواسطي بمكة جبة تجاه الحجر الاسود فاعطوه فيها ثلاثين ديناراً ذهباً فأبى، وكذلك خلعت على الشيخ تقي الدين ابن المقتول ثوب صوف اخضر تجاه‌وجهه ﷺ فأعطوه فيه خمسون ديناراً فأبى والله أعلم.

وسمعت شيخنا شيخ الاسلام زكريا يقول: اذا وهب الشيخ للمريد قميصاً او نعلاً فينبغي له ان يوفره فلا يعصي الله في ذلك الثوب ولا يمشي بذلك النعل الى موضع معصية، وليجتهد ان يكون على أخلاق شيخه من الحياء والكرم والزهد في الدنيا وترك المعاصي جملة تعظيماً لملبوس شيخه. قال: وهكذا درج المريدون الصادقون مع اشياخهم.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من ادب المريد اذا زار شيخه ووقع بصره عليه ان ينزع نعله ويمشي حافياً إلا ان يكون في الارض نجاسة او شيء من المؤذيات انتهى.

وقد فعلت أنا ذلك كثيراً مع سيدي ابي الفضل شيخ بيت بني الوفا ومع سيدي علي الخواص رضي الله عنهما والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يطعن في من ولاه شيخه نائباً عنه في أمر دين أو دنيا لتدريس علم ووعظ ونظر وقف او جباية مال او نقيباً، ونحو ذلك. فمن اعترض على شيخه في ذلك فكأنه ينادي بأعلى صوته على رؤوس الأشهاد ألا اشهدوا على انني نقضت عهد شيخي فلاناً ورجعت عن طريق القوم، وذلك لانه كان بايعه على السمع والطاعة في كل ما يأمره به وينهاه عنه، وان يحمل افعاله على احسن المحامل لكونه اعرف منه بأمور الدنيا والآخرة. فاعلم ان من اعترض على شيخه بشيء من أفعال شيخه ولو سراً او جادل في الوقف او النقيب الذي اقامه، فقد نقض

العهد الذي كان عاهد شيخه عليه، وخرج عن العهد والطاعة والواجب على الشيخ تأديبه وزجره أو اخراجه من الزاوية، وكأنه يرى شيخه ضعيف العقل وهو أتم نظراً من شيخه، فانه لو يعتقد ان شيخه أتم نظراً منه لما اعترض عليه بقلبه ابداً. ثم ان هذا الامر لا يقع عليه قط من صادق وانما ممن دخل على الشيخ بالتلبيس ولذلك نقض عليه في المستقبل بسوء الأدب.

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: ما لم يعتقد المريد في شيخه انه يقدر بعون الله على تدبير المملكة كلها والا فهو ناقص الاعتقاد وجاهل بالشيخ. ثم ان الشيخ لا التفات له الى الدنيا لاقباله على حضرة ربه عز وجل، فيوليه حينئذ الحق تبارك وتعالى، واذا كان الحق وليه قصم كل من خان وليه من نائب او جابٍ او مستحق داس عليه في أمر تحت نظره وولايته ويأخذ للشيخ والفقراء حقوقهم منه، إما بمرض لا شفاء له منه حتى يموت وإما بفقر أو كشف حال، وإما بالعقوبة يوم القيامة انتهى.

وبالجملة فلو كانت وجوه المريدين مقبلة على حضرة ربهم لاحترموا كل من قدمه شيخه عليهم، ولكن للأشياخ أسوة برسول الله ﷺ حين طعنوا في توليته لأسامة بن زيد لكونه من الموالي فقال رسول الله ﷺ ان أسامة لحقيق بالامارة وإن أباه من قبله كان حقيقاً بها، ثم إنه ﷺ خطب الناس وقال أيها الناس اسمعوا وأطيعوا يعني لأمرائكم وان تأمر عليكم عبد حبشي . . . الحديث، كل ذلك أدب مع الله تعالى الذي ولاه وقسم له الولاية. ثم لا يخفى عليك يا أخي ان هذا الاعتراض المذكور على الشيخ لا يقع من المريدين الصادقين في محبته أبداً، انما يقع من اهل الجفا والبعد. ولم يبلغنا عن أحد من خواص اصحاب رسول الله ﷺ انه اعترض على رسول الله ﷺ بظاهره ولا بباطنه مطلقاً، وقد قال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً). والأشياخ ورثته ﷺ في مقام الادب معهم وان تفاوت المقام. فاياكم ايها المريدون والاعتراض على الشيخ ولو بقلوبكم، فان ذلك يكدر قلب شيخكم ويوقف عنكم حصول الأمداد كما جربناه مع أشياخنا والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يغفل عن الدعاء بأن الله تعالى لا يوقعه على شيء من عيوب شيخه بتقدير جهودها، فان ظهور عيب الشيخ للمريد يكون سبباً لنفرته عن شيخه، ثم لا يقع ذلك إلا لمريد أشقاه الله ولم يرد له الكمال، وقليل من المريدين من يثبت في صحبة شيخه بعد أن رأى له منه شيئاً من النقائص.

وكان الشيخ محيي الدين النووي يقول: ما خرجت قط لأحد من مشايخي في الطريق الا

تصدقت عنه في الطريق وقلت اللهم استر عني عيب معلمي، ويقول: من سلك ذلك مع شيخه نال بركته والله أعلم.

ومن شأنه ان يستغنم صحبة شيخه اذا تعدى العمر الغالب وأشرف شيخه على معترك المنايا، فان ذلك وقت الثمرة فيعطي الشيخ ثمرة جميع مجاهداته طول عمره او آخره ويعطى جوامع الكلم في الطريق، فيا سعادة من لازمه أواخر عمره وزاد في خدمته، فانه يمنحه ثمرة جميع مجاهداته بلا تعب ولا نصب، فيساوي شيخه في مقام العلم ويصير لشيخه عليه حكم الافاضة لا غير والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يكلف شيخه قط المشي اليه ليسلم عليه من سفر أو يعوده من مرض أو يعزيه في موت أحد، بل يذهب هو الى شيخه فيسلم عليه او يعزيه، ومتى تغير قلبه عن شيخه إذا لم يأته فقد أساء الادب معه فيجب عليه تجديد العهد، وقد وقع مثل ذلك لشخص من أكابر مريدي سيدي على المرصفي فطلب من الشيخ ان يأتي الى بيته فيسلم عليه لما جاء من الحج فلم يتفق ذلك، فهجر شيخه فانقطعت عنه الامداد الى ان مات والله أعلم.

ومن شأنه ان يجهد في ان يكون مع شيخه بالادب باطناً كما هو معه ظاهراً فلا يتكلم قط في حق شيخه من قدامه بكلمة يستحي ان يواجهه بها. فان ذلك من اكبر خيانة يقع فيها المريد، وذلك كأن يتحدث مع احد من الناس ويقول يا ترى هل شيخي يجامع كل ليلة، أو ترى هل كان شيخي يقع في المعاصي قبل دخوله مثل ما يقع لنا، ام لا، وهل كان يرائي وينافق ويحب الدنيا ام لا، فان ذلك كله فضول ولا ثمرة له إلا فتح باب الاستهانة بمقام الشيخ لا غيره، فيجب على المريد ان ينظر الى شيخه بالتعظيم فلا يصور في ذهنه حالة نقص عند الشيخ أبداً، لا في الماضي ولا في المستقبل، لان الفقير ابن وقته.

وسمعت اخي افضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كيف يصح التعبير عن شيء من صفات القلوب وهي بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء، فربما شرع الانسان يتكلم في تجريح احد فينقلب من النقص الى الكمال قبل ان ينقضي كلامه، فيقع التجريح على حالة ماضية لا يصح وصفه بها الآن، انتهى والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يجلس بين يدي شيخه إلا وهو مستوفز كما يجلس العبد بين يدي السلطان، وليحذرْ كل الحذر من الاكثار من مجالسة الشيخ فان كثرة مجالسته تذهب هيبته عند غالب المريدين كما يذهب حرمة الكعبة لأهل مكة ولمن جاورها، فأين بكاؤه عند رؤيتها من جمود عينيه أيام المجاورة، والقاعدة ان كل شيء كثرت مشاهدته هان في العيون، والشيخ هو كعبة المريد التي يتوجه اليها في سائر مهماته فافهم.

ومن هذا الذي قررناه حرم غالب نقباء الأشياخ واولادهم ونساؤهم بركتهم لكثرة مشاهدتهم له وادلالهم عليه والله أعلم.

ومن شأنه انه اذا كان جالساً عند شيخ في وقت درس او غيره وقام فمن الادب ان لا يوليه ظهره حتى يبعد أو يتوارى عنه بجدار ونحوه، وكل من لم يتأدب مع شيخه لا يشم من الادب رائحة، لان الشيخ هو الذي يدخل المريدُ من بابه الى حضرة ربه عز وجل، وليس له باب غيره، ومن لم يكن له واسطة في ابواب الملوك لا يمكنه الدخول والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يلزم شيخه بالباطن الجواب عن مسألة سألها اياه، او حكاية حكاها له، او واقعة وقعت له بل يذكر حاجته ويسكت، فان اجابه شيخه فذاك، وإلا فليعرض بقلبه عن طلب الجواب لئلا يصير شيخه محكوماً عليه بالزامه الجواب، وهذه طريقة احرى بخلاف ما عليه طلبة العلم، والفرقُ ان طالب العلم مقصوده الاطلاع على النقل ليصير يفتي به الناس ويدرس به ولو لم يذقه، بخلاف الفقير فإنه لا يقنع بدون الذوق لذلك الامر في نفسه، لان كل ما لا ذوق للعبد فيه يفارقه عند طلوع روحه بخلاف ما ذاقه فانه يموت عليه ويبعث عليه.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: ما تجرأت قط على سؤال احد من مشايخي في واقعة من الوقائع، ولا هجرت قط على مكالمتي لأحد منهم، انما كنت انتظر بداءته لي بالكلام بعد ان يظهر لي انه فارغ لمكالمتي مستعد لكلامي، فحينئذ فالكلمة مع التبجيل والتعظيم كما أكلم اعظم ملوك الدنيا.

وقد روى الترمذي وغيره مرفوعاً: ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه. فاعلم ان احترام الشيوخ توفيق وهداية والاخلال بذلك عقوق وخذلان والله أعلم.

ومن شأنه دوام ربط قلبه مع الشيخ والانقياد له ورؤية اعتقاده ان الله تعالى جعل جميع امداده لا يخرج إلا من باب شيخه، وان شيخه هو المظهر الذي عينه الله تعالى للافاضة عليه منه، ولا يحصل له مدد وفيض الا بواسطته، ولو كانت الدنيا كلها مملوءة من المشايخ، وذلك ليقطع الالتفات الى غيره لانه ليس لذلك الغير عنده وديعة فافهم.

وكان الشيخ زين الدين الخوافي رحمه الله يقول: يجب على المريد ان يرى استمداده من شيخه الخاص هو بعينه استمداده من النبي ﷺ، وان استمداد رسول الله ﷺ من الحق تعالى ليتصل المريد بطريق اهل الله حقيقة، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا. قال: واعلموا ان ربط المريد قلبه بالشيخ اصل كبير في سرعة الفتح، بل اصل

الاصول، وان حكم الشيخ حكم الحدّاد، وحكم غيره حكم الآلات ، فكما ان المطرقة والسندان والمنفخ والفحم والنار وغيرها من الآلات إذا جُمعن من غير حداد لا يصح عمل، كذلك آلات الطريق من الذكر والخلوة والمجاهدة اذا اجتمعت لا يفلح بها المريد ولا تنجلي مرآة قلبه، فربط القلب بالشيخ هو الأصل في ذلك كله كما جربناه، وما أتى على المريدين انقطاعهم عن الفيض والترقي الا من عدم ربط قلوبهم بالشيخ على وجه التسليم والاذعان والهمة الصادقة، ومن اعظم شيء يقطع القلب عن الربط الاعتراض على الشيخ بالقلب.

قال الشيخ زين الدين الخوافي رحمه الله: وقد جرب جميع المريدين فوجدوا الاعتراض يقطع الفيض والامداد، فكما يجب على المريد ان لا يعترض على نبيه ﷺ كذلك يجب عليه ان لا يعترض على شيخه بل يوافقه في كل شيء يأمره به وينهاه عنه من الخير، سواء اكرهته نفس المريد ام احبته، قال تعالى: «وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وانتم لا تعلمون» وما يأمركم شيخكم ايها المريدون إلا بما يأمركم به ربكم والله أعلم.

ومن شأنه ان يعتقد أن كل ذرة من اعمال شيخه افضل من جميع عبادته هو ألف سنة، ومن هنا قال ابو سعيد الخراز: رياء العارفين افضل من اخلاص المريدين، ومعناه ان اخلاص المريد معلول برؤية انه يخلص بخلاف العارف فانه منزه عن الرياء جملة وما رآه المريد من صورة رياء في حق شيخه انما هو صفته هو، وكيف يصحّ من عارف رياء وهو يشهد كشفاً ويقيناً ان الله تعالى خالق له ولجميع افعاله ليس له من اعماله الا نسبة التكليف فقط.

وقد قال احمد بن ابي الحواري مرة لشيخه ابي سليمان الداراني: اني لأجد لذة في معاملتي مع الله تعالى اذا كنت وحدي، ولا أجد تلك اللذة اذا كنت بين الناس، فقال له: انك اذاً لضعيف، ولو قويت لاستوى عندك نظر الخلق وعدم نظرهم. قلتُ: وايضاح ذلك قولهم ان رياء العارف افضل من اخلاص المريد، لأن العارف لا يرى من الخلق إلا وجه الحق فلو قدر أنه راءاهم فانما ذلك عملاً بحديث «أروا الله من أنفسكم خيراً» وعملاً بآية: (فسيرى الله عملكم ورسوله) فهو رياء محمود لا مذموم، فما وقع رياء من عارف للخلق ابداً ما دام كاملاً. ويؤيد ما قلناه قول سهل بن عبدالله لي: منذ ثلاثين سنة أكلم الله والناس يظنون اني اكلمهم انتهى.

ومن شأنه ان لا يدبر عن محبة شيخه وخدمته إلا لضرورة يعذره شيخه بها، فقد قالوا: من ادبر عن شيخه لحظة واحدة بعد ان خدمه سبعين سنة مثلاً كان ما فاته من تلك اللحظة اكثر مما ناله في السبعين سنة، فيا خسارة من أدبر عن شيخه فان حكمه حُكم من ادبر عن خدمة ربه، واكثر المريدين جاهلون بمثل ذلك، ولذلك عدموا النفع فاعلم ذلك.

ومن شأنه ان لا يصر قط على وقوعه في سوء ادب لا ظاهراً ولا باطناً، لان المريد الصادق اذا ربط قلبه بالشيخ وتأدب بآدابه الظاهرة سرى المدد الباطن من قلب الشيخ الى قلب المريد كسراج يقتبس من سراج، واذا جاء المدد من الشيخ ووجد قلب المريد متلطخاً بسوء ادب رجع المدد. وكما ان كلام الشيخ ينصح باطن المريد الصادق فكذلك امدادات الشيخ الباطنة، فمن نظف باطنه من جميع المخالفات وسلك الادب مع الشيخ انتقلت جميع الامداد والاحوال والعلوم التي في قلب الشيخ الى قلب ذلك المريد، فيا سعادة من حصر أنفاسه مع الشيخ وانسلخ من ارادات نفسه وأفنى مراده في مراد شيخه، ومُزجت روحه بروحه على حكم الملاصقة ليرتقي من حكم عدم الاختيار مع الشيخ الى عدم الاختيار مع الله تعالى، ويصير يفهم من الله تعالى كما كان يفهم من الشيخ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن شأنه ان يزيد في تعظيم شيخه كلما باسطه وحادثه، وليحذر من ترك ملاحظة الأدب جملة، فان المريد الصادق لا يزداد بمباسطة شيخه به إلا احتراماً وإكراماً وتبجيلاً واحتشاماً، وأنشدوا في ذلك:

كلما ازداد بسطة وخضوعاً زدت فيه مهابة وجلالا

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: من شرط المريد ان يزيد في اجلال شيخه على الدوام حتى يفارقه، وهو يشهد فيه انه اكمل الموجودين، وليحذر من ان يرد على شيخه كلامه ولو كان النقل الراجح بيد المريد، فان الشيخ انما يقول للمريد ما يرى فيه ترقيه فليقف المريد عند قول شيخه ولا ينازعه ولا يجادله ولا يماريه، ومتى خطر له نزاعه ولو في خاطره، فليبادر الى التوبة من ذلك على الفور، فان النزاع بالباطن هو عين الاعتراض في الظاهر، وهو حرام على المريدين. وكل مريد اعترض بباطنه فهو مسخرة للشيطان، وعورته مكشوفة عند اهل الطريق والله أعلم.

ومن شأنه ان يعتقد ان طريقته أشرف الطرق كلها لكونها محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر، وان لم يعتقد ذلك، فمن لازمه كشوف نفسه الى ما هو أشرف عندها، وذلك يفرق قلب المريد عن السير فلا يفلح فيما هو فيه.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول: من لم يعتقد في طريقه انها طريق الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين لم يحصل منها على حاصل. ويجب عليه ان يعتقد أن أشياخ الطريق أعلم بالله وبأحكامه وبالعلوم الربانية والأسرار الالهية من غيرهم.

وسمعت سيدي على المرصفي رحمه الله يقول: يجب على المريد ان يعتقد في شيخه انه على شرع بين ربه وبينه من أمره، ولا يزن أحواله بميزان عقله هو، فقد يأتي من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن، كما وقع للخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام، فيجب على المريد التسليم على ان ذلك لا يصدر قط من شيخ كامل إنما يصدر من ناقص فإن الكامل يجري مع الخلق بحكم العادة ولا يظهر عليه شيء مما يذمه ظاهر الشرع او تستغربه العادة، فاعلم ان مراد القوم بالشيخ الذي يجب الانقياد له من كان متضلعاً من الكتاب والسنة، ومثل هذا لا يجب عليه التقيد بما هو دونه في العلم فافهم والله أعلم.

ومن شأنه اذا وجهه شيخه في حاجة ورأى الصلاة تقام في مسجد في الطريق فلا يعرج على الجماعة بل يمضي في حاجة شيخه ثم يصلي بعد ذلك في الوقت، لا سيما إن كانت تلك الحاجة ضرورية كإغاثة ملهوف انتهى.

قلت: هكذا قالوه، ويستروح له بأنه ﷺ أرسل جماعة من اصحابه في حاجة وقال لا يُصَلِّيَنَّ احد منكم العصر إلا في بني قريظة ففعل بعضهم ذلك بعد ان خرج وقت العصر وبعضهم صلى العصر حين خاف خروج وقته وقال لم يرد منا تأخير الصلاة حقيقة وإنما اراد منا الاستعجال، فلما اخبروا بذلك رسول الله ﷺ لم يعنف احداً من الفريقين. ففعل احد هذين الفريقين يشهد للقوم، ولكن الذي ينبغي لكل مريد في هذا الزمان أن يقدم صلاة الجماعة على الحاجة التي أرسله شيخه فيها لقصور غالب مشايخ هذا الزمان من بلوغ مقام الارث لرسول الله ﷺ في معرفة ما هو الأفضل من العبادات بالنسبة الى كل مريد فافهم والله أعلم.

ومن شأنه انه يوفي بكل شيء شرطه عليه الشيخ سواء أكان صعباً على المريد عادة أم سهلاً، فان طريق القوم كلها مجاهدة ومكابدة وليس فيها راحة البتة، وأجمعوا على انه ليس للمريد ان يشترط على الشيخ شرطاً حتى انه يطيعه وينقاد له، كما انه ليس للميت شرط على غاسله، وكل مريد صدق مع شيخه فلا فرق بينه وبين الميت. وأجمعوا على انه ليس للمريد أن يكلف أحداً من إخوانه وغيرهم خدمة نفسه التي يقدر هو عليها عادة وذلك ليرفع كلفته عن الخلق وينزه نفسه عن تحمل مننهم عليه ما أمكن، وليحذر من التشبيه بالشيخ في مثل ذلك جهده فإن الشيخ ربما ضعفت جوارحه عن خدمة نفسه من شدة ما جاهد نفسه طول عمره، وربما كان الناس يتقربون إلى الله تعالى بخدمتهم له ويرون له الفضل عليهم الذي أهلهم ولا هكذا المريد.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: من الأشياخ من يدفع الناس عن خدمتهم له بالقلب فلا يسأله أحد أن يقضيه حاجة وذلك لان الكامل من يخرج بثمرة اعماله من

الدنيا كاملة متوفرة لا ينقص من رأس ماله شيء، قال: وكان شيخنا رحمه الله يخبز خبزه على رأسه ويقضي جميع حوائجه بنفسه ولا يسأل احداً من إخوانه شيئاً من ذلك رضي الله عنه والله أعلم.

ومن شأنه ان يعتقد أن شيخه عارف بالله ناصح لخلق الله، وأجمعوا على أن من شرط المريد الأمانة لانه بصدد حمل الاسرار، ولا توهب الأسرار إلا للأمناء، فلا يجوز له افشاء سر من الاسرار إلا ان يأمره الشيخ أو الشرع إذاعته، وربما غلب عليه الحال فأفشى سر الربوبية فوقع له كما وقع للحلاج في هذا الزمان الذي استتر فيه الاولياء الصادقون والعلماء العاملون وصار الفقير إذا وقع في ورد له لا يهتدي فالكتمان واجب على المريد حتماً والسلام.

ومن شأنه ان لايدخل على شيخه ولا يجلس بين يديه ابداً إلا على طهارة ظاهرة وباطنة مسلماً مستسلماً، وهكذا درج جميع المريدين مع اشياخهم.

وقد كان الشيخ ابو مدين المغربي رضي الله عنه يقول: ما دخلت في ابتداء أمري على شيخي حتى أغتسل وأطهر ثوبي وعصاي وجميع ما علي وأطهر قلبي من جميع علومي ومعارفي الظنية، ثم أدخل بعد ذلك فان قبلني وأقبل علي، فذلك عنوان على سعادتي، وان أعرض عني وتركني رأيت العيب مني والشوم علي.

وأجمع القوم على انه لايجوز للمريد أن يعتقد في عاص الاصرار على معصيته ابداً، فان هذه المصيبة يقع فيها اكثر المريدين فتوقفهم عن السير. وليتأمل المريد في قول علماء الشريعة ان الظالم اذا اخذ من أحد دراهم ثم توارى عنا بحائط مثلاً انه يجوز لنا الأكل مما رأيناه في يده ولا يجوز لنا ظن استصحاب تلك الدراهم فيفتى بحرمة الانتفاع بها إلا على وجه التورع فقط احساناً للظن بذلك الظالم المسلم.

وأيضاً فقد قالوا ان لله تعالى عباداً لا تضرهم المعصية أي لعدم اصرارهم عليها، فلعل ذلك العاصي او الظالم يكون منهم. وكل من لم يظن بنفسه السوء وان جميع الناس خير منه فلا يفلح في الطريق ولو أعطي من المعارف والكرامات ما أعطي.

وكذلك أجمعوا على ان كل مريد دخل على شيخ ليختبره فهو ممقوت جاهل، فان الشيوخ لا يختبرون البتة، ولا يطلب منهم كرامة ولا كلام على هواجس النفوس، ومن طلب ذلك منهم فقد جهل وأساء الأدب معهم، وربما استحكم فيه المقت فلا يفلح على يد شيخ بعد ذلك والله أعلم.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: لا يطلَب من الأشياخ الكلام على

الأسرار وانما يطلب منهم معرفة الامراض والادواء لا غير. وقالوا ان المكاشفات انما هي من احوال المريدين دون العارفين والله أعلم.

ومن شأنه اذا جلس مع الشيخ ان يلزم السكوت ولا يتلفظ بحضرته قط، الا ان وجد أمارة على اذن الشيخ له في ذلك، وما لم ير أمارة فالواجب عليه ادباً السكوت. وليحذر من رفعه الصوت بحضرته ولو في علم، فضلاً عن الكلام العاري. وكذلك لا ينبغي له ان ينبسط ويكثر الضحك، بل يجلس على حكم الادب والوقار، وقد قالوا لا يكون كثرة الضحك الا من سكر القلب، واذا سكر القلب عقل اللسان. وقد بالغ بعض المريدين في الوقار للشيخ حتى صار لايستطيع ينظر الى وجه الشيخ ابداً.

قال السهروردي رحمه الله: وضعفت مرة فدخل علي شيخي ابو النجيب فرشح جسدي عرقاً من هيبته فشفيت من وقتي وكنت في غاية الحمى وأتمنى العرق لتخفف عني الحمى، فكنت لا اجد ذلك، قال: ولقد كنت يوماً في البيت خالياً وعندي منديل وهبه لي الشيخ فوقع على الارض فصدم رجلي اتفاقاً، فتألم لذلك باطني، وهالني لمس قدمي لشيء من أثر شيخي، فوجدت بعد ذلك بركة عظيمة من الله عز وجل لاحترامي لأوليائه.

وكان ابو القاسم القشيري رحمه الله يقول: ما دخلت على الاستاذ أبي علي الدقاق في بدايتي الا صائماً بعد أن أغتسل، وكثراً ما كنت احضر باب مدرسته فارجع من الباب احتشاماً منه ان مثلي يدخل عليه. وكنت اذا تجاسرت ودخلت وبلغت وسط المدرسة تصحبني الهيبة فأصير أرعد من هيبته، وكثيراً ما كان يحصل لي شبه تخدير في جسدي حتى انه لو غرز احد بي إبرة لما احسست بها. قال: ولا أعلم انني اعترضت بقلبي على شيء من احواله حتى مات.

وكان اشياخ الطريق يقولون: كل من لم ينتفع برؤية شيخه ولم ينتفع بصحبته بالقبول، خرج نور الاقتداء من قبله. ومن لم ير شيخه نائباً عن رسول الله ﷺ في ارشاده لم يصل الى طريق الحق، لانه من لم يتأدب مع شيخه لم يتيسر عليه الادب مع الحق. واعلموا ان كل من أهّله الحق تعالى لحضرته فلا بد أن يخرج له عارفاً يقتدي به لموضع صدقه، وانما فقد المريدون الاشياخ لعدم صدقهم.

وكان سيدي ابراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: من كتم شيئاً من احواله عن شيخه كان خائناً والله لا يحب الخائنين، ومن خطر بباله اتهام شيخه في شيء من احواله فقد تفرقت همّته والله أعلم.

ومن شأنه اذا وقع بينه وبين أخيه شحناء ان لا يتحكم على شيخه ويطلب منه أن يكون

معه على اخيه، بل الواجب عليه انتظار ما يحكم به الشيخ عليه، فان للشيخ ان يعاتب ايهما شاء فيقول للمعتدي لما اعتديت على اخيك، ويقول للآخر ماذا اذنبت حتى اعتدى أخوك عليك وسلط عليك. ويحكى حديث الطبراني مرفوعاً: ما توادّ اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه احدهما. وفي كلام سفيان الثوري رضي الله عنه: ما عصى الله عبد وهو يعرفه إلا سلط عليه مَن لا يعرفه حتى تشتد عليه العقوبة.

وكان سيدي محمد الغمري رحمه الله يقول لمن خاصمه احد من اخوانه بغير حق: هلّا قابلت اخاك بالعفو والصفح رفقاً به واعطاءً للفتوة والصحبة حقها! ثم يقول للآخر: انك قد تعديت الشريعة باعتدائك على أخيك. وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: خيار الناس من اذا احسنوا استبشروا، واذا اساءوا غفروا؛ والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يخاطب شيخه الا على وجه الاستفهام، ولا يبدأه بالكلام، ولا يجيب الا على حد الاحترام، ولا يجهر له بالقول كجهره لاخوانه من المريدين.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: اياكم ان ترفعوا اصواتكم اذا كلمتم شيخكم في حاجة، ولا تنادوه باسمه المجرد عن الكنية واللقب كما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن فخموه وعظموه بحكم الارث لرسول الله ﷺ، فان الله تعالى نهانا ان ننادي باسمه فنقول يا احمد يا محمد كما ينادي بعضنا بعضاً، بل نقول يا نبي الله يا رسول الله، وكذلك الشيخ تقول له يا سيدي يا ولي الله يا واسطتنا عند الله ونحو ذلك.

وسمعته رحمه الله يقول: ينبغي للمريد ان يتذكر حالة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام كلما أشكل عليه شيء من أحوال شيخه، فان موسى عليه الصلاة والسلام كان كلما أنكر على الخضر شيئاً وأطلعه على حكمته يرجع عن انكاره لوقته مع ان انكار موسى عليه الصلاة والسلام لم يكن الا على وجه الاستفهام لعصمته، إذ الانبياء اكمل الناس ادباً واكثرهم حياء وتسليماً فافهم.

وكان الجنيد اذا تكلم بشيء وعارضه احد من المريدين يقول: وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون. وكان يقول: من كتم عن شيخه شيئاً من احواله ولم يذكره له ولو ايماء وتعريضاً فقد خانه وصار منه على باطنه عقدة في الطريق، ولو انه كان ذكر لشيخه ما في ضميره لحل له بكلامه عقدته والله وأعلم.

ومن شأنه اذا ظهر شيخ في بلد شيخه وانقلب اليه المريدون والاكابر دون شيخه ان لا يلتفت اليه، ومتى التفت اليه فهو دليل على فساد ابتداء الصحبة معه، وقد قالوا: كل مريد لا

يعتقد في شيخه انه أعلم بتربيته من غيره لا تنعقد صحبته معه ولا يصح سريان شيء من اسرار قلب الشيخ إليه، فإن المريد كلما أيقن بتفرد الشيخ بالمشيخة في البلد كلما قويت محبته وتمكنت صحبته، وحكم العكس بالعكس. وأجمعوا على ان كل مريد اشتغل بوقائعه وكشفه دون مراجعة شيخه فقليل انقطعت الوصلة بينه وبينه، فان المريد وان فتح عليه بالعلوم والاحوال فباب علم الشيخ واحواله اوسع واكثر.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: يجب على المريد ان يحكي جميع وقائعه لشيخه فما رآه الشيخ من الله تعالى أمضاه ووافقه عليه، وما كان من غير الله امره بالاضراب عنه، فان الواقعة اذا كان فيها شبهة فيرجو زوالها ببركة ذكرها للشيخ، ويستفيد المريد علماً بصحة الوقائع والكسوف كما تبرأ ساحته من جهة الأدب مع الشيخ، وتبرأ ساحة الشيخ بتعليمه الامور واخراجه من مواطن التلبيس، وربما تحمل عنه الشيخ ذلك الامر الذي حل به لقلة غشه وكثرة شفقته وصحة ايوائه الى جناب الحق تعالى.

وسمعته رضي الله عنه أيضاً يقول: يجب على المريد ان يذكر جميع وقائعه لشيخه لانه اعلم بمقامه ومصالحه ومفاسده من نفسه، ولانه جرب الامور ومارس الاحوال وركب الاهوال وبلغ مبلغ الرجال. وحكم المريد حكم من دخل في ظلمة ببرية قفر لم يسلكها قط، فلا يعرف مواقع الخطر فيها، ولا يميز بين النفع والضر، وحكم من اتخذ له طبيباً عارفاً بالداء والدواء فصار يصف له دواءه وهو يتناول الامور المضرة له موافقة لهواه والله أعلم.

ومن شأنه اذا سافر شيخه من مكانه وتركه فيه ان يلازم شهود مكان شيخه الذي كان يقعد فيه ويسلم على شيخه كلما مر على مكانه في وقت من الأوقات كأنه ما غاب عنه، ويراعي حرمته في غيبته كمراعاته لها في حضوره، وأجمعوا على انه لا ينبغي للمريد ان يقول له دعني أنام عندك، أو آكل معك، أو أفارقك لعمل حرفة او نحوها، بل ينظر في ذلك كل ما يراه الشيخ له في ذلك، وربما اجابه الشيخ الى ذلك فحصل للمريد غاية الإبعاد ونفرت نفس شيخه منه بعد ذلك. وكذلك كلُّ ما فيه داعية إلى الإدلال على الشيخ وترك للحرمة معه ثم لا يفلح المريد بعد ذلك أبداً ما دام هذا حاله.

ومن شأنه اذا شاوره شيخه في فعل امر من الامور ان يرد الامر في ذلك الى الشيخ، كما كان الصحابة يقولون كان ﷺ أعلم من جميع اصحابه بأمور الدنيا والآخرة وانما كان يشاورهم تأليفاً لقلوبهم وبياناً لمقامهم في الادب معه او في المعرفة لذلك الامر الذي استشارهم فيه، وكذلك الحكم في الشيخ بحكم الارث لرسول الله ﷺ ان مشورة الشيخ للمريد ليس هو لافتقار الشيخ الى رأي المريد.

وكان سيدي ابراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: ليس من ادب المريد ان يسأل شيخه عن حكمة ملازمته لمكان جلوسه فيه، ولا ان يسأله اذا انتقل عنه لم انتقلت، وليحذر ان يظن شيخه ان جلوسه في ذلك المكان أو انتقاله عنه بحكم العادة بغير نية صحيحة إذ الشيخ محفوظ عن ان يفعل شيئاً من غير غرض شرعي. وكذلك ينبغي له ان يحذر من تأويل كلام شيخه عن ظاهره اذا أمره بل يبادر الى فعل ذلك الأمر من غير تأويل، كما وقع لبعض الصحابة حين قال لهم رسول الله ﷺ: «لا يصلين احدكم العصر الا في بني قريظة» وقد تقدم ذلك قريباً.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمه الله يقول: من ادب المريد ان يقف عند كلام شيخه ولا يتأوله، وليفعلْ ما أمره به شيخه وان ظهر ان شيخه اخطأ، فقد قالوا ان على المريد اعتبار ما يخيَّل انه خطأ من كلام شيخه احسنَ من صوابه هو، لخفاء مدرك كلام شيخه عليه وخروجه عن تلبسات النفوس، وان قال اني تخيلت انك اردت كذا وكذا فهو في ادبار عن طريق الارادة، وما أتى على أكثر المريدين الخذلان إلا من التأويل فانه حظ النفس، ومن وافق حظ نفسه لا يفلح، والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يصلي في موضع يستدبر فيه شيخه ما امكن ان كان حاضراً الا ان عارضه في ذلك امر شرعي كأن يصلي في الصف الاول وشيخه في الصف الثاني فان ذلك لا يضر والله أعلم.

ومن شأنه اذا ذكر الله او فعل عبادةً من العبادات ان يستحضر نظر شيخه اليه ليتأدب ويضم شتات قلبه، وهذا واجب عليه ما دام تحت اذن شيخه، فان أذن له شيخه في التربية والاستقلال بنفسه كان بعد ذلك حاله حال شيخه مع ربه، كما سيأتي بسطه ان شاء الله تعالى اواخر الرسالة.

ومن شأنه ان لا يدعي انه من أهل القوم حتى يرى الخلق كلهم احسن حالا منه، لا سيما جماعة شيخ آخر، فان كل من خرج من تحت تربية شيخ ورأى نفسه أعلى من احد المسلمين فهو ممقوت، لأن هذا هو الذنب الذي طرد لاجله. وهذا يخفى على كثير من المريدين والحمد لله رب العالمين. خاتمة: ان قال لنا مريد فما صفات الشيخ الذي يجب علينا الادب معه والانقياد لقوله والتقليد له في كل ما يأمرنا به؟ فالجواب: صفته ان يكون متبحراً في علوم الشريعة بحيث لو اجتمع عليه مشايخ الاسلام من علماء المذاهب الاربعة وناظروه في جميع الفقه لأجابهم بنقول المذهب وقطعهم بالحجج الباهرة والاستدلال على كل ما لم تصرح الشريعة بحكمه، ويقوم في تقرير مذاهب الائمة الاربعة مقام اهلها. ثم بعد ذلك يكون متقيداً بالكتاب والسنة في اقواله وافعاله وعقائده عارفاً بميزان الخواطر كلها من خاطر النفس او

الشيطان او الملك او الخاطر الرباني، ويعرف الفرقان بين هذه الخواطر. ومن شرطه أيضاً ان يكون عارفاً بالعلل والامراض المتعلقة بالابدان والارواح ليغني مريده عن سؤال غيره، عارفاً بكل ما يرقي المريد او يقطعه عن الترقي من سائر الاعمال والاحوال الى ان يبلغه الى مقامات الرجال ووقوفه على عين الحقيقة. ومن شرطه ايضاً ان يكون له قدرة على جذب المريد واستخلاصه من ايدي العوائق، لكن يشترط مع ذلك صدق المريد وعمله باشارة شيخه «انك لا تهدي من أحببت». فان قيل متى يصح تلقيب الشيخ بالاستاذ؟ فالجواب: اذا جمع هذه الثلاث خصال وهي ان يكون عنده دين الانبياء وتدبير الاطباء وسياسة الملوك، فكل من جمع هذه الثلاث فهو الملقب حقيقة بالاستاذ لانها اركان جميع المقامات.

وسمعت سيدي علياً الخواص وسيدي علياً المرصفي وأخي افضل الدين رضي الله عنهم يقولون مراراً، يصدق بعضهم قول بعض: اربع مراتب قد زاحم الناس الاشياخ عليها في هذا الزمان بغير حق وهي تلقين الذكر ولباس الخرقة وارخاء العذبة وادخال المريد الخلوة، فان لكل منها شروطاً لا بد منها لانه متى فقد الشرط فقد المشروط، ومن قال ان هذا الشروط التي تذكرها ليست بشروط عند اهل الطريق لكونه هو عاجز عن تحصيلها فيه فقد جهل واساء الادب مع اشياخ الطريق الماضين كلهم ونسبهم الى الجهل، كما وقع فيه بعض المتمشيخين في هذا الزمان بغير حق. فاما شرط من يلقن الذكر التلقين الحقيقي وهو التلقين النامي عند الاشراف على مقام الكمال فهو ان يقدره الله تعالى على ان يخلع على المريد جميع ما قسم له من علم لا إله إلا الله فلا يصير يجهل شيئاً من احكام الشريعة التي صرح بها الشارع ﷺ من واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات ومباحات، فيغنيه بعد ذلك التلقين عن مطالعة كتب الفقه، بل يصير يدرس الناس في جميع مذاهب الأئمة المجتهدين. ومن لم يقدره الله تعالى على ذلك فهو متشبه بأهل الطريق لا متحقق لصفاتهم فله أجر التشبه بهم لا غير. وأما شرط من يلبس المريد الخرقة الالباس الحقيقي عند الاشراف على مقام الكمال ايضاً فشرطه ان يقدره الله تعالى على سلب جميع الصفات الردية التي في المريد حال امره له بنزع الخرقة الي عليه عرقية أو رداء أو إزاراً او قميصاً، فلا يتخلق عند المريد بعد نزعها خلق سيىء، ولا شيء من رعونات النفوس، بل يصير باطنه كباطن الطفل ممسوحاً من كل رذيلة. ثم ان الشيخ يُلبسه كذلك ما كان عليه نظير ما نزعه منه ويفرغ عليه جميع ما قسم له من الأخلاق المحمدية التي كان يصل اليها بالعلاج والمجاهدة والرياضة فينصبغ بها انصباغاً فلا يكاد يظهر منه بعد ذلك رعونة نفس ولا خلق رديء. فمن لم يقدره الله تعالى على مثل ذلك فهو متشبه كذلك بالقوم وليس هو من محققيهم فله اجر التشبه بهم لا غير. وأما شرط من يرخي للمريد العذبة الارخاء الحقيقي فان يقدره الله تعالى على ان يخلع على المريد سر النمو والزيادة في كل شيء نظر اليه المريد او

مسه بيده حتى لو مد العمل والحجر أو الخشب امتد معه فيكون ارخاء العذبة لهذا من باب اظهار التحدث بالنعمة فيثاب على ذلك. وقد بلغنا ان رسول الله ﷺ لما أرخى العذبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قصر معه جذع سقف بيت فاطمة ولم يصل الى الجدار الآخر فمده فامتد معه، وكان يتوضأ الوضوء كاملاً من كف واحد من الماء. فمن لم يقدره الله تعالى على خلع هذا السر على المريد فارخاء العذبة له انما هو على وجه التشبه بالقوم فله أجر نيته ان صلحت، فان المريد ربما تمشيخ بارخاء العذبة ورأى نفسه بها على غيره، وذلك حرام كما افتى به ابن حجر وغيره. وشرط من يدخل المريد الخلوة فهو ان يطلعه الله تعالى من طريق كشفه الصحيح الذي لا يدخله نحو ان ذلك المريد يقدر على فعل جميع شروط الخلوة ولا يخل بشيء منها وذلك ليحصل له ثمرة الخلوة، وكذلك يطلعه الله تعالى على حصول جميع ثمرات الخلوة للمريد ليدخله على بينة من الله تعالى ومعرفة، فان من لم يقم بآداب الخلوة ولم يحصل له ثمراتها فليس بمريد صادق، كما ان كل شيخ لم يطلعه الله تعالى على ثمرات الخلوة فليس هو بشيخ صادق وهو مقتول في نفسه بنفسه، وهو من المستهزئين بأهل الطريق، فحُكمه حكم حلم من الخيال اذا خرج في بابة قاضٍ او أمير فيصير الصغار يضحكون عليه. وذلك عين مقت الله تعالى للعبد، نسأل الله العافية. اذا علمتَ ذلك فأقول وبالله التوفيق: من شرط المريد اذا كان يذكر الله تعالى في خلوة وظهر له شيء من الصور ان يذكر ذلك لشيخه لا سيما إذا قال له انا الله لا اله الا انا او سبحاني ونحو ذلك، وليحذر ان يكتمه عن شيخه ويميل اليه فانه يهلك في ذمته، وليقل آمنت بالله سبحانه من ليس كمثله، ثم يتغافل عن شهود تلك الصورة ويتلهى عنها بالذكر ما امكن حتى يتجلى له سر من اسرار مذكوره فيغنيه عن الذكر به. ومن شرطه ان لا يعلق همته ما دام في الخلوة بحصول كرامة ولا يستند في خلوته ابداً الى جدار ولا غيره بل يذكر ربه امتثالاً لأمره مطرقاً رأسه مغمضاً عينيه من حين يفتح المجلس الى ان يفرغ منه، ملاحظاً لقوله تعالى في الحديث القدسي: «انا جليس من ذكرني» ومن شرطه ان يثبت اذا ترادفت عليه الخواطر الرديّة وليحذر من قوله في نفسه ما كان لي حاجة بهذه الطريق ولا بهذه الخلوة، فانه لا بد للسالك من ترادف الخواطر الردية عليه اوائل دخوله الطريق وفي الخلوة لكون ابليس يجيّش عليه ويركب عليه يحاربه بخيله ورجله، لكونه رآه عازماً على ان يكون من جلساء الحق جل وعلا. وهو حسود لله تعالى، ولكل من رأى عنده طلب تقريب من حضرة الحق تعالى فهو يحرص على ان يغير نيته ويرده ناكساً على عقبيه فلا يحب لنا خيراً قط، ولكن يجب على المريد الاستغاثة بشيخه كلما عرض له عارض من جهة النفس او الشيطان فانه ببركة استناده الى شيخه تندفع عنه العوارض ان شاء الله تعالى.

ومن شرطه ان يعود نفسه قلة الكلام وقلة الاكل قبل دخوله ليحب العزلة ويقل كلامه ويكثر سهره.

ومن شرطه ان يخلص النية في دخوله الخلوة بإذن الشيخ، ولا يجوز له دخولها بنية غير صالحة ولا بغير اذن من الشيخ. وينبغي له ان يقصد بها تهذيب اخلاقه ليستريح الناس من شره، فإن في الحديث مرفوعاً: شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه. ومن شرطه ان يدخل الخلوة بالهيبة كما يدخل المسجد من حيث انه حضرة الله الخاصة ويستعيذ بالله من شر نفسه كلما دخلها وينقطع عما سواه من زوجة واولاد ومال، فلا يكاد يخطر على باله شيء من ذلك، لان خطور ذلك من علامات الالتفات الى وراء، وقد أجمعوا على انه لا يصل الى مطلوبه من كان عنده التفات الى ورائه. ومن شرطه ان لا يدخل في الخلوة حتى يدخلها شيخه قبله ويصلي فيها ركعتين بحضور وهمة وجمعية قلب مع الله تعالى ثم يفيض ذلك في قلب المريد ليقرب عليه طريق الفتح.

ومن شرطه ان لا يلتفت الى ما يقع له من الكرامات بل يقبل ذلك أدباً مع الله تعالى لشكره عليه من غير وقوف معه، فمن وقف مع شيء من ذلك فاته خير الدنيا والآخرة. وكذلك الكرامات للرجل بمثابة الحيض للنساء، ومن قوي يقينه بالله تعالى لا يحتاج الى كرامة تثبته في دينه.

ومن شرطه ان يرى روحانية شيخه متصلة به لا ينحجب عنه شيخه لاتصال روحه بمريد آخر، بل روحانية الشيخ تمد مريديه كلهم ولو كانوا مائة الف الف مثلاً. وليحذر ان يرفض واسطة شيخه له ويتوجه الى الله بلا واسطة فانه يتمزق ولا يحصل على طائل لجهله بالله عز وجل.

ومن شرطه ان يكون دائم المراقبة لينظر الله تعالى اليه فلا يغفل عن هذا المشهد لحظة فمن غفل عن ربه كذلك ردته الغفلة الى أنقص من حاله الذي كان له قبل دخوله الخلوة.

ومن شرطه ان يكون صائماً مدة الخلوة وذلك لان الجوع يحلل من الاجزاء الترابية والمائية بقدر ما يكون فيصفو القلب.

ومن شرطه ان لا يخلي إلا في خلوة مظلمة لا يدخلها شعاع شمس ولا ضوء نهار وذلك ليسد عن نفسه طرق الحواس الظاهرة، فانها شرط لفتح خواس القلب.

ومن شرطه دوام الطهارة فلا يمكث لحظة واحدة محدثاً بل يبادر للطهارة كلما احدث وذلك لتلألؤ الأنوار في قلبه.

ومن شرطه ان لا يتكلم الا بكلام مشروع ويسد باب كلام اللغو جملة، فان الانوار الربانية تخرج من قلب العبد اذا تكلم بلغو ويصير قلبه مظلماً خالياً من النور الحاصل بالخلوة،

ولا يضره الكلام مع شيخه في وقائعه ولا لخادمه الذي جعله خادماً له مدة الخلوة لكن يكون ذلك بقدر الضرورة.

ومن شرطه ان تكون الخلوة التي يمكث فيها بعيدة عن سماع كلام الناس، لان سماع كلام الناس يؤثر في القلب ظلمة بخلاف الكلام المشروع كما مر.

ومن شرطه ان يخرج للوضوء والصلاة مطرقاً رأسه غير ناظر الى احد مغطياً رأسه ورقبته بشيء، لانه ربما حصل له عرق في الخلوة فلفحه الهواء لما خرج فضعف وانقطع عن آداب الخلوة، وليحذر من ملاحظة الناس له ورؤيتهم له بالتعظيم اذا خرج للوضوء والصلاة، فان ذلك سم قاتل.

ومن شرطه ان لايصلي منفرداً بل في جماعة، فقد قالوا ما حصل لاحد خبل في عقله اذا اختلى إلا من تركه الصلاة في جماعة، وليحذر من الشبع وكثرة شرب الماء فان ذلك يقسي القلب ويورث الحجاب ويظلم القلب ويورث الكسل والبطالة وجلب النوم.

ومن شرطه السهر الدائم، فان ذلك يذيب الأركان الأربعة ويحللها وهي الماء والتراب والهواء والنار وهناك ينظر الى عالم الملكوت فيشتاق الى مرضاة ربه وينفر من كل شيء يغضب ربه.

ومن شرطه ان لا يتسلسل في خاطر ولا في التعقل في فهم آية او حديث فضلاً عن غير ذلك؛ لان الخلوة ليست تحل لمثل ذلك.

ومن شرطه ان لا يفتح باب خلوته لأحد غير شيخه، ولما اختلى ﷺ في غار حراء كان لا يصحب أحداً معه.

ومن شرطه عدم الغفلة عن الذكر الذي أمره به شيخه لانه مرسوم الولاية اذا كان مع ربط القلب بالشيخ.

ومن شرطه ان لا يعين للخلوة مدة اذا بلغها خرج فمن عين اربعين يوماً مثلاً وحدث نفسه بالخروج اذا مضت، خرج من الخلوة في أول يوم بهذا الخاطر، لأنه يورث الشتات والتفرقة للقلب مدة الخلوة، فيجب على المختلي ان يجعل الخلوة قبره لايخرج منها إلا يوم القيامة ـ ذكره الشيخ نجم الدين البكري وقال انه أمر دقيق لا ينتبه له غالب الفقراء، انتهى.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: من أحكم معنى الخلوة (بالخاء المعجمة) صار الوجود له (جلوة بالجيم) وصار يخاطب سر الحق تعالى، ومن قلوب الخلق ما

لا يتحجب عن ربها بحجاب إلا حجاب العظمة، انتهى.

واما ثمرات الخلوة التي لا ينبغي لشيخ أن يدخل المريد الخلوة إلا إن علم من طريق كشفه حصولها له فهي خمسة وعشرون من انواع الكشف وقد أجمعوا على ان حصولها من علامات صحة الفتح، وان من لم تحصل له فاشتغاله بالعلم والكسب والصنايع والحرف افضل له من دخول الخلوة، فيقال لمن اختلى ماذا حصل لك من الكشوفات والعلوم؟ فان رأيناه كاشفنا بهذه الخمسة وعشرين كشفاً صدقناه والا أعرضنا عنه.

فأول الكشوفات التي تحصل للمختلي ان يكشف له عن عالم الحشر الغائب عنه فلا يحجبه ظلمة ولا جدار عما يفعله الناس في قعور بيوتها، لكن يجب عليه التوبة من هذا الكشف فوراً لأنه كشف سلطاني، وينبغي له ان يسأل الله تعالى ان يتخلق باسمه الستار. والفرق بين الكشف الحسّي والخيالي ان يغمض العبد عينيه عند رؤية شخص او عند رؤية فعل، فإن بقي له الكشف فهو خيالي، وان زال فليعلم ان الادراك قد تعلق بمكان مخصوص.

ثانيها: ان تنزل عليه المعاني العقلية في الصور الحسيَّة فلا يصير بعد ذلك يحتاج الى اتعاب فكر في تحصيل شيء مما طريقه العقل.

ثالثها: ان يؤتى بأواني فيها شراب فينبغي له ان يشرب اللبن منها، وإلا فاللبن ثم العسل، وان جمع بين اللبن والعسل فهو افضل، وليحذر من شرب الخمر فانه يورث الشطح، فان كان الخمر ممزوجاً بماء المطر فليشربه دون الممزوج بماء الانهار والآبار والعيون، وعليه بالذكر حتى يرتفع عنه عالم الخيال ويتجلى له عالم المعاني المجردة عن المواد.

رابعها: ان يتجلى له المذكور ويغني عن الذكر في حضرة المشاهدة.

خامسها: ان يعرض عليه الحق تعالى مراتب المملكة كلها فلا ينبغي له الالتفات إليها.

سادسها: ان يكشف له عن اسرار الاحجار المعدنية وغيرها فيعرف سر كل حجر وخاصيته في المضار والمنافع ويعرف عمل الكيمياء الصحيحة التي لا تتغير على مرور الازمان، فلا ينبغي الالتفات الى شيء من ذلك.

سابعها: ان يكشف له عن اسرار النبات حتى تناديه كل عشبة وتخبره بما فيها من الخواص، ولا ينبغي له الالتفات الى ذلك، فمن التفت الى ذلك طرد، وليكن غذاؤه عند حصول هذا الكشف بما كثرت رطوبته وحرارته.

ثامنها: ان يكشف له عن اسرار الحيوان كله حتى الحشرات ويسلم عليها وتعرّفه بما

أودعه الله فيها من الخواص النافعة والضارة وبما تعبد الله تعالى به من انواع التسبيح والتمجيد. وهنا نكتة جليلة وهو ان المختلي إن رأى العوالم مشتغلة بالذكر الذي هو عليه في الخلوة فليعلم انه كشف خيالي لا حقيقي فان خياله هو الذي اقيم له في الموجودات، وان رآها مشتغلة بأنواع اذكارها هي فهو كشف حقيقي.

تاسعها: ان يكشف به عن سريان عالم الحياة التي هي سبب الاحياء وما تعطيه من الاثر في كل ذات وكيف تندرج العبادات في هذا السريان فيعرف نشأة الصلاة الحية من الميتة.

عاشرها: ان يكشف له عن اللوايح اللوحية ويخاطب بالمخاوف وتتنوع عليه الحالات ويقام له دولاب يعاين فيه صور الاستحالات وكيف يصير الكثيف لطيفاً وعكسه.

حادي عشرها: ان يكشف له عن نور نظائر السر حتى يطلب التستر منه فليقدم على الذكر ولا يخف فانه ينقطع عنه ويندفع.

ثاني عشرها: ان يكشف له عن نور الطوالع وصورة التراكيب الكلية وتعرف آداب الدخول الى الحضرة الإلهية وآداب الوقوف بين يدي الحق جل وعلا، وأدب الخروج من عنده الى الخلق، وهناك يعرف ان كل شيء نقصَ من الظاهر زِيدَ في الباطن والذات واحدة وما ثم نقصٌ حقيقة.

ثالث عشرها: ان يكشف له عن مراتب العلوم النظرية ويعرف صور المغاليط التي تطرأ على الافهام وسريان السرّ الإلهي في العالم.

رابع عشرها: أن يكشف له عن عالم التصوير والحسّ والخيال ويمده كل شيء في الوجود بما عنده.

خامس عشرها: ان يكشف له عن مراتب القطبية وعوالمها وكل ما شاهده قبل ذلك فهو من عالم اللسان، وهناك يعطى عالم الرموز والاجمال والوهب.

سادس عشرها: ان يكشف عن عالم العزّة فيعرف جميع الأدلة السليمة والشرائع المستقيمة المنزلة من عند الله بواسطة محمد ﷺ على أتم وجوهها ويميز قول الله من قول خلقه ولو حكاه تعالى عنهم ويتأيد عنده الاحاديث التي قيل بضعيفها بالكشف، ويعرف ايضاً جميع المقامات ومراتبها في الحضرة الإلهية وتقابله كلها بالتوقير والتعظيم.

سابع عشرها: ان يكشف له عن غامضات الاسرار.

ثامن عشرها: ان يكشف له عن عالم الحيرة والقصور والعجز وخزائن الاعمال وهي من الجنان عليون فقط.

تاسع عشرها: ان يكشف له عن جميع الجنان ومراتب أهلها كلهم وهو واقف على طريق ضيق، ثم عن جهنم ودركاتها ومراتب اهلها، وهناك يعرف كشفاً ويقيناً الاعمال الموصلة الى كل من الدارين.

العشرون: ان يكشف له عن ارواح اهل محبة الله عز وجل فيراهم حيارى سكارى قد غلب عليهم سلطان الوجل.

حادي عشرينها: ان يكشف له عن نور لا يرى فيه غير نفسه فيأخذه فيه وجد وهيمان ويتمايل كتمايل السراج ويجد في نفسه لذة لا يقدر يقدرها.

ثاني عشرينها: ان يكشف له عن صور كصور بني آدم وستور تدفع وستور بياض ولهم تسبيح يدهش العقول فلا يذهل حين يرى صورته فيهم.

ثالث عشرينها: ان يكشف له عن اسرار الرحمانية فيعرف عاقبة أمره ومنزلته من حضرات الاسماء.

رابع عشرينها: ان يعرف منازع جميع احوال المجتهدين من الكتاب والسنة ويخرج من الخلوة وقد نحى نفسه من ديوان الفقراء الصادقين، واما من يخرج منها وهو يرى انه خير من أقرانه فهو ممقوت باجماع اهل الطريق، إذ هو وقت اللبس الذي اخرج به آدم من حضرة الله كما مر قبيل هذه الخاتمة.

خامس عشرينها: ان يعطيه الله تعالى المشي على الهواء والماء ويصير يتصرف بهمته في الكون باذن الله تعالى، وتطوى له الارض ويخلع عليه هناك من الخلع ما لم يخطر على باله. فهذه ثمرات الخلوة والحمد لله رب العالمين.

وكان أخي ابو العباس الحريني يختلي الاربعين واكثر ويقول كل خلوة لا تمنح صاحبها هذه العلوم فهي عبث ناقص الاستعداد، وهي:

علم حضرة الجمع الاكبر، وعلم مزلات الاقدام، واسباب السعادة والشقاء، وعلم الفرق بين الكرامة والاستدراج في سائر الاحوال، وعلم جميع مراتب العالم عند الله تعالى على اختلاف طبقات الخلق ومعرفة انساب جميع الحيوانات الى ابيها الأول.

ومنها علم التجليات الالهية وعلم بطون عالم الشهادة في عالم الغيب وعكسه، ومن هذا العلم زل بعض اهل الكشف فقال بعدم حشر الاجساد حين رأى ارواحاً تتحول في أي صورة شاء صاحبها، وغاب عنه ان الاجساد تنطوي في الارواح في الآخرة عكس حالها في الدنيا.

ومنها علم جواهر القرآن كلها في مقام الاسلام وفي مقام الايمان وفي مقام الإحسان وفي مقام الايقان.

ومنها علم مراتب الملائكة في الدار الآخرة على التفصيل وعلى الجمع بين الضدين، وادخال الواسع في الضيق، وطي الزمان، وشهود الجسم الواحد في مكانين فاكثر من مكانين فأكثر في آن واحد.

ومنها علم كلام الحيوانات من حيث تسبيحها بحمد ربها حال صلاتها ومعرفة الأداة المتعلقة بملائكة الارض وملائكة الهواء بين السموات كلها، وعلم البرازخ.

ومنها علم ابراز الغيوب من خلق الحجب، وعلم الظلالات الاقدسية وعلم كيفية الحروف المسطرة في اللوح المحفوظ، وعلم طول العالم وعرضه من الجهات الست.

ومنها علم حضرات الفردانية والصمدانية وعدتها سبعون الف حضرة ومعرفة الاحكام المتعلقة بأهل كل حضرة بحيث يصير يمليها كلها من قلبه.

ومنها علوم فتق الرتق بالعروق وفصل الوصل بالختوق وعلم الاسباب التي من اجلها اتخذت الاصنام والاوثان ارباباً من دون الله، وما شبهة كل صاحب ملة ونحلة في مخالفته شريعة نبيه.

ومنها علم حضرات الرجوع ولماذا يرجع كلام الباري جل وعلا، هل هو لذاته، او لصفة قائمة زائدة عليها، أو لعلمه او نسبه خاصة، وما محل الاعجاز من جميع الآيات.

ومنها علم تطورات الحروف ملائكةً حال النطق بها بحيث يصير صاحب هذا الكشف يرى الجو كله ملائكة من كلام الخلق.

ومنها علم ملامات من مسه الشقاء من العصاة وتمييزه عمن لا حظَّ له في الشقاء أصلاً برؤية جبهته، وعلم التضمير في نحو قوله تعالى: وسارعوا الى مغفرة من ربكم، ومعلومأنه لا يسارع الى المغفرة إلا بالوقوع في الذنوب وقد ثبت النهي عنها وهو علم شريف.

ومنها علم الغيب الذي انفرد به الحق جل وعلا، والغيب الذي يطلع خواص عباده عليه، وهل بين كل ارض وأرض سماء فيها ملائكة ام لا.

ومنها علم الشرائع المبثوثة في جميع العالم وعلم جميع المعجزات والكرامات واستخراجها كلها من مقام محمد ﷺ.

ومنها علم مظاهر الآيات البرزخية والكرامات الكونية، وعلم ما خص الله تعالى به

اصحاب الكهف من العلوم والاسرار، وعلم الانفهامات القدسية والالهامات الملكية والصحف الفردوسية وحضرة الديمومية.

ومنها علم الآداب التي تجب على أتباع كل امة ومستحباتها عن غيرها.

ومنها علم الكنوز ومعرفة حلّ طلسمات جميع الكنوز بأي حرف شاء من حروف الهجاء على عدد مخصوص وحال مخصوص ويتصرف في جميع كنوز الدنيا بما شاء لكنه يترك ذلك اقتداء بجمهور الانبياء والاولياء.

ومنا علم ضم المعاني بعضها على بعض كالالفاظ وهو علم غريب لان المعاني لا توجد الا مع الالفاظ، وتجرُّد المعاني من الالفاظ محال في العقل.

ومنها علم فك المعمى من الاسرار وتفهم مراتب الايمان وايضاح السر وعلم التفاضل بين الانبياء والاولياء على التعيين كما هم في حضرة الله تعالى.

ومنها علم حضرة الحجب الشهوانية في الدنيا والآخرة وما يحجب العبد منها عن الله تعالى وما لا يحجبه.

ومنها علم توالد الأدلة والبراهين ومنه يعلم ان كل ما ولده العقل في باب معرفة الله تعالى فهو مردود على صاحبه، قال تعالى: لم يلد ولم يولد، فافهم.

ومنها علم الطبائع ومنه يعلم الانسان انه قابل لجميع المحامد والمذام من حيث طينته، وانه ما خرج عن المذام سوى الانبياء عليهم الصلاة والسلام، وصاحب هذا العلم لا يصير يفرح بالمدح ولا يحزن بالذم لانه لم يرد عليه شيء غريب وهو من اشرف علوم الكشف.

ومنها علم تمييز الحق من الباطل في سائر الاقوال والافعال والعقائد، وادراك الباطل ميتاً لا روح فيه، والحق حياً، كما يدرك الحب اليابس من الاخضر من غير اقامة دليل على ذلك من الكتاب والسنة لو فُقدا والعياذ بالله تعالى.

ومنها علم القبض والبسط، ومنه يشهد صاحب هذا المقام بسط الحق تعالى في حال قبضه وقبضه في حال بسطه وهكذا من حيث انه تعالى جامع للاضداد الا ما اخرجته النصوص الشرعية من ذلك، كما هو معروف عند اهل الله تعالى.

ومنها علم جميع الطرق التي يدخل منها ابليس على جميع السالكين ومعرفة الامور التي تسد جميع طرقه عنهم وهو من اشرف العلوم.

ومنها علم الصفات والاحكام التي كانت للأرواح قبل دخولها في هذا الجسم والصفات

التي تكون عليها بعد دخولها، ومنه يعرف السالك الوجه الذي حصل من اجتماعات حتى كان العذاب عليهما جميعاً فان لكل واحد منهما على افراده غير مكلف، انتهى.

فهذا بعض علوم الخلوة التي ذكرها أخي أفضل الدين رحمه الله.

وكان سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: كل خلوة لا يطلع صاحبها اذا خرج منها على هذه العلوم فلا ثمرة لها وهي غير مشروعة بل هي الى الرياء اقرب، فاولها: ان يكشف له عن علم آداب ردى الحجب وعدتها سبعون الف حجاب وذلك ليرفع عنه اذا دخل في الصلاة، وان يعطى علم آداب المشاهدات العيانية والمكالمات البيانية. ثانيها: ان يعطيه الله تعالى معرفة اهل الجنة ومعرفة من يدخل الدار من الموحدين ممن لا يدخلها. ثالثها: ان يعطيه الله تعالى علم جميع ما احصاه الله تعالى في الامام المبين من العلوم وعدتها ما يحصل من ضرب ثلاث مائة وستين الفا في مثلها تسع مرات وثلث. رابعها: ان يعطيه الله تعالى معرفة احكام الكتاب والسنة في مقام الاسلام ومقام الايمان ومقام الاحسان ومقام الايقان ويصير يعرف شروط كل عبادة واركانها وسننها وآدابها في كل مقام من هذه الاربعة مقامات وهو علم عزيز.

خامسها: ان يعطيه الله تعالى علم فك رموز الحقائق وحل معميات الدقائق.

سادسها: ان يعطيه الله تعالى علم آداب الدخول الى حضرة الله الخاصة بالصلاة، وامهاتها عشرة آلاف ادب واما فروعها فلا تنحصر، وما قدروا الله حق قدره.

سابعها: ان يعطيه الله تعالى علم استخراج جميع الكتب المنزلة من القرآن العظيم وتمييز جميع الشرائع عن بعضها وما تزيد كل شريعة او تنقص عن الاخرى.

وكان سيدي ابراهيم المتبولي يقول: لما دخلت الخلوة أطلعني الله تعالى على رجوع جميع الكتب المنزلة الى القرآن ورجوع القرآن كله من حيث معانيه الى الفاتحة ورجوع الفاتحة الى الباء ورجوع الباء الى النقطة، وصرت أستخرج جميع مذاهب المجتهدين من أي حرف شئت من حروف الهجاء.

ثامنها: ان يعطيه الله علم حضرات الاسماء ومعرفة اسناد كل قول في الشريعة الى اسم الهي.

تاسعها: ان يعطيه الله تعالى علم كل علامات الساعة وامهاتها الف علامة لا تقع كل واحدة الا بعد سنة، ويصير يعرف الامور المبرمة والامور المعلقة من المنكرات فيشدد في المعلقة ويخفف في المبرمة لئلا يعارض فيما اخبر به الشارع.

عاشرها: أن يعطيه الله تعالى معرفة سائر الألسن الخاصة بالإنس والجن فلا يخفى عليه فهم كلام احد منهم ولو تشكل في غير صورته الأصلية.

حادي عشرها: ان يعطيه الله تعالى علم سر القدر الذي طوى علمه عن الخلائق ما عدا محمد ﷺ ومن ورثه في المقام من طريق الكشف.

ثاني عشرها: ان يعطيه الله تعالى ما ينطوي عليه كل انسان من الخير والشر بمجرد رؤيه أنفه.

ثالث عشرها: ان يعطيه الله تعالى معرفة غسالات الخطايا في الماء الذي يتطهر الناس منه فيصير يميز بين غسالة الكبائر والصغائر والمكروهات وخلاف الاولى برؤية ذلك الماء فلا يخطىء.

رابع عشرها: ان يعطيه الله تعالى علم الطبائع ومعرفة ما يقبل الانتقال عن طبعه وما لايقبل من سائر الحيوانات.

خامس عشرها: ان يعطيه الله معرفة العلوم التي يختص بها الانسان، والعلوم التي يختص بها الملَك، والعلوم التي تختص بها البهائم، وما يدخل مع الانسان قبره من العلوم ويدوم معه إلى الأخرة، وما ينقطع حكمه بالموت.

سادس عشرها: أن يعطيه الله تعالى معرفة ترتيب الأسماء الإلّهية في الظهور وما اول اسم ظهر وما هو الذي تلاه في الظهور وهكذا، وما هو الاسم المهيمن على سائر الاسماء.

سابع عشرها: ان يعطيه الله تعالى معرفة الآداب التي تختص بالبعث والنشور والحشر الى دخول الجنة، ومعرفة الآداب التي تكون في الجنة، وهل هي مستنبطة من آداب الشريعة ام يوحي بها الله الى اهل الجنة، فان الادب مع الله لا يختص بمكان بل هـو واجب على الدوام.

ثامن عشرها: ان يعطيه الله تعالى علم نسبته جميع الامور الى الله تعالى والى الخلق، ومنه يعرف حقيقة مسألة خلق الافعال التي عجزت عقول العلماء عن تحقيقها.

تاسع عشرها: ان يعطيه الله تعالى معرفة الجمع بين اقوال جميع المجتهدين وأتباعهم ورجوعها كلها الى عين الشريعة من غير ترجيح قول على آخر كشفاً ويقيناً لا ظناً وتخميناً.

عشرونها: ان يعطيه الله تعالى معرفة أسرار القرآن والسنة المسمى بعلم الحقيقة، ويطابق بينها وبين الشريعة ويراها حقيقة واحدة لها مرتبتان: عليا وسفلى.

حادي عشرينها: ان يعطيه الله تعالى معرفة جميع العلوم حتى يهلك صاحبها في عين ما يظن سعادته بها كعلوم البراهمة ونحوها.

ثاني عشرينها: ان يعطيه الله تعالى تطورات الاقوال والافعال والاغراض ومعرفة ما تطورت منه تلك الصور على اختلاف اجناسها بمجرد رؤيتها.

ثالث عشرينها: ان يعطيه الله تعالى وزن الرجال ومعرفة مقام كل انسان برؤية تدوير فمه أو بأصر عينه.

رابع عشرينها: ان يعطيه الله تعالى معرفة تفاصيل الآيات والصور وجميع الانبياء على اختلاف طبقاتهم وما فضل الله به كل واحد عن بقيّة اجناسه.

فهذه أربعة وعشرون علماً من ثمرات الخلوة في يوم وليلة، وما زاد فبحسابه الى أربعين يوماً. انتهى كلام سيدي علي المرصفي رحمه الله.

ومن شأن الشيخ ان لا يجلس للمشيخة وفي بلده من هو أقدم هجرة في الطريق منه إلا ان يكون هو أعلم بها منه ثم يصير يستأذنه في ارشاد المريدين كهيئة النائب عنه. وكذلك أجمعوا على انه لا يجوز للفقير التصدر لأخذ العهد وغيره مما يتعلق بطريق المشيخة الا بعد ان يجلسه شيخه او يجلس بإذن من ربه ألقاه في سره بالشروط المعروفة بين القوم، وقد أذن لي شيخي بحمد الله في الجلوس كما مر بيانه في المقدمة وهو شيخي العارف بالله تعالى سيدي محمد الشناوي رضي الله عنه والحمد لله رب العالمين.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه: واذا علم الشيخ ان المريد قد استقل وكملت تربيته ودخل أوان فطامه وجب عليه ان يقطع عنه الإمداد من جهته ويتركه مع ربه ان شاء اقامه الله بين العباد وان شاء ستره بينهم، ولا حكم بعد ذلك للشيخ عليه. قال: ويجب على المريد اذا ساوى شيخه أو جاوزه ان يلزم الادب معه ولا يجوز له ان يسيء معه الادب ابداً، بل يحترمه وان لم يكن مقتدياً به، قال: والذي نختاره دوام الاقتداء بشيخه. فاعرض يا أخي ما في هذا الباب من الآداب على نفسك فان رأيتها متخلقة بها فاشكر الله عز وجل، فانك قد صرت مريداً. وان رأيت نفسك غير متخلقة بهذه الآداب فإياك ان تدعي انك مريد فان ذلك زور وبهتان، وليكن ذلك آخر الباب والله تعالى أعلم.

الباب الثالث

في بيان نبذة من آداب المريد مع اخوانه

اعلم رحمك الله تعالى ان آداب الفقراء لا تنحصر لانها مجموع ما في الكتب الإلهية والاحاديث النبوية والآثار الصحابية والآداب السلفية، ولكن نجمع آداب الفقير مع اخوانه كلهم ان لا يعاملهم الا بما يحب ان يعاملوه به، وان يرجو لهم من الخير والمسامحة في ذنوبهم ما يرجوه لنفسه، وان يحملهم في جميع ما يقعون فيه من مواطن الفهم على احسن المحامل مما يحب ان يحملوه عليه لو وقع هو في ذلك، ويرجو لهم قبول التوبة ولو فعلوا من معاصي اهل الاسلام ما فعلوا كما يرجو ذلك لنفسه اذا وقع فيما وقعوا. فمن فعل بتفاصيل ما قلناه فقد وفى اخوانه حقوقهم ان شاء الله تعالى.

ثم لا يخفى عليك يا اخي ان المريد لا يقدر على التخلق بجميع آداب اخوانه لانه مشغول بحق الله تعالى عن حقوقهم، فلا يقدر على الجمع بين حق الله تعالى وحق عباده، وانما يؤمر ببعض اخلاقٍ لا بد منها في طريق الخلطة والمجاورة مما هو كالواجب في طريق العشرة. ثم اذا انتهى سيره وبلغ مبلغ الرجال فهناك يطالَب بالتخلق بأخلاق الكمال كلها. وايضاح ذلك ان الاخلاق المحمدية لا تخلع على احد ان دخل حضرة الله تعالى الخاصة التي يدخلها السالك عند كمال سلوكه في العادة، وتلك حضرة محرم دخولها على من بقيت فيه بقية من رعونات النفوس، بدليل عدم صحة الوضوء والصلاة لمن ترك لمعة من اعضاء الطهارة لم يصبها الماء او التراب. ثم اذا استقر في تلك الحضرة خلع عليه من الاخلاق المحمدية ما قسم له فيرجع متخلقاً بها من غير كلفة عليه في ذلك، وأُمر ان يعطي كل ذي حق حقه على الكمال من والد وزوجة وولد وصاحب وجار ونحوهم. ولو اننا امرنا في بدايته بذلك لما قدر على السير في الطريق لضعفه عن الجمع بين حق الله تعالى وحق عباده كما مر. ثم وتقدير انه كان يعمل بها فهي كالأشباح بلا أرواح لكثرة العلل والدسائس في اعمال المريد.

اذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: من ادبه مع اخوانه ان لا ينظر لهم ابداً الى عورة ظهرت، ولا الى زلة سبقت، اذ هو معرض للوقوع في مثلها. ثم اذا وقع فهو يحب من جميع اخوانه ان يرحموه ويعتذروا عنه ويقولوا ان ابليس هو الذي اوقعه بارادة الله وانه اوقع من هو اعظم منه ونحو ذلك. فكذلك ينبغي له ان يعاملهم باقامة العذر وعدم الازدراء. فكما كره منهم الشماتة فيه وعدم اقامة العذر له، فكذلك الحال فيهم يكرهون من يشمت بهم ويعايرهم، ولو قيل لهم اجعلوا الشامت فيكم كالمعتذر عنكم لا يسمعون ولا يقدرون فكذلك الحكم فيه.

وقد أجمعوا على ان كل فقير اطلع على شيء من عيوب الناس ولو من طريق كشفه فهو في حضرة الشيطان لا في حضرة الله تعالى ولا حضرة ملائكته.

وقالوا: كل كشف اطلع صاحبه على شيء من عيوب الناس فهو كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه.

وقالوا: من نظر الى عيوب الناس وحملهم على المحامل السيئة قل نفعه وخرب سره وعدم الانتفاع بصحبة شيخه، فالواجب عليه ان لا يتعدى النظر الى عورة نفسه ليسترها، واما غيره فاذا أُخبره وقدر على سترها فعل، وان كانت تحتاج الى علاج فليبدله على الشيخ، لان المريد ليس هو معداً لاصلاح غيره وانما هو مشغول باصلاح نفسه فقط ليخرج عن رعوناتها.

وفي حديث الطبراني مرفوعاً: من تتبع عورات الناس تتبع الله تعالى عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف رحله انتهى.

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول: والله لقد أدركنا اقواماً لا عيوب لهم فتجسّسوا على عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوباً.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: كل من لم يستر على إخوانه ما يراه فيهم من الهفوات فقد فتح على نفسه باب كشف عورته بقدر ما أظهر من هفواتهم.

وكان سيدي أحمد الزاهد رحمه الله يقول: اذا رأيتم احداً من اخوانكم على معصية لم يتجاهر بها فاستروه، فان تجاهر بها بينكم فوبخوه، ولا تفشوا ذلك لمن لم يعلم به. فان لم ينزجر فوبخوه بين الناس مصلحة له لا تشفيا للنفس فلعله يرعوي وينزجر. وما دام يعصي في قعر داره ويغلق بابه عليه فهو لم يتجاهر الا ان كان هناك اطفال يحكون ما يرون فانهم كالرجال.

وكان الحسن البصري يقول: اذا بلغكم عن احد زلة ولم تثبت عند حاكم فلا تعيّروه بذلك، وكذّبوا من أشاعها عنه ان لم يثبت ذلك عند حاكم، لا سيما ان كان هو ينكر ذلك ـ لان الأصل براءة الساحة حتى تقام البينة العادلة عند الحاكم. ثم بعد ثبوت ذلك عنه فاياكم ان

تعيروه ايضاً فربما عافاه الله وابتلاكم.

وكان سيدي محمد الغمري رضي الله عنه يقول: اذا رأيتم الفقير يتتبع عورات الفقراء في الزاوية فهو من أهل السوء، وكل شيء حملهم عليه فهو وصفه هو، ويجب على الشيخ اخراجه ان لم يتب لئلا يتلف حال الفقراء ويخيلهم من بعضهم بعضاً، وان لم يخرج الا بالحكم الشرعي فاشتكوه له وأخرجوه وأقيموا عليه الوزن بالقسط ولا تسامحوه، يخرب عليكم الزاوية عن قريب.

وكان يقول: ينبغي للنقيب ان لا يمكن الشباب العزاب ينامون في خلوة واحدة ابداً لان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فربما وسوس لأحد اللوث بهم وحملهم على محامل سيئة ليسوا من اهلها، فيشغل قلوب الفقراء المتهومين والسامعين. ولا ينبغي لاحد من فقراء الزاوية وغيرهم ان يعترض على النقيب في منع العزاب من ذلك فيرجع اللوث عليه بسبب ذلك، لان تفرقة اطفال المجاورين الذين يقرؤون القرآن هي من وظيفة النقيب لانه لسان حال الشيخ. فاذا اعطى طفلاً لفقيه يقربه ويربيه فليس لاحد الاعتراض عليه، بل الواجب على كل احد ان يفر من مواطن التهم، فقد قال السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من سلك مسالك التهم فلا يلومن من أساء به الظن. قالوا: وما للشيطان سلاح في خراب الزاوية واهلاك دين اهلها اعظم من تحريشه بينهم ووسوسته لهم بمخالفة اغراض بعضهم بعضاً، فيزين لكل واحد انه قائم بالحق ومن يعارضه على الباطل، فلا يكاد كل من الفريقين يرجع عما اراده.

وكان سيدي محمد الغمري وكذلك سيدي مدين رضي الله عنهما اذا جاء زاوية احدهما امرد جيد الوجه لا يقبله ويقول: ان حكم من يمكن الامرد الذي تميل اليه النفوس العفوية من الاقامة في زاويته حكم من يجعل على سطح داره قطع لحم ويطلب من الحدادي ان لا تنزل عليها انتهى.

فليتنبّه الفقراء المقيمون في الزاوية لمثل هذه الدسائس ولا يعترضوا على الشيخ ولا على النقيب اذا أخرج احدا من المرد ومنعهم المجاورة، فان ذلك من عين الصواب والله اعلم.

ومن شأنه ان ينفق على نفسه وعلى اخوانه كلما فتح الله تعالى به عليه من الحلال اولاً فاولاً، ولو كانت فجلة او خيارة، ولا يعود نفسه الاختصاص بشيء عن اخوانه مطلقاً، فان من آثر نفسه على اخوانه في الشهوات لم يفلح ابداً، وما صار الناس رؤساء في الطريق الا لكرمهم وإيثارهم وسلامة صدورهم من الحقد والحسد والضغائن. وقد أجمع الاشياخ على ان المريد متى أخر نصفا واحدا على اسم حوائجه المستقبلة مع حاجة احد من اخوانه الى ذلك خرج عن

طريق الفقراء بالاجماع. قال المحققون: وكلامنا في الحلال اما ما فيه شبهة فلا يمسكه بحال.

وكان الشيخ ابو القاسم الجنيد يقول: ليس لفقير ان يمسك من الدنيا شيئاً الا ان ينوي انفاقه على الحج مثلاً فيؤخر لأجله لكن باشارة شيخه. وقالوا: الفقير ابن وقته لا نظر له الى ماض ولا مستقبل والواجب عليه العمل على تنظيف باطنه من سائر ما يكرهه الله تعالى، وهو كل شيء تميل اليه النفوس من الشهوات التي نهى الله تعالى اصفياءه عنها. وهذا شأنه ما دام سالكاً في الطريق. فاذا كمل حاله وبلغ مبلغ الرجال فهناك يعرف ما يأتي وما يذر، فان ترك الدنيا كان ذلك بحق وان اخذها كان ذلك بحق لانه خرج عن شبح الطبيعة وصارت الدنيا في يده لا في قلبه فيتصرف فيها تصرف حكيم عليم غير بخيل على احد بها، الا ان منعه الشرع من اعطائه، كأن كان ذلك يشغله عن الله او يفعل به معصية. ثم اذا خرجت الدنيا من قلبه فله تقديم نفسه وإيثارها على غيره اذا كان احوج عملاً بالعدل في ذلك فان نفسه اقرب المحتاجين اليه. وقد أجمعوا على ان المريد متى ترخص في ادخار الدنيا من ورائهم او طعام او ثياب تربى في باطنه البخل والشح والحرص ضرورة، فيحتاج بعد ذلك الى علاج شديد، وهيهات ان يزول بعد ذلك. ومن شك فليجرب. ولم يتخذ الله تعالى قط ولياً بخيلاً. وان كان الولي يمنع في بعض الاوقات لحكمة فلا يخرجه ذلك عن الكرم لانه في ذلك متخلق بأخلاق الله تعالى، فان من اسمائه المانع، أي لحكمة لا بخل، تعالى الله عن ذلك. وقد كنت في صغري أرمي كل شيء يأتيني من الدنيا هواناً بها مع اني كنت محتاجاً الى درهم منها، وانما كنت افعل ذلك لأتعود الكرم وهواناً بالدنيا في عيون المحبين لها ومجاهدة لنفسي، فرأيت اني خرجت عن محبتها بالكلية فنمت فرأيت القيامة قد قامت ونصب الصراط ادق من الشعر وأحد من السيف كما ورد، وهو منصوب الى جهة العلو كالحبل المتدلي من سقف وأكثر الناس يصعدون عليه فيزلقون ويقعون في النار. فأردت صعوده فلم اقدر فقال لي افتح كفك اليسار ففتحته فأخرج من بين اصابعي شيء مقدار السفاية فقال هذا الذي منعك، فأردت الصعود فاستيقظت قبل الصعود، فكان ذلك من الله تعالى تنبيهاً على عدم حبسي الدنيا فالحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه ان يكون عنده شفقة على دين اخوانه اكثر من شفقته عليهم في امر دنياهم، فينبههم في اوقات المراسم وتفرقة المواهب الإلهية كالأسحار والأوقات الفاصلة، ويكون ذلك بسياسة ولين لفظ وسيادة، لا بخلظة واحتقار، فربما تحركت نفوسهم فلا يسمعون له. وكذلك ينبههُم قبل الوقت ليدخل وقت الصلاة وهم على أهبة فلا يخافون فوت الاحرام مع الإمام او فوت السنة الراتبة قبل الفريضة، كما عليه طائفة المتوسوسين ويقولون الوقت متسع، وكثيراً ما يفوت احدهم صلاة الجماعة كلها. وكان بعض السلف اذا فاتته صلاة جماعة يعيدها وحده سبعاً وعشرين مرة مجاهدة لنفسه وان كان جمهور العلماء على المنع من ذلك. ومن السلف

الإمام المزني صاحب الإمام الشافعي كان يعيدها خمساً وعشرين مرة إذا فاتته الجماعة. وقد رأيت مرة شخصاً من طلبة العلم بالجامع الأزهر جالساً يطالع في علم المنطق وصلاة الجماعة في العصر قائمة، فقلت: ألا تصلي؟ فقال: الوقت متسع، فقلت له: صحيح ولكن هل تقدر تجمع لك في صلاتك مثل هذه الجماعة؟ فقال: لا، فقلت له: فقم فصل ولا تغش نفسك. وينبغي لمن بات قائماً يصلي من اول الليل الى آخره ان لا يرى نفسه على احد من اخوانه الذين ينبههم وقت السحر، بل يرى نومهم اخلص من عبادته هو. فان القلم مرفوع عن النائم دون القائم، فربما كتب القلم فلان قام طول ليله رياء وسمعة، وكان يجد في قلبه حلاوة اذا اطلع عليه الناس في ظلمات الليالي وهو قائم بين يدي الله عز وجل لا يستحي من مراعاة عبيده بين يديه، ومثل هذا الى الاثم أقرب. فعُلم ان كل من قام ورأى نفسه أفضل من النائمين على غير وجه الشكر لله تعالى استحق اللعن والطرد، فان ذلك هو ذنب ابليس الذي طرد به من حضرة الله عز وجل، فافهم.

وأجمع الأشياخ كلهم على انه يجب على العبد ان يرى نفسه دون كل جليس من المسلمين، ومن لم ير نفسه كذلك كان من المتكبرين، والمتكبرون في جهنم. فان رأى نفسه خيراً من جميع اقرانه كان في النار تحت الكل، وان ادخل الجنة كان في الجنة تحت الكل، عكس من رأى نفسه دونهم.

وكان سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه يقول: من أراد ان يصير الوجود كله يمده بالخير فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدرجة لأن المدد الذي مع الخلق كالماء، والماء لا يجري إلا في المواضع المنخفضة دون العالية او المساوية. فمن رأى نفسه مساوية لجليسه فمدده واقف لا يجري اليه، أو أعلى منه فلا يصعد اليه ذرة من مدده، وقد أوضحنا ذلك اول كتاب العهود فراجعه.

ومن وصية سيدي احمد بن الرفاعي لأصحابه وهو محتضر: من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له فان مدّ لكم يده لتقبلوها فقبلوا رجله وكونوا آخر شعرة في الذنب، فان الضربة اول ما تقع بالرأس انتهى.

فلولا ان هذه الخصلة جامعة لكل خير ما ختم سيدنا احمد تربيته لأصحابه بها.

وقال يعقوب الخادم يوماً: يا سيدي أوصني، فقال: كن خادماً لاخوانك، مؤثراً لهم على نفسك، محتملاً أذاهم بعد ذلك، واحذر أن ترى نفسك أعلى منهم فتقع في حفرة ثم لا يساعدك منهم احد. ثم قال: أي يعقوب! انظر الى نخلة البلح لما قامت بصدرها وتعالت على جيرانها كيف جعل ثقل حملها عليها، ولو حملت ما حملت لا يساعدها أحد، وانظر الى شجرة

اليقطين لما وضعت خدها على الأرض ولو حملت مهما حملت لا تحس بثقله تذكرة لأولي الأبصار.

وكان كثيراً ما يقول: من لم يكن له خدّ يداس لم يصر له كف يباس. لكن هنا ينبغي نكتة التفطّن لها وهو محل تلمذتنا لمن تمشيخ علينا ما لم يورثه ذلك عجباً وكبراً، فان علمنا ذلك ولو بالقرائن امتنعنا من تعظيمه وتقبيل رجله رحمة به لا كبراً عليه، والله تعالى أعلم.

ومن شأنه ان لا يزاحم على إمامه في الزاوية او غيرها لما في ذلك من تحمل بسهو المأمومين مع ضعف حاله، بل هيهات ان يقدر على تحمل سهو نفسه وغفلته عن ربه. وايضاً فربما جره ذلك إلى استحكام محبة الرئاسة فلا يفلح على يد شيخ بعد ذلك، وعلامة محبته للرئاسة تكدره اذا انعزل منها وعلامة اخلاصه انه ينشرح اذا عزل. وقد بلغنا ان الشيخ جلال السيوطي رحمه الله كان يصلي العصر في المدرسة البيرسية وحده لعذر فجاء انسان وصلى خلفه فلما سلم قال له: يا أخي، لا تعد تصلي خلفي، فاني عاجز عن تحمل نقص صلاتي نفسي فكيف اقدر على تحمل صلاتك، وهذا من قاعدة: السلامة مقدمة على الغنيمة، ولكل رجال مشهد، فإياك والاعتراض عليه فانه كان رجلاً اعلم منك بيقين، بل كان مجتهداً مطلقاً ومنتسباً لابي يوسف والمزني وابن القاسم كما رأيت ذلك بخطه رضي الله عنه، فان المجتهد المطلق قسمين منتسب وغير منتسب، فالمنتسب هو من بلغ حد الترجيح في اقوال مذهب امامه ولم يخرج عن قواعده، وغير المنتسب هو من انشأ مذهباً مستقلاً لم يسبقه اليه احد والله أعلم.
ومن آداب الفقير ان لا يكون مقداماً لاخوانه في سوء ادب مع الشيخ ابداً، كأن يخرج من تحت يد شيخه وتربيته ويتزوج بغير اذنه ويطلب الدنيا بالوظائف والحرف ويصير يوسع على نفسه ويأكل الشهوات ويمنع اخوانه من ذلك، حتى لو قال له الشيخ أنفق على إخوانك نصفاً واحداً لا يجيب. وفي ذلك اساءة أدب مع الشيخ ومع اخوانه لان جميع من في الزاوية يصير يحتج بفعله ويقول ان الشيخ كان رجلاً يقول لفلان اخرج عما بيدك، وبذلك يتلف ضعفاء المريدين. ثم من اقبح ما يقع فيه الفقير استهانته بغضب شيخه عليه لانه عنوان على غضب الحق جل وعلا عليه ومن استهان بذلك لعنه الله تعالى.

ومن علامة استحكام المقت فيه ان يصير يدعى الى مكان علية من الادب مع الشيخ قبل ان تبدل وتغير فلا يجيب ويثقل عليه حضور مجالس الذكر والاوراد ويجعل بدلها نوما او كلام لغو على باب المسجد وغير ذلك، ويحصل له قبض لما يقال له اسهر الليلة مع شيخك او وحدك، ولا يكاد يخف عليه شيء من ذلك، وربما دعاه شخص من ابناء الدنيا الى السهر معه في طبخ طعام عرس ونحوه فيسهر معه طول الليل ولا يجد في نفسه ثقلاً من ذلك، وان كلمه

انسان في ذلك يقيم لنفسه الحجج الواهية، ومثل هذا لا ينبغي للشيخ ان يقيم عليه ميزاناً بل يجعله كالأجانب ولا يقول في نفسه ان هذا كان مريداً لي فلا أتركه من المناقشة، فربما فجر على الشيخ وصار يقطع في عرضه في المجالس، كما وقع ذلك لبعضهم، فليتنبه الشيخ لزمانه ويلحق بلاحق اللاحق، فانه في النصف الثاني من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب.

وليكن على علم سيدي الشيخ انه ما خالف مريد شيخه وخرج من تحت تربيته إلا استحوذ عليه الشيطان وصار يركبه كما يركب الحمار ويصير هو الناطق فيه عنه، وربما كان الشيخ يجهل مثل ذلك فيصير يتعجب من قلة حيائه وقبح عبارته، ويعتقد ان ذلك من كلام مريده، والحال انه من كلام ابليس.

وقد وقع لي ان مريداً خرج من تحت تربيتي فغضب من نصحي مرة فكشفت رأسي وغالطته واستغفرت في حقه كما أفعل مع الأجانب الذين ليس بيني وبينهم صحبة، ورأيت ذلك أهون من مقاطعته وأقل إنما له وللاخوان فانهم ربما استغابوه ووقعوا في عرضه لما خرج من طريقهم وغيّر وبدّل. ثم الذي ينبغي للشيخ مسارقة مثل هذا بالنصح من طريقة بعيدة ومدحه في بعض الأوقات وقوله انك قد وحشتنا كثيراً ويأمر اخوانه بذلك، فربما خمدت ناره وحن الى اخوانه. ومن ترك مثل هذه السياسة كان كمن غضب في البرية على غنمه حين شردت عنه وراح الى البلد وتركها للذئب يفترسها والله أعلم.

ومن شأنه ان يكون سداه ولحمته مسامحته لاخوانه في كل شيء أذوه به من قول أو فعل أو سوء ظن، لا سيما اخوانه المقيمن في الزاوية من البطالين، فان ابليس ما له شغل إلا اشتغال مثل هؤلاء ببعضهم بعضاً، إذ ليس معهم نور يحرق ابليس، ولم تزل الأشياخ تبتلى باقامة جماعة من المخابيل عندهم فيصبر الشيخ عليهم ويحذر اخوانهم من سلوك طريقهم لئلا يتلفونهم بمشاهدة أحوالهم الناقصة.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: يجب على المريد البطال ان يفرح بتحذير شيخه الناس من مجالسته لئلا يلحقه إثم من تبعه في الكسل ومتى تكرر مثل ذلك فقد نقض عهد شيخه.

وكان سيدي احمد الزاهد يقول: ما صبر مريد على الكلام في عرضه واشتغل بالله ورضي بعلمه تعالى إلا جعله الله تعالى إماماً يقتدى به عن قرب، وما تعلق مريد من كلام قيل فيه إلا صار وراء الناس.

وكان سيدي محمد الغمري رحمه الله يقول: من أراد ان يكون إماماً يقتدى به فليخلص

النيّة في خدمة اخوانه، ويصبر على جفائهم له وكلامهم في عرضه، وحملهم له على المحامل السيئة في خدمته لهم وجميع أحواله.

وكان الإمام الحسن يقول: من أدب المريد أن يخدم إخوانه ثم يعتذر اليهم بأنه ما قام بواجب حقهم ثم يقر بالخيانة لهم على نفسه تطيباً لقلوبهم ولو علم انه بريء الباحة ما لم يترتب على ذلك حد وتعزير، وإلا دخل فيمن ظلم نفسه، وذلك حرام كما تقدم تقريره في الباب قبله.

وقد كان الإمام ابو بكر بن فورك رضي الله عنه يقول: ما سمي السندان بذلك إلا لصبره على دقه بالمطارق والله أعلم.

ومن شأنه ان يعامل اخوانه بالكرم والإيثار بحقوقه، فلا يكون له التفات الى الدنيا ولا مطالبة ناظر ولا جابٍ بمعلوم وظيفته إلا اذا كان مضطراً، وان وقع انه طالب الجابي او الناظر بعنف اعتذر الى اخوانه وقال اعذروني فاني كنت مضطراً فلا احد يتبعني في ذلك إلا أن يكون مثلي، خوفاً ان يتشبهوا به ويحتجوا بفعله فيصير عليه التبعة في ذلك.

وكان الإمام القشيري رحمه الله يقول: ظلمة الركون الى المعلوم تطفيء نور الوقت، فليحذر الفقير من دعواه عدم الركون أو أن مثل ذلك لا يضره، وليرجع الى قول شيخه في ذلك، فان نهاه عن الركون الى المعلوم وعدم المطالبة به فليسمع منه فانه أمير عليه وعلى ما يرقيه والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يصدق في اخوانه نماماً وان نقل اليه ان اخوانك يكرهونك وقال رأيتهم كلهم البارحة متحلقين يجرحونك ويذكرون نقائصك ونفسك الخبيثة، فليقل له: يا فلان انا من محبّة اخواني وودهم على يقين ومن كلامك على ظن ولا آترك يقيناً. فبذلك يتحرى النمام ولا يعود ينقل اليك شيئاً. وان قلت له أنا لا أصدقك حتى أجمع بينك وبينهم وأنظر هل يصدقونك فيما قلت عنهم أو يكذبونك، فانه لا يعود يأتي اليك بالنميمة عنهم أبداً كما جربنا ذلك. وما لإبليس سلاح يفسد به حال المريدين المقبلين على الله تعالى أقوى من أن يشغلهم ببعضهم بعضاً، لعلمه بأن عبدهم الرياء وطلب المقام عند الخلق، وانهم يقابلون كل من سعى في هدم مقامهم، ولو علم إبليس انهم أخلصوا لله تعالى كان أشغلهم بأمر آخر غير هذا، فليكن الفقراء على حذر منه مثل ذلك، والله أعلم.

ومن شأنه أن يقوم بخدمة اخوانه ويكون مقداماً لهم في الخدمة، فلا يرمي بنفسه إلى الكسل والخمول ويمتنع من مساعدة الفقراء في قضاء حوائجهم في الزاوية ويحتج بالذكر

والقرآن، بل ينظر أولاً في تحصيل أمور المعاش التي يورث قلبه الالتفات اليها، ثم بعد ذلك يذكر ويقرأ. وليتأمل من لا يخدم الفقراء لو انهم كلهم قالوا: شيء لا يلزمنا القيام به، كيف يصير كل واحد منهم يجري على اللقمة ويقدمها على سائر مهماته في الدين، فمن لم يخدم فلا أقل من شكر من يخدمه والاعتراف بفضله، فليسمع المريد للشيخ أو النقيب إذا قال له انقل الحطب، أو احمل قفة القمح الى الطاحون، أو إيت بها، أو احمل طبق الخبز الى الفرن، أو اجمع الوقيد للفرن، ونحو ذلك، فانه لا بد لأهل الزاوية ممن يقوم لهم بذلك، إما بأنفسهم وإما بغيرهم. فاعلمْ انه ينبغي للشيخ اخراج كل من أبى الخدمة لأنه يتلف بقية الجماعة ويفتح عليهم باب تعسير الوصول الى ارزاقهم، فان الله تعالى ليسهل على العبد طريق رزقه بحسب ما العبد عليه من خدمة الله تعالى وخدمة عباده.

ولا ينبغي لمن له مروءة من المجاورين أن يكون عيلة على غيره، أو يعيش في جماعة العجائز والأرامل والعميان الذين في الزاوية. وقد كسل عندي جماعة عن الخدمة لأنفسهم ولاخوانهم فعسر الله تعالى عليهم أسباب أرزاقهم. وكذلك وقع لجماعة من فقراء الزوايا فذهب من وقفهم نحو الثلث للظلمة، ففتشناهم فوجدنا ثلثهم ترك الاشتغال بالعلم والقرآن وصاروا طول نهارهم جالسين على حوانيت التجار والسوقة أو جالسين في الزاوية بطالين لا دنيا يحصلونها ولا آخرة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: ان الله تعالى ييسّر الرزق لمن خدمه خالصاً مخلصاً وخدم اخوانه كذلك. وسمعته يقول أيضاً: لا يسهل الله تعالى على أحد رزقه ويوسعه عليه أبداً ما عاش إلا إذا كان يتعطّف على اخوانه بكل ما زاد عن حاجته. وكذلك القوم لا ييسّر الله تعالى عليهم أرزاقهم ويوسعها عليهم إلا اذا تعاطف بعضهم على بعض بكل شيء زاد عن حاجتهم، وبالجملة فمن كان قائماً في مصالح الخلق كان الوجود كله يمده ويساعده، ومن اشتغل لمصالح نفسه فقط دون إخوانه تخلف الوجود عن مساعدته وربما صار يقاسي في تحصيل رزقه وجده أشد التعب، ومن شك فليجرب.

كما ان الشيخ اذا خصص نفسه عن الفقراء ولم يؤثرهم على نفسه بشيء، أو لم يشركهم فيما بيده من الطعام وغيره، يتوقف عليه رزقه كذلك، والمريد الصادق ينظر في صفات شيخه التي هو عليها ان طلب ان يكون مثله في سعة الرزق أو غيره. وقد حول الله تعالى عن جماعة من الفقراء الرزق لما شحوا على الفقراء بما يدخل في يدهم وتخصصوا به وصاروا يسألون الناس بالحال والقال، وكأن لسان حال جناب الحق تعالى يقول لملائكته انظروا في حال عبادي فكل من رأيتموه يؤثر الناس على نفسه بطعامه وثيابه وجميع ما يدخل يده فزيدوه من

الرزق، وكل من رأيتموه يصطاد على اسم الفقراء ثم يتخصص به فحولوا عنه الرزق. فليتنبه المريد لمثل ذلك ويؤثر إخوانه على نفسه بالخدمة لهم وادخال الراحة على نفوسهم وأبدانهم، وليسمع للشيخ فان مقصود الشيخ ان تصير جماعته كلهم مثله لكل واحد زاوية وفقراء وسماط والله تعالى أعلم.

ومن شأنه أن لا يكون مقداماً لاخوانه في التكاسل عن حضور صلاة الجماعة، أو مجلس العلم أو الأدب، فمن كان مقداماً لاخوانه في ذلك أساء الأدب معهم وكان عليه وزر كل من تبعه. وفي الحديث لا يزال قوم يتأخرون ـ يعني عن صلاة الجماعة ـ حتى يؤخرهم الله في النار. ومذهب الإمام أحمد رضي الله عنه ان صلاة الجماعة فرض في الصلوات الخمس، ولو أنه صلى وحده عصى الله عز وجل. ثم ان الذي ينبغي لكل من تخلف عن مجلس خير ان يهرت نفسه ويوبخها بحضرة اخوانه ويقول لهم احذروا ان تتبعوني في ذلك فاني أخطأت في تخلفي عن هذا الخير. وقد سبق الى مثل ذلك سفيان الثوري رضي الله عنه فكان يتهم نفسه ويقول لأصحابه احذروا أن تقتدوا بأفعالي فاني رجل قد خلطت في ديني. وينبغي له اذا تخلف عن أول المجلس وجاء في أثنائه ولو في الدعاء بعد الفراغ أن يحضر ولا يستحي أبداً، كالحكم فيمن أتى الجماعة وهم في التشهد الأخر يستحب له الاحرام ليحصل له جزء من فضل الجماعة أو أجزاء صغار، ولا ينبغي لفقير تخلف عن خير أن يقيم الحجج على اخوانه اذا لاموه على ذلك فانه مجادلة عن النفس بالباطل، بل الذي ينبغي له المبادرة الى الاستغفار وقوله جزاكم الله تعالى عني خيراً، وهذا دليل على شدة محبتكم لي وانكم أشفق على ديني مني، وذلك ليعودوا عليه بالنصح ثاني مرة، بخلاف من يجادل عن نفسه ويقول لهم أعرف انكم تكرهونني من قبل اليوم؛ فانهم لا يعودون الى نصحه خوفاً من شدة غضبه، والله تعالى أعلم.

ومن شأنه أن لا يكون مقداماً لاخوانه في الخروج من مجلس الذكر قبل الفراغ منه، لا سيما اذا احتبك المجلس في شدة الذكر فان ذلك يضعف قلوب الذاكرين، وليستعد للمجلس بقلة الأكل والشرب حتى لا يحتاج الى تجديد طهارة عن الحدث من حين يجلس الى حين يفرغ، لا سيما مجلس الذكر من بعد صلاة الجمعة الى العصر، فقد ورد: من صلى الجمعة وجلس لذكر الله تعالى إلى العصر كان كتاباً في عليين. وفي الحديث: المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

ومن شأن ضعفاء المريدين انهم يستهينون بالعبادة إذا لم يكثر الفاعلون لها ويشتد عزمهم لها اذا كثر العاملون لها، فلا ينبغي لعاقل ان يكون سبباً لضعف همة اخوانه عن الخير. وقد عددت مرة لبعض المجاورين نزول الميضاة والخروج لباب الزاوية عشر مرات من صلاة

الجمعة الى العصر فنزلت وراءه الميضاة فرأيته يدور الأخلية واحداً واحداً يتأمل فيها ويقف ساعة ثم يطلع الزاوية ،فعرفت ان ذلك ترويحاً لنفسه من حضرة الذكر ،ولو انه كان صادقاً لم يفارق المجلس لينظر مواضع القذر التي هي مجلس للشياطين، فالعاقل من تنبه لنفسه وأكرمها على الخير حتى تصير تحب الخير ولا تمل منه إلا في النادر.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: اياكم ان تخرجوا من حلقة الذكر اذا احتبك المجلس آخر الذكر لان ذلك يضعف همة الضعفاء. ولعل ذلك هو المعنى الذي حرم لاجله الانصراف من صف القتال الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة اخرى يقاتل معهم، والذاكر مقاتل في سبيل الله للشيطان بيقين، فليس له الانصراف أدباً من ناحية المجلس الى اخرى الا متحرفاً لقتال مكان او متحيزاً الى من فيه، يذكرون الله تعالى بقلوب ضعيفة فيقوي قلبهم على الذكر ويطرد عنهم ابليس بذكره، فانه اذا رأى قلب الذاكر غافلا افترسه وركب على قلبه فيستأصله ويهلكه. فاذا جاءه من يذكر بهمّة وعزم استخلصه من يد الشيطان كما يستخلص المقاتل الأسير من يد العدو. وقد اباح الله للمقاتل ان يقف في أي مكان كان من صف القتال وما حرم عليه إلا الانصراف والله أعلم.

ومن شأنه ان لا ينصرف من مجلس الذكر الذي يكون مع الشيخ ولو لحاجة ضرورية إلا بعد استئذانه الشيخ صريحاً او بالإشارة، لا سيما مفارقة من علت رتبته من اصحاب الشيخ فانه يتعين عليه المشاورة جزماً لئلا يقتدي به غيره فتضعف حلقة الذكر، لان المجالس انما جعلت ليقوي بعض الناس بعضاً، فاذا كسل واحد كان جاره نشيطاً، وكلما عظم الفقراء امر مجلس الذكر واعتنوا به كلما علت همة الفقراء وكلما استهانوا بحضوره كلما انحطت همة غيرهم، لاسيما الاكابر من جماعة الشيخ، فان احدهم اذا انصرف من المجلس قبل فراغه كان كأمير العسكر اذا خرج من القتال مكسوراً فإن غالب الجيش يتبعه. فليحرص اكابر المجلس على ان احدهم لا يقوم من المجلس حتى يفرغ لئلا يقتدي به الناس، فان ابليس لا يفارق هذه المجالس ابداً، فربما رأى الفقير مقبلاً على الله في ذكره وهو في جمعته معه فيقول له: قم فانظر السوق من على باب الزاوية او اذهب الى بيتك فانظر ماذا يصنعون وارجع، ومقصود ابليس بذلك ان يخرجه من تلك الجمعية والحضور مع الله تعالى وينقص أجره. فاذا وسوس بذلك لفقير فينبغي له ان يرد كيده في نحره ويقول: اخسأ لعنك الله اتريد ان تخرجني من حضرة الله تعالى الى حضرتك. فان لم يرتد عنه خاطر ابليس فليعرض ذلك على الشيخ ويستأذنه في ذلك فان اذن له في الخروج فذلك والا لزمه مخالفة ابليس، فان الله تعالى جعل الانبياء ونوابهم من الدعاة الى الله تعالى أمناء على الأمّة في كل ما يرقي درجاتهم، كما اشار اليه قوله تعالى: انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا

حتى يستأذنوه الآية . ومجالسة الاشياخ في الذكر وقراءة القرآن والعلم امر جامع بيقين، فلا ينبغي لاحد ان يفارقهم حتى يستأذنهم، ثم انهم اذا استأذنوا الشيخ بالمفارقة لحاجة لم ينبغ لهم ان يقوموا دفعة واحدة فيضعفوا قلب الباقين بل يقومون متراسلين واحدا بعد واحد مثلا . ثم اذا فرغ اهل المجلس من الذكر وأرادوا الجلوس فليرجعوا الى اماكنهم التي كانوا جالسين فيها قبل الزحف الى قلب الحلقة، ولا ينبغي لهم بعد الذكر ان يجلسوا في جانب الحلقة ويتركوا الجانب الآخر خالياً فيدخل الشيطان من ذلك الموضع، كما ورد ذلك في صفوف الصلاة، فان الشارع امرهم ان يتراصوا في الصفوف لئلا يدخل الشيطان بينهم فيوسوس لاحدهم في صلاته بما ليس له به حاجة . ومعلوم ان مجالس الذكر انما هي محاربة للشيطان، وكلما بعد العدو كان اقوى لنا من التحامه بنا .

قال الاشياخ : ولا ينبغي للمنشد ان ينشد بعد فراغ الذكر الا بعد استقرار نفوس الذاكرين وفراغهم من وارد الذكر، فلا ينبغي الانشاد على أثر الذكر؛ لان ذلك يفرق قلوب الجماعة . وكذلك لا ينبغي للمنشد ان يتخذ الانشاد عادة سواء احتاجوا اليه في التنشيط ام لم يحتاجوا اليه بل يجعل الانشاد خاصا بكل وقت رأى همتهم فاترة عند الذكر، وهذا من باب يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . وما دامت الهمة قوية فلا ينبغي له الانشاد لان قلوبهم مجموعة على حضرة الله تعالى والقاء بالهم لمعاني ما ينشده المنشد يفرقهم عن الله تعالى .

وكان سيدي مدين لا يدع المنشد ينشد الا بعد سكتة فيسكت الجماعة حتى يرى منهم الملل ساعة ثم يأمر المنشد فينشد، فاذا اجتمعت حواسهم ذكر بهم، فلا يزال كذلك حتى يفرغ المجلس، وربما رأى همة الفقراء قوية فيمنع المنشد من الانشاد جملة . ومن هنا قالوا ينبغي ان يكون المنشد هو الشيخ لانه أعرف بجمعية قلوبهم وتشتيتها، فان لم يتيسّر فرجل صالح له المام بمصطلح الفقراء ما سيأتي بسطه عند مبحث السماع في الخاتمة ان شاء الله تعالى . ثم اذا دعوا وانصرفوا من مجلس الذكر فلا ينبغي لاحدهم ان يتحدث مع اخيه بكلام مطلقاً إلا لضرورة شرعية لان الكلام اللغو بعد مجلس الذكر يطفىء النور الحاصل بالذكر . فلينصرف الفقراء كلهم ساكنين مطرقين الى خلاويهم او امكنتهم التي يجلسون فيها ويشرعون فيما اقامهم شيخهم فيه باذن الله تعالى من قراءة او ذكر او اشتغال بعلم وقضاء حاجة ونحو ذلك .

قال الاشياخ : وانما أوجبوا على المريد مواصلة الاذكار بعضها بعضاً لتتراكم انوارها على القلب وترحل عنه الظلمات الحاصلة بارتكاب الحرام والشبهات في القول والفعل . وقالوا : من لغا بعد المجلس فكأنه لم يذكر شيئاً وربما كان لغوه ساعة يرجع في الظلمة على

نور ذلك المجلس كله، فينبغي للشيخ او النقيب ان ينبه الفقراء على مثل ذلك ويقول لهم: يا فقراء قوموا مأجورين الى اورادكم ولا تخلطوا نور الذكر بظلمات اللغو؛ حتى ان ذلك يصير عادة الفقراء ولا يحتاجون الى تنبيه والله أعلم.

ومن شأنه ان يحب لاخوانه ما يحبه لنفسه ويقرب عليهم طريق الوصول الى مراتب الكمال كما يحب ذلك لنفسه وذلك بالاشتغال بالذكر على الدوام، فان الله تعالى قد جعل لكل مريد مناهل وعقبات لا يصل الى مقام الكمال إلا بقطعها كلها، فان شاء قطعها في جمعة، وان شاء في شهر، وان شاء في سنة، وان شاء في عدة سنين على قدر عزمه وهمته. ثم انه بعد الوصول يتنعم بأقدار الحق تعالى الجارية عليه بقية عمره، فأطول الناس نعيما من قطعها في جمعة وبعده من قطعها في شهر وبعده من قطعها في سنة وهكذا.

وقد أنشد سيدي الشيخ ابو النجا اللغوي المتأخر رحمه الله في قطع هذه الحجب من موشح:

أجلِ مرآتك ترى الحق اليقين * واخرج عن ذاتك لتفرح بآخرين * تنظر ما فاتك على طول السنين * يا عبد الحندوس * لفقدوا عبوس * تحمل للدبوس * وللمسكين تدوس * دخان المشعل * ودقات الطبول * وافعل لا تفعل * تحير فيها العقول * ما اسرع ما يعزل ومن بعد الوصول اينو قال محبوس * في قفصوا يدوس * إياك الناموس يطلع كالقادوس ملا واندق روس * الى آخر ما قال والله تعالى أعلم.

ومن شأنه ان يراعي مواطن غفلة اخوانه عن الذكر في الزاوية فيذكر الله تعالى وحده في وقت غفلتهم لتنزل الرحمة على اخوانه فيحسن اليهم بذلك ويُكتب له اجر عظيم ويشهد له يوم القيامة بذكر الله كل من سمع صوته من ناطق وصامت ولا يشهدون له الا ويقبل الله شهادتهم. وربما قام ذكر الواحد في وقت غفلة اخوانه في الاجر والثواب بعدد من غفل منهم، والله تعالى يحب من عباده من يحب ذكره ويراه قوتاً وشفاء له من كل داء.

واخبرني سيدي محمد السروي رحمه الله ان جماعة تراهنوا على انهم يجدون زاوية سيدي محمد الغمري في المحلة الكبرى ساكتة عن الذكر في ليل او نهار فلم يجدوها فكانت كالكعبة بالنسبة للطائفين، فهكذا كانت جماعته.

وأخبرني الشيخ شمس الدين الطنيخي احد اصحاب سيدي الشيخ ابي العباس الغمري ان ولد المجاور او عمه كان يأتي الى الزاوية فلا يتجرأ احد منهم ان يسلم عليه حتى يشاور النقيب، وكان احدهم اذا كلمه اخوه كلمة سب او تنقيص لا يرد عليه بل يحفظها - ان لم يصفح عنه - الى يوم يجلسون فيه ويأخذ مفتاحه تحت ركبته حتى لا يدخل عليهم غريب ثم يتحاكمون

بين يدي الشيخ فيأخذ للمظلوم حقه من الظالم. وكان الذي يسامح أخاه اكرم عند الشيخ من الذي يأخذ حقه، وكان يقول لهم لا ينبغي لفقير ان يمسك على أخيه كلمة جفاء في حال غضبه لان بعض العلماء لا يقول بصحة طلاق الغضبان لتزلزل عقله، وكان يقول كل من مسك على الناس كل كلام قالوه فيه كثر أعداؤه وانحطت همته الى سافلين.

وفي كلام سيدي احمد بن الرفاعي رحمه الله: من انتصر لنفسه واجاب عنها تلف وتعب، ومن سامح الناس وفوض امره لمولاه نصره من غير اهل ولا عشيرة والله أعلم.

ومن شأنه اذا كان مجاوراً في زاوية الشيخ ان يحمل النهرة والكلمة الجافية من كبراء الزاوية كالخطيب والإمام والنقيب والجابي ما داموا سالكين، لان الناقص يرى له الفضل على اخوانه بتربيتهم وتعليمهم الادب وخدمتهم، فلا ينهر احد الا وهو يرى نفسه عليه، فاذا كمل سلوكه صار يرى فضلهم عليه الذي كسبوه الاجر، ولذلك يمتثل امرهم اذا استقضوه في حوائجهم، لكن باذن الشيخ ان كانت الحوائج لهم، وان كانت للزاوية فلا يحتاج الى اذن من الشيخ خاص بل ذلك داخل في اذنه، للنقيب ان يستعمل في حوائج الزاوية من شاء من المقيمين. وقد تقدم انه يحرم على المجاورين التعصب بالباطل لحظ النفس على كل من اقامه الشيخ نقيباً او جابياً او خادماً، والطعن عليه بنحو قولهم هذا لا يصلح لهذه الوظيفة. ويجب عليهم التسليم له. فان الطعن فيمن اقامه الشيخ يؤدي الى ضرر شديد وتشويش القلوب بعضها من بعض ويوقف عليهم اسباب معاشهم، وربما خرجوا من كثرة الشكاوى للحكام والنكد من الزاوية وعملوا صناعاً ومحترفين او يسعوا على وظائف ضعفاء الفقهاء ومساكينهم، فلا يخلّوا في الحارة مسجداً ولا سبيلاً في يد احد إلا سعوا اليه فتمقتهم قلوب المؤمنين بعد ان كانوا يتبركون بهم لانهم اخرجوا قلوبهم من الخير وملأوها بحب الدنيا ومضايقة اهلها قبل ان يخربوا زاويتهم. وربما سكن ابليس عندهم في الزاوية وصار هو الشيخ لهم ان داوموا على الشرور والنزاع، فلا يزال يوسوس لهم في امر بعضهم بعضاً بسوء الظن ونقل الكلام والفتن حتى لا يخلي لهم وقتاً لعمل الدنيا والآخرة، وينقادون له اكثر مما كانوا ينقادون لشيخهم الإنسي، وذلك لان شيخهم الإنسي كان يدعوهم الى كل شيء يخالف هوى نفوسهم، وابليس يدعوهم الى كل ما تهواه نفوسهم ويحجبهم عن شهود قبيح افعالهم حتى لا يكاد احد منهم يتوب من زلة وقع فيها ولا يستغفر. وتقدم انه ليس لابليس مصيدة يصطاد بها فقراء الزاوية اعظم من التحريش بينهم واشتغالهم ببعضهم بعضاً فيقطعهم بذلك عن الاشتغال بالله عز وجل، ويصيرون كالشياطين لا يذكرون إلا النقائص ولا يطلعون الا على العورات، وتتجلى لهم صفاتهم القبيحة فيظنون انها صفات غيرهم والله تعالى أعلم.

ومن شأنه اذا كان فقيها ان لايعارض النقيب اذا استعمل احداً ممن يقرأ عليه في قضاء

حوائج الفقراء كالخبز والعجين، بل الواجب على المجاور خدمة نفسه واخوانه بنفسه او بأولاده الذين يقرؤون عليه، وكل من خالف في ذلك ومنع اولاده ان يخدموا احداً مع اكلهم من طعام الزاوية نسبوه الى غرض فاسد، ولاثوا به، وقذفوا عرضه، لا سيما ان كان الاولاد وجوههم نظيفة. هذا كله اذا استخدمهم النقيب بالاذن العام. فان صرّح شيخ الزاوية له باستخدامهم فليس للفقيه منعه من ذلك قطعاً. فليكن الفقيه الذي يقرىء اطفال الزاوية حاذقاً يلحق بلاحق اللاحق ولا يخلي احداً من اخوانه يظن به السوء ويرغب اولاده في قضاء الحاجة على ما جرت به العادة بالتناوب او بحسب ما يراه الشيخ، فانه ثم من لا ينفع في القراءة لتشتت ذهنه وينفع في الخدمة كما هو مشاهد في الزوايا، فيمكث الواحد العشرين سنة ولا يحفظ القرآن، فمثل هذا كما تبين لا يصلح ان يكون فقيهاً فيستخدم او يتعبد بالذكر والاوراد وإلاّ جرته البطالة الى الفواحش، فينبغي لفقهاء الزاوية كلهم ان يرغبوا اولادهم في قضاء الحاجة من غير ترجيح اولاده على اولاد غيره والله أعلم.

ومن شأنه ترغيب اخوانه المترددين الى الزاوية في ذكر الله تعالى مع الفقراء صباحاً ومساء، ولا يتخذوا جلوسهم في الزاوية للغو والغفلة وذكر تواريخ الناس، فان ابليس بالمرصاد لمثل هؤلاء فيحضرون على نية مجالسة الشيخ او غيره ويعصون الله في بيته. فليكن الفقير رحمة على اخوانه ويحب كثرة الاخوان في الذكر محبة في الله عز وجل لا حباً في المشيخة، كما يقع فيه بعضهم. ويتعين كثرة الحث على الحضور إذا كان الورد طويلاً، كسهر ليلة الجمعة أو العيد أو ليالي القدر، فربما مل بعضهم فينام ويسهر البقية. واذا كانوا جماعة قليلة فربما غلب عليهم النوم كلهم فبطل المجلس. وان نام أحدهم لحظة بين الظهر والعصر منعته في السهر الآتي، وقد كان ﷺ يقول استعينوا على قيام الليل بالقيلولة وبأكلة السحر على الصيام.

وكان سيدي عبد العزيز الديريني رحمه الله يقول: النوم قبل الظهر دواء للسهر الماضي، وبعد الظهر دواء للسهر المستقبل انتهى.

والمريد الصادق يعير على زاوية شيخه ان يختل نظامها في ورد أو وظيفة، بل كل شيء رآه معطلاً فعله لله تعالى كما مر بسطه في هذه الرسالة والله أعلم.

ومن شأنه ان يحذر اخوانه من سلوك مواطن التهم بحيث يصير احدهم اذا نسب اليه فسق من حرام او فاحشة يصدق الناس فيه ذلك، فللشيخ ان يؤنبه على سلوكه مسالك التهم ليسد الباب الذي أتاه من تصديق الناس في كشفه الفواحش، ولو انه كان حفظ ظاهره من الوقوع في اسباب قلة الدين ما قبل أحد فيه الزور والبهتان، بل كان الناس يكذبون من أضاف اليه شيئاً من النقائص ويقولون حاشا لله ان يقع فلان في مثل ذلك، فاعلم ان محل تأديب الشيخ له انما هو

على تساهله في عدم حفظ ظاهره لا على التهمة والله أعلم.

ومن شأنه أن يحث إخوانه على مجلس الذكر صباحاً ومساء برحمة ورفق إذا تعوق الشيخ عن الحضور، ولا يعلق ذلك بحضور الشيخ فإن الشيخ له أوراد أخر غير أوراد المريدين، وإن حضر معهم فإنما ذلك لما يراه من ضعف قلوبهم وهمتهم عن الخير لا غير. وتقدم أنه ليس للمريد أن يتشبه بالشيخ في أحواله إلا إن أمزه الشيخ بذلك، فليلزم المريد ورده الذي أقامه الشيخ فيه ولا يتخلف عن الذكر مع الجماعة إلا لضرورة يعذره بها الإخوان. وقد كان شخص من مريدي سيدي الشيخ مدين يذكر مع الجماعة، ثم ترك الذكر وصار يذكر وحده، فقال له الشيخ في ذلك فقال يا سيدي إن الاجتماع إنما جعل لمن همته ضعيفة وقلبه ميت، وأنا بحمد الله قلبي صار حياً لا أحتاج أن أتقوى بغيري، فأمر الشيخ بإخراجه من الزاوية، وقال: أن مثل هذا يتلف الجماعة فيصير كل فقير يقول أنا لا أحتاج إلى الاجتماع بغيري في الذكر فيذهب شعار الزاوية، فإن من شأن النفس الخيانة والدعاوى الكاذبة ففي الاجتماع امتثال أمر الشيخ وقيام الشعار والله أعلم.

ومن شأنه ان يرشد اخوانه ويعلمهم الآداب الشرعية والصوفية من غير ان يرى نفسه عليهم بذلك، فقد يكون احدهم اكثر اخلاصاً لله تعالى منه واحسن معاملة له، فلا يلزم من كونه اعلم من المريد ان يكون افضل منه عند الله تعالى، وهذا امر شذ عنه كثير من مشايخ هذا الزمان فيظن بنفسه انه افضل من مريديه عند الله من حيث كونه اعلم منهم، فلينتبه الشيخ المفضل لما ذكرناه والله تعالى اعلم.

ومن شأنه ان يدل اخوانه على دخول حضرة ربهم من اقرب الطرق التي يعرفها، ويرشد الى كل ما فيه توبيخ لنفوسهم اذا تخلفوا عن مجالس الخير، فلعل ذلك التوبيخ يجبر خلل ترك ذلك الخير. ولا ينبغي للفقير ان يسامح نفسه بترك التوبيخ والهرت لئلا تتبعه الكسالى على ذلك، كما لا ينبغي للمتخلف ان يعتذر بالاعذار التي لا يقبلها الشيخ والاخوان، فيغش نفسه، وليقدّر ان انساناً يعطيه الف دينار لو حضر مجلس الذكر مثلاً فإن رأى نفسه تفوت الألف وتعتذر بضرورة استغرقت الوقت فهو صادق في تخلفه ذلك اليوم عن الذكر، وان رآها حريصة على الحضور لأجل الف دينار ويقطع علائقها كلها التي تزاحمها وقت حضور ذلك المجلس فهو كاذب في تخلفه عن الخير بعذر، فإن قول سبحان الله لا إله إلا الله ارجح عند المؤمن من ملء الأرض ذهباً. قال تعالى: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير املاً). قال ابن عباس: الباقيات الصالحات هي قول العبد سبحات الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فشيء شهد الله تعالى بأنه خير للعبد لا يجوز له ترجيح ضده عليه، بل وربما كفر بذلك. وقد رأيت من اخواننا من يتعلل بثقل النوم عليه وقت صلاة الصبح الأولى،

فلا يكاد يحضر فيها ابداً، ثم إذا كان له حاجة في القلعة او عند شخص يخاف يفوته يستيقظ تلك الليلة من التسبيح، وذلك دليل على كذبه في دعواه غلبة النوم وقت الصبح، وإنما رأيت جماعة بمجرد ما يجلسون معي في مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ ينعس احدهم ويصير يتمايل يميناً وشمالاً، فأضع له في فمه قطعة حلاوة او أعد له في يده دراهم فيعتقد انها له فيستيقظ لوقته ويذهب عنه النوم، وذلك من أقوى الأدلة على ترجيح الدنيا على ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ. ومثل هذا يتخذ له شيخاً يلطف كثايفه حتى يقلب تلك الداعية التي للدنيا لجهة الأخرة، ويصير يستيقظ اذا ذكر الله تعالى، وينام اذا أعطي دراهم او حلوى، ويذوق طعم الإيمان الكامل والله تعالى أعلم.

ومن شأنه ان يكون مقداماً لإخوانه في كل عمل شاق من أعمال الدنيا والآخرة، كنقل الحطب والقمح الى سطوح الزاوية، وكسهر الليالي الكاملة. وذلك من ادعى انه أقدم هجرة عند الشيخ فهو أحق بذلك من الحادث القريب العهد بالمجاورة، فإن المجاورين كلهم ناظرون الى فعل كبراء الزاوية. ومن هنا قالوا: ينبغي للفقير ان يكون ابعد الناس عن الريبة ومواطن التهم وارتكاب الرذائل ليسمع له اخوانه اذا نصحهم، فلا يأمرهم بقيام الليل مثلاً ثم ينام هو، ولا يزهدهم في الدنيا وفي عدم جمعها ويرغب هو فيها ويجمعها، ويعامل بها الناس قراضاً وتجارة ونحوهما. ولسان حال الفقراء الذين يأمرهم بأمر ولا يفعله هو يقول له: انصح انت نفسك؛ ويقعون في عرضه. فليحذر كبراء الزاوية من مثل ذلك. وشيخهم أولى بكل ما ذكرناه، فينبغي له ان يساعد الفقراء في نقل القمح او الحطب او الحصاد او الدراس او الحرث ولو مرة او يوماً، فإن بذلك يحصل النشاط للفقراء، والله في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه. وقد بلغنا ان رسول الله ﷺ كان إذا خرج أصحابه لجمع الحطب يخرج معهم ويجمع له حزمة ويرجع بها إلى الدار، وكذا كان يفعل الإمام علي رضي الله عنه ويقول لا ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع الى عياله والله أعلم.

ومن شأنه ان يتظاهر بعداوة من عادى احداً من اخوانه بغير حق قياماً بواجب حقوقهم، فلا يجوز له عداوته بالباطن الا ان كان من اهل الكشف وكشف له عن شقاوته في الآخرة والعياذ بالله تعالى، وكذلك من حقوق اخوانه عدم مصافاة من وقع في فساد واخرج من الزاوية وعدم العزومة عليه بالأكل او الجلوس معه اذا دخل الزاوية لصلاة او غيرها خوفاً من تغيير قلوب الإخوان، فمراعاة خواطرهم اولى من مراعاة خاطر من ثبت فساده ورميه الفتن مثلاً. وهذا يقع فيه كثير ممن لم ينظر الى عواقب الأمور، فينبغي ان يتنبه الساذج لمثل ذلك. وكان الواجب عليه اظهار العداوة موافقة لاخوانه الصادقين في الزاوية، لكن مع ارشاد ذلك المفسد الى اظهار الندم وسياقه السياقات لاخوانه حتى يطيبوا عليه قياماً بواجب حقه القديم، فإن الانسان

يسأل يوم القيامة عن صحبة ساعة فلا ينبغي لأحد ان يطيب خاطره على ذلك المفسد حتى يطيب خاطر الجميع ولا يبقى منهم واحد.

ثم ما يقع فيه غالب فقراء الزاوية كثرة الوقوع في غيبة من اخرج بفساد، وذكرُ واقعته لكل داخل أو لكل من سأل ما سبب اخراجه، وذلك لا يجوز، وربما وقعوا في عرضه على سبيل الغيبة والتشفي منه، فيعودون افسق منه واسوأ حالاً، وربما ابتلوا عن قريب بما ابتلي هو به، فيفتضحون ويخرجون كذلك، فيجب الكف عن عرض كل من خرج من الزاوية وتركه، ولا يجوز اللوث به ليالي وجمعاً وشهوراً. وربما تاب الله تعالى عليه عقب الذنب فلا تجوز غيبته بحال ويصير ذلك من البهتان والزور عليه، فليحذر الفقراء من مثل ذلك. وربما رجع الفقير إلى الزاوية بوجه من الوجوه ويصير بعضهم يحكي له ما قالوه فيه فيشتد في عداوته على من وقع فيه حتى لا يكاد احدهم يسامح أخاه في الدنيا ولا في الآخرة، فتأملوا ذلك ايها الإخوان واعملوا بما اوضحته لكم والله أعلم.

ومن شأنه ان يرشد اخوانه الى ترك البغي على من بغى عليهم، ولا يأمرهم قط بمقابلة الباغي ويقول: مقابلة الفاسد من وجوه النظر، كما يقع فيه غالب المتهورين في دينهم. وفي الحديث الصحيح: أدّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك. وفي زبور داود عليه الصلاة والسلام: يا داود لا تبغ على من بغى عليك ان اردت اني انصرك، فمن بغى على من بغي عليه تخلفت عنه نصرتي. وفي الزبور ايضاً: لا تستبطىء الاجابة لدعائك في حق عدوك فإني إنما أبطيء إجابة دعائك لأعاملك بنظير ذلك اذا ظلمت انساناً ودعا عليك، فإن طلبت اجابة دعائك بسرعة فلا تستغرب سرعة اجابة دعاء عدوك عليك انتهى والله اعلم.

ومن شأنه ان لا يغفل عن خدمة من مرض من اخوانه في الزاوية لا سيما في الليل حين ينام الناس ويتركونه ولا أهل له ولا اصحاب يفتقدونه، فإنه يتعين عليه خدمته او حمله الى المارستان. وقد ورد ان العبد يسأل يوم القيامة عن حقوق جميع اخوانه واصحابه، ثم ان كان الفقير المريض ليس معه شيء ينفقه على المرض فينبغي لإخوانه ان ينفقوا عليه من مالهم، او يقترضوا له على ذمة الله عز وجل، وإذا حملوه الى المارستان فلا بد من توفية حقه في التردد اليه وتوصية الناظر والقيم عليه، ولا يزال يتردد اليه إلى ان يبرأ او يموت، والله في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه والله اعلم.

ومن شأنه ان يخدم عميان الزاوية والعجائز والايتام ويقود الأعمى الى مكان حاجته، ويفلي له ثيابه ولحيته من القمل اذا طلب منه ذلك، وكذلك يرفع للأعمى ثوبه فإن ذلك مما يقرب الى الله عز وجل لكون هؤلاء في كفالة الله عز وجل وهو وليهم. وكلما ادخل اقوياء

الزاوية السرور على العميان والأرامل والأيتام، كلما سهل الله تعالى عليهم اسباب رزقهم ووسعه عليهم، وحكم العكس بالعكس.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من اراد نزول الرحمة عليه فليخدم العميان والايتام، وكلما زاد العبد في الرحمة على العباد زاده الله درجات في الجنة.

وقد كان سيدي الشيخ عثمان الحطاب رضي الله عنه يخدم العميان والايتام ويغسل لهم ثيابهم ولحاهم، ويقودهم إلى مواضع حاجاتهم، ويطبخ لهم، وينقي لهم القمح، ويحمل لهم القفة من الطاحون ويقول هذا شرفي والله أعلم.

ومن شأنه ان يخدم الأشراف الذين جاوروا في الزاوية زيادة على خدمة غيرهم، وليحذر من مخاصمة احد منهم فإنها كالمخاصمة لجدهم ﷺ، وإذا بغى عليه احد من الأشراف يرى ذلك تشبيهاً بجريان المقادير من الله عز وجل فيتلقاه بالصبر والرضى. وكذلك من شأنه ان يأخذ بيد الظالم ويكفه عن ظلمه بالقول والفعل، وإلا فسدت فقراء الزاوية، وليس له ان يرى الفقراء يتضاربون بالعصي او يتشاتمون وهو ساكت، بل يردهم عن المخاصمة ما أمكن، لكن بحسن سياسة ولين قول. وكثيراً ما يُرى بعض الفقراء يتركون الدخول بين المتخاصمين زاعمين انهم اسوأ حالاً منهم، وذلك لا ينهض حجة في ترك الأخذ على يد الظالم، فيجب عليه كف الظالم ولو كان أسوأ حالاً منه. ووقع لبعض مشايخ الزوايا الساذجين ان اثنين من الفقراء تضاربوا بحضرته بالعصي حتى ادموا بعضهم بعضاً فقالوا له يا سيدي ألا تكفهُم عن بعضهم فقال النجاسة لا تطهر غيرها، وهذا من جملة السذاجة والشرع أولى بالاتباع والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يدخل على اخوانه غماً إذا أرسله الشيخ في حاجة الى شخص من الولاة او غيرهم ممن لا يعتقد في الشيخ فسب الشيخ، او لم يقض الحاجة، فمن الأدب ان يقلب ذلك الجواب الى ضده بسياسة ولا يدخل على الشيخ واخوانه غماً بحكاية الكلام الجافي في حق الشيخ بل يكون حسن السفارة، ولا يبلغ الشيخ عن اخوانه إلا خيراً. وقد يكون ذلك الشخص الذي يشفع فيه الشيخ عند الأمير لا يستحق الشفاعة فيه لكثرة قبح ذنبه، فيصبر الشيخ حتى تبلغ العقوبة حدها فيه. ثم الذي ينبغي له كلما لقي صاحب شيخه الذي نقل عنه انه اساء الأدب مع الشيخ ان يسلم عليه من عند الشيخ ويغالطه ولا يعاتبه على شيء مما كان وقع فيه في حق الشيخ، لا سيما من كان صاحباً بالاسم فقط من أكابر الحارة فإن مغالطتهم واجبة لئلا يصيروا اعداء للشيخ فيؤذونه ويؤذون جماعته.

وإذا وقع ان الشيخ ارسل النقيب إلى أحد من تجار الحارة يقترض منه ثمن قمح أو حطب أو نحو ذلك فلم يعطه شيئاً وأظهر المنع مثلاً فينبغي له ان يقلب الحديث للشيخ كما فعل مع

الولاة وليس له ان يبلغ الشيخ ذلك، والمحسن مخير ان شاء يحسن أو لا يحسن، لا تحجير عليه في ماله إلا بالشرع. والحسنة لم تنحصر في الشيخ ولا في جماعته، فليكن الشيخ وجماعته على حذر من العتب على أحد من التجار في هذا الزمان، فإنهم ربما كانوا أضيق معيشة من الشيخ لقلة المكاسب في هذا الزمان وعفة نفوسهم عن الشحاتة من بعضهم بعضاً، بخلاف الفقراء سداهم ولحمتهم سؤال بالحال أو بالقال إلا من شاء الله تعالى.

وبالجملة فكل فقير تشوش ممن لم يقرضه او لم يهبه او لم يتصدق عليه، فهو لم يشم من طريق الفقراء رائحة وهو مغتاظ على من لا ذنب له كالحسودي.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا ارسلت قاصدك في حاجة فلم تقض في ذلك الوقت فلا تتكدر من القاصد ولا من المسؤول فيها، فإنه ما ابطأ بها الا وقتها الذي ضربه الحق تعالى لها، فلا يمكن ان يكون في غيره والله اعلم.

ومن شأنه ان يراقب قلبه من جهة اخوانه، فمهما رأى عنده تغييراً وتشويشاً من احد من المسلمين فليرجع على نفسه باللوم، وليسع في ازالة ذلك من قلبه ويقيم العذر لأخيه فيما وقع فيه معه قياماً بواجب حق الأخوة، ويرى انه اخطأ في تشوشه من اخيه، ولو بلغ له مرتبة الصدق.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: لا تثق بود من لا يحبك الا معصوماً.

وكان الإمام احمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: عليكم بصحبة الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير، فعلم انه من احتقر اخاه بسبب زلة وقع فيها، فما وفى حق الأخوة، وأحق ما يحتاج إليك أخوك اذا عثرت دابته. وأجمعوا على انه لا يثبت للعبد قدم في طريق الفقراء حتى يتخلق بالرحمة على جميع العالم طائعة وعاصية كل بما يناسبه والله اعلم.

ومن شأنه ان يرشد من حضرته الوفاة من اخوانه الى الوصية وطلب براءة ذمته، ولا يستحي من ذلك، وليسهر عنده إلى الصباح كما مر تقريره قريباً، وربما يكون الأجل في ذلك الوقت فيفارقه على وفائه بحقه.

وقد استحيا أقوام من قولهم للمريض أوص فمات وحقوق الناس عليه، ووقع بين ورثته ما لا خير فيه، وذهب أكثر التركة للحكام، فإذا لقنه الشهادة فسمعه يقول: لا، فلا ينبغي له أن يسيء به الظن، فإنه إنما يقول لا من أجل الشياطين الذين يحضرون الأكابر ليفتنوهم عن دين الاسلام، كما وقع للامام احمد بن حنبل رضي الله عنه أنه كان يقول في حال طلوع روحه: لا، بعد، فقالوا له في ذلك فقال ان الشيطان ظهر لي وهو عاض على إصبعه ويقول: فتنني يا

أحمد، فكنت أقول له لا بعد، اي لا أيأس منك ومن فتنتك الا ان طلعت روحي على التوحيد. وليحذر الفقير من ذكر مريض بسوء فربما كانت منيته في ذلك المرض فيختم على عمله ويذهب إلى الآخرة من غير براءة ذمة خصمه، وهذا الأمر قلّ من يسلم منه، فليتنبه الفقير لمثل ذلك والله أعلم[1]. . . ان يكون سداه ولحمته الصفح والعفو عن زلل الإخوان ولا يعتدي على من اعتدى عليه، وان كان الحق تعالى قد أباح ذلك بشرط المثليّة، إذ المثليّة متعذرة فربما زاد ونقص، وربما أثرت فيه تلك السيئة أقل مما أثرت في خصمه، ونحو ذلك، فالمجازاة رخصة للضعفاء لقوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: اعف عمن ظلمك عملاً بأمر الشارع لك بذلك، ولا تقل قد أباح لي الشرع أن أقابله بمثل ما فعل، فكم من مباح تركه أفضل.

وكان يقول: اترك حقك لأخيك ما استطعت، وأقل عثرة اهل المروءات والهبات من اخوانك ما استطعت، وعليك بالنظر في محاسن الناس دون مساوئهم، فإنه ما من مسلم إلا وفيه خلق حسن ولو كان من أفسق الناس.

وكان يقول: إذا هجرت اخاك المسلم بشرطه فلا تزد في هجرتك له ثلاثة أيام بلياليها، وابدأ بالسلام بعد الثلاث لتكون خير الرجلين، وعليك بتحمل الأذى وتجرع مرارته من جميع الأنام، ففي الصحيح مرفوعاً: لا أحد أصبر على أذى من الله انتهى، ان رزقه وخيره فائض على من جعل له زوجة وولداً وكفر بأنبيائه وكتبه، فليتحمل الفقير الأذى تخلقاً باخلاق الله عز وجل.

ومما وقع لي وانا طائف بالبيت في سنة سبع وأربعين وتسعمائه انني نظرت في قلبي فلم اعرف دعاء واحداً مما ورد ان أقوله في الطواف، فسمعت قائلاً يقول لي من داخل الحجر: قل اللهم أفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمل به الأذى من جميع العباد، اللهم أفرغ علي من الأخلاق المحمدية ما أتلقى به جميع الأقدار الجارية علي بالرضى والتسليم، اللهم أفرغ علي من الأخلاق المحمدية ما أكون به هادياً مهدياً، اللهم أفرغ علي من الأخلاق المحمدية ما تصير به حركاتي وسكناتي كلها مرضية عندك، اللهم أفرغ عليّ من الاخلاق المحمدية ما أتجمل به بين يديك في الدنيا والآخرة، فكانت بعد ذلك هي أكثر دعائي بعد الدعاء الوارد والله أعلم.

ومن شأنه ان لا ينسى اخوانه من الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والعفو كلما وجد الوقت صافياً مع ربه عز وجل، سواء كان في ليل او نهار او سجود او غيره، ومن فوائد ذلك الوفاء

---

(١) نقص في الأصل.

بحقوقهم وليقول الملك الموكل بالدعاء ولك مثل ذلك، ودعاء الملك لا يرد.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: اذا وجد أحدكم الوقت رائقاً من الكدورات فليسأل الله تعالى المغفرة لجميع المسلمين من أهل عصره، وهذا من أعظم حقوق المسلمين، ولا يتنبه له كل الا بحكم التبعية لنا من مخصوصين. وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم ـ يعني الايمان الكامل ـ حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وفي القرآن العظيم: (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان). ويقاس عليه من تأخر عنا بالإيمان او ساوانا. ثم ان طلب المغفرة لهم يكون على نوعين: اما بأن الله تعالى يحول بينهم وبين الوقوع فيما لا ينبغي، واما ان لا يؤاخذهم اذا عصوا، وليس للمغفرة تعلق ثالث، ويكون العصابة الذين يدخلون النار من الموحدين مستثناة شرعاً لئلا يعترض معترض على تعميم الدعاء بالمغفرة انتهى والله أعلم.

ومن شأنه ان يعترف بالفضل لكل من أحسن اليه من اخوانه لا سيما من بدأه بهدية فإنه لا يقدر على مكافأة بدأته بها، ولهذا فضل ابو بكر الصديق رضي الله عنه على غيره من الصحابة بسبقه إلى الإسلام من غير توقف ولا روية، فليكن الفقير حاذقاً منصفاً فإن سبق بالهداية لا يرى فضله، وكذلك المكافىء لا يرى انه كان السابق. وليحذر الفقير من ان يأخذ ولا يكافىء، بل الذي ينبغي له ان يكافىء كل من احسن اليه ولا يتهاون في ذلك، كما عليه طائفة ممن تعودوا الأخذ من الناس بصدقاتهم وهداياهم، فإن الفقير الصادق يهرب من تحمل منن الناس ما أمكن.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: لا تقوم بجزاء من بدأك بالهدية أبداً، ولا تجزي من بدأك بقوله انا احبك، فلو احببته بعد ذلك ما عسى ان تحبه لا تبلغ درجة تقدم حبه إياك، اذ حبك انما هو نتيجة عن حبه اياك والله اعلم.

ومن شأنه اكرام كل وارد عليه من اخوانه فلا يأكل وحده شيئاً ابداً ما استطاع، وعليه بعدم التشويش ممن قال له انا أبغضك، بل ينبغي له التفتيش على الصفات التي بغضه لأجلها ويزيلها، ثم ينظر، فإن زال بعضه وإلا كرر التفتيش ثانياً وثالثاً. فاعلم انه لا ينبغي ان يؤذيه في نظير قوله ان يبغضه. وقد ورد ان امرأة قالت لرسول الله ﷺ اعوذ بالله منك، فقال لقد استعذت بعظيم، الحقي بأهلك فطلقها ولم يقربها اكراماً لكونها استجارت بالله. فاعلم ان كل فقير قال له اخوه أعوذ بالله منك من شرك ولم يكفه شره فهو قليل الأدب مع الله تعالى لا يرجى له فلاح، فإن من آذى من استعاذ بالله منه كان الله تعالى خصمه كما قال بعضهم والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يحدث اخاه بكذب لأن في ذلك استهانة بحقه، وفي المعاريض مندوحة عن ذلك اذا اضطر الى الكلام. وكذلك من حق الأخ ان يقوم له اخوه إذا ورد عليه ولو كره هو

ذلك، لا سيما ان كان الوارد من حملة القرآن أو العلم.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: ينبغي للفقير ان لا يساعد اخاه على ما فيه نقص لدينه كأن يعلم منه محبة القيام له في المحافل، اذ القيام حينئذ فيه مضرة على دينه ودين اخيه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: اياك ان تترك القيام لاخيك في المحافل فربما تولد من ذلك الحقد والضغائن فتعجز بعد ذلك في ازالته، وقد كان الناس اذا قام لهم احد في المحافل يتوشوشون وصاروا اذا لم يقم لهم احد يتكدرون ثم يصيرون يظهرون فيمن لم يقم لهم المعايب، فينبغي للفقير ان يدور مع اهل الزمان بطريقه الشرعي، والا حصل له تعب عظيم، وربما خرج من بلدته او من حارته من كثرة الأذى، وأصل ذلك كله قلة سياسته وقلة معرفته بطبائع زمانه. وقم يا أخي لاخيك وفاء بحقه لا لظنك انه يحب القيام له، فإن ذلك سوء ظن به.

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مروءته انتهى، فإن لك في تأدية حقه أجر من حيث حق الآدمي، وأجر من حيث امتثالك امر الله عز وجل بالأدب.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: اذا انتسب اخوك إلى أحد من الأكابر من اولياء أو امراء فاحذر ان تطعن في نسبه ولو في نفسك فتدخل بين ذلك الشخص وبين الله تعالى وبين صاحب الفراش، فتقع في إثم كبير، بل ورد ان الطعن في الأنساب كفر والله اعلم.

ومن شأنه ان لا يشح على أخيه اذا سأله المساعدة في التزويج ولو بقميصه وقبقابه الزايد، أو شيء من القمح، فإن الإعانة في ذلك من أفضل القربات، بل ذكر بعض المحققين ان الاعانة في النكاح أفضل من اعانة الغزاة والمكاتبين، إذ هو أفضل نوافل الخيرات، ومنه يتفرع من يجاهد ومن يفعل سائر الخيرات. والأجر يعظّم السبب، فلولا النكاح ما وجد مجاهد ولا عابد لله تعالى. وهذا امر يتهاون به غالب الفقراء، وبعضهم يقول: وإيش قام على الفقير بالتزويج في هذا الزمان! وينفره منه ليعتق نفسه من مساعدته، وما درج السلف الصالح على مثل ذلك والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يكفّر احداً من اهل القبلة بذنب، ولو لاث الناس به، لقلة ورع الناس اليوم في المنطقة وعسر معرفة الألفاظ التي يكفر بها الانسان دون غيرها. اذ التكفير أمرُّها. بل اقل ما فيه انه اخبار عن انسان بأنه خالد مخلد في النار لا تجري عليه أحكام الإسلام، لا في

حياته ولا بعد مماته. ثم ان مرجع ذلك الى العقيدة، ومعلوم ان الانسان يعجز عن تحرير معتقده في عبارة فضلاً عن معتقد غيره. وفي الحديث: من قال لاخيه يا كافر فقد باء بها احدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت وجعلت عليه، ومعنى ذلك ان المكفر هو الكافر لأنه كفّر مسلماً لاسلامه فافهم.

وينبغي للفقير ان لا يعود لسانه بالكلام المر لاخوانه فيكون من شرار الناس. وفي الحديث: شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه، فهذه شهادة من رسول الله ﷺ بأن الفاحش البذيء من شر الناس.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: احذروا سب احد من المسلمين فربما سب احدكم ابا انسان فسب الآخر اباه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: التورع في المنطقة اشد من التورع في اللقمة والثياب والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يحقر احداً من خلق الله عز وجل الا عند امر الله فإن الله تعالى ما احتقره حين خلقه وصوره، وكيف يعتني الحق تعالى بعبد ويخرجه من العدم إلى الوجود وتجيء انت تحقّره!! هذا من الجهل المحض. وما أمرك الله تعالى أن تحتقر أحداً من عباده، وانما امرك ان تنكر على أفعاله المخالفة لما شرعه لا غير، فتأمر العاصي وتنهاه وأنت غير محتقر له، فربما كان في علم الله انه أعلى منك مقاماً وأنت من الفاسقين ويصير يشفع فيك يوم القيامة. وتأمل قوله ﷺ في شجرة الثوم انها شجرة اكره ريحها، فما كره ذاتها وإنما كره ريحها. فاعلم ان عداوتنا للكفار والعصاة عداوة صفات، بدليل انهم إذا أسلموا وحسن حالهم حرم علينا كراهتهم والله تعالى أعلم. . .(1) ان يقدم حوائج اخوانه الضرورية على عباداته من سائر النوافل، لأن الخير المتعدي نفعه أفضل من القاصر على فاعله، لا سيما ان أمره شيخه بذلك، كما مر في الباب قبله. اللهم إلا ان ينهاه شيخه عن خدمتهم فليس له ذلك، لأنهم ربما كلفوا في مقام المجاهدة لنفوسهم. والخدمة لا تكون عادة إلا للسادات الذين فرغوا من علاج اخلاقهم، وصاروا لا يتغير منهم شعرة، لأنهم يشهدون ما قاله الناس فيهم دون ما يعلمونه هم من أنفسهم.

وقد قدمنا في الباب الأول انه ينبغي لمن يخدم اخوانه ان لا يري بذلك نفسه عليهم فيشقى في الدنيا والآخرة، اما في الدنيا فلكثرة تعب بدنه والخدمة، واما في الآخرة فلحرمانه

---

(1) نقص في الأصل

الثواب. وإنما الأدب ان يرى خدمته لهم من باب الواجب عليه وفاء ببعض حقوقهم. وقد جرب الأشياخ كلهم نفوسهم فوجدوا انه لا يستحق السيادة إلا من تواضع لله تعالى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي للمريد الانكار على الشيخ اذا نهاه عن خدمة مريض من اخوانه، فربما كان ذلك المرض عقوبة له، بل يجب عليه ان يعتقد ان الشيخ ارحم بذلك المريض منه، لكن إذا بلغت العقوبة حدها فهناك يأمره بخدمته.

وكان ابو سليمان الداراني وغيره يقولون: لا تصلح هذه الطريق الا لأقوام كنسوا بأرواحهم المزابل، انتهى والله أعلم.

ومن شأنه ان يبادر لخدمة بيوت الخلا احتساباً لوجه الله تعالى، ولو كان لها خادم بأجرة، فيزيل ما على الملاقي وحول الميضاة من القذر، وليكن ذلك اوقات غفلات الناس، كضحوة النهار أو في السحر بحيث لا يراه احد، فإن للنفس لذة وحلاوة اذا عرفت بالتواضع اعظم من لذة الكبر لاصحابه. وكانت هذه وظيفة الإمام الغزالي وسيدي علي الخواص والشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري رحمهم الله تعالى. وإذا رأى المطهرة ناقصة من الماء فينبغي له ان يكملها مساعدة للقيم، لأنه سنة السلف ان لا يتطهروا الا من ماء لا منة لاحد عليهم فيه، وإذا ملأ في الفسقية شيئاً صار كأنه ملأ ماء طهارته، وينبغي ان يسقط منته فيه عن المتوضين. وبالجملة فما خدم احد اخوانه إلا صار على وجهه نور وأنس، ولا تكبر عن ذلك احد إلا صار على وجهه ظلمة.

وقد كان سيدي علي الخواص اذا لبس مرقعته التي يكنس فيها المساجد وينظف فيها الأخلية كأنها جواهر تضيء. فالزم يا أخي خدمة الاخوان يرضَ عنك الرحمن وتدخل اعالي الجنان والله تعالى أعلم.

ومن شأنه ان يتخذ عنده الموسى والسكين والابرة والمقص والمخرز والخيط ونحو ذلك مما يحتاج اليه عادة، وذلك ليرفع كلفته عن اخوانه وينفعهم بعاريتها. وكذلك من ادبه ان يتخذ عنده المشط والخلال والسواك والقطيفة لمسح الاعضاء، والسجاد للصلاة عليها، فيفرشها حيث ادركته الصلاة في غير المسجد. وتقدم في الباب الاول ان السلف الصالح ما اتخذوا السجادات للضخامة، حاشاهم من ذلك، وانما هو لمصلحة الصلاة. وقد أجمعوا على انه لا يدخل الحضرة الإلهية من في قلبه مثقال ذرة من كبر. كما ورد في دخول الجنة. فان الحضيرتين كلاهما بين يدي الله عز وجل، ولو في صلاته وهما: عز النفس وشهود الغنى في نفسه عن فضل ربه غفلة لا حضوراً. فاعلمْ ان من تخلق بالذل والفقر لا يمنع من دخول حضرة الله تعالى في وقت من الأوقات.

ومن شأنه اذا وقع في سوء أدب في حق أخيه أن يبادر الى الاستغفار بكشف الرأس والوقوف عند النعال واضعاً يده اليسرى على اليمنى ليخالف هيئة الصلاة، مطرقاً برأسه الى الأرض، نادماً على ما وقع منه في حق أخيه مثلا، فان لم يقبل اخوه اعتذاره فمن الأدب ان لا يجلس بل يبقى قائماً الى ان يرحمه أخوه. ويجب عليه ان يرجع على نفسه باللوم ولا يجيب عنها ذرة واحدة، بل يعترف بانه ظالم على اخيه، فان طال به الوقوف حتى خرج متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك محقًا كان أو مبطلاً، فان لم يفعل لم يرد الحوض، رواه الترمذي وغيره.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: اذا جاء اخوكم معتذراً فاقبلوه لا سيما ان أطال الوقوف مستغفراً، فان لم يجد احدكم في قلبه رقة له فيرجع على نفسه باللوم ويقول لها: يأتيك أخوك مستغفراً في حقك فلا تقبليه، فكم وقعتِ انت في حقه ولم تلتفتي اليه فأنت اذاً اسوأ حالاً منه. ومراد القوم بذلك كله زوال الكدر لا غير، ومن رضي الكدر لقلبه فليس له في الطريق قدم، فان رأس مال الانسان هو قلبه والله أعلم.

ومن شأنه ان لا يكون عنده حسد لاخوانه اذا كثرت طاعاتهم وانقلب الناس الى اعتقاد فيهم، بل يفرح لهم كلما كثرت طاعاتهم، ويكون حريصا على وقوع الأدب منه في اخوانه، واذا عمل بأدب يجب ان يكون اخوانه كلهم كذلك يعملون به حتى لا يتميز عنهم بشيء. وما زاد القوم على غيرهم الا بمراعاتهم الأدب في كل شيء مع كل شيء، حتى انهم يوجهون أباريقهم كلها الى القبلة ويرون ذلك من الأدب. واذا كان الاناء لا وجه له كالكوز والزبدية جعلوا لها وجها بالنية ووضعوه للقبلة التي هو محل مناجاة الحق جل وعلا. وقد دخل جماعة زائرين على فقراء كانوا مشهورين بالخير فوجدوا اباريقهم لغير القبلة فردوا ولم يسلموا عليهم، وقالوا لو كان هؤلاء من أهل الأدب لوجهوا اباريقهم للقبلة. وسيأتي في الخاتمة في آدابهم في السفر أنه يستحب لاحدهم اذا سافر ان يشد وسطه ويقرب خطاه، فانه يذهب شدة التعب. وفي الحديث اذا احدكم سافر فليشد وسطه وليقارب بين خطاه. وانه يستحب لاحدهم إذا سافر ان يودع اخوانه بالعناق ان كانوا رجالا، وإلا ودعهم بالاشارة ان كانوا صغاراً، ثم يسلم عليهم ويمشي القهقرى غير مول وجهه عنهم حتى يتوارى عنهم بجدار أو يبعد عنهم جداً. ثم اذا رجع ووصل الى مقصده فلا يبادر الى الاغتسال من عياء السفر بل يصبر الى اليوم الثالث أو الرابع، وفي ذلك سر يذوقونه. واما في الظاهرة فهو ان المسافر يمسح من التعب فربما ضره الغسل وأورث عنده ضربان المفاصل بخلاف اعضاء الوضوء لكونها مكشوفة غالباً فلا يضرها ماء الوضوء والله اعلم.

ومن شأنه ان لا يرى نفسه على احد من جماعة شيخ آخر فانهم اخوانه في الطريق، لان

طريق اهل الله واحدة، ترجع الى واحد وان تعددت. وما اتخذ الناس لهم شيخاً الا ليهذب اخلاقهم ويزيل رعوناتهم حتى يصير احدهم يرى ان الناس كلهم ناجون وما هالك الا هو. فامتحنْ يا أخي نفسك بهذا الميزان، فان رأيت نفسك صارت كذلك فأنت صادق في ادعائك انك انتفعت بصحبة شيخك، والا فما حصلت على شيء. وهذا الامر قد كثر في فقراء هذا الزمان فيصحب احدهم الشيخ الى ان يموت ثم يصير مقراضاً في طوائف الفقراء لا يعجبه احد منهم، مع انه لا رآهم على كبيرة ولا اصرار على صغيرة. وهذا من اكبر المقت، نسأل الله العافية.

وترى احدهم يقول: ما بقيت عينانا ترى احداً مثل شيخنا، فيقال لهم ماذا انتفعتم به؟ فلا يجد شيئاً يقول. وكل جماعة يقولون شيخنا قفل بعده باب الله، فلا يكاد ينتفع باحد من اولياء عصره نسأل الله العافية.

ومن شأنه ان يرى محاسن اخوانه ويعمى عن مساوئهم جملة واحدة، فلا يتجسس لهم قط على عيب حتى يحققه.

وقد كان الشيخ أبو مدين الكمساني رضي الله عنه يقول: الفتوة هي رؤية محاسن الإخوان والغيبة عن مساوئهم.

وكان يقول: انصف اخوانك واقبل النصيحة ممن هو دونك تدرك شرف المنازل. وكان يقول: من احوج اخاه الى سؤاله عن حاجة من الحوائج التي يقدر عليها فما وفى بحق صحبته ولا اخوّته.

وكان يقول: من لم يتفقد عيال اخيه في غيبته بما يحتاجون اليه فقد خان الصحبة.

وكان يقول: من ميز بين ثيابه وثياب اخيه في الملك فما شم للصحبة رائحة، وانما صحبته نفاق.

وكان يقول: ليس بأخيك من احتجت الى استئذانه في اخذ شيء من كيسه.

وكان يقول: لا تكمل صحبتك الا بانشراح صدرك بكل ما اخذه الاخوان من مالك وثيابك وطعامك، ومتى وجدت انقباضاً لذلك فأنت منافق في صحبتك.

وكان يقول: من حق أخيك عليك أن تتحبّب إليه بكل ما يحب حتى لا يجد في نفسه حرجاً من جهتك في شيء يتصرف فيه من مالك ومن وجد ضيقاً في صدره وحزازة إذا أخذ شيئاً من مالك فما قمت له بواجب حقه عليك، فان الحزازة التي يجدها أخوك حين يأخذ مالك

مثلاً، انما هي لبقية بقيت عليك من البخل، فاعمل يا أخي على الاحسان الى اخوانك حسب طاقتك ليكون موتك عندهم أشد عليهم من موت أبيهم الشفيق، والحمد لله رب العالمين.

وقد كان رجل يحول الف نفس فلما مات سمعوا صرير نعشه على أعناق الرجال، فأنشد شخص:

وليس صرير النعش ما يسمعونه ولكنها أصلاب قوم تقصّف
وليس عبير المسك ما تنشقونه ولكنه ذاك الثناء المخلف

ومن شأنه أن لا يحب العلو على أحد من اخوانه في أمر من أمور الدنيا، فقد اجمع الأشياخ على ان حب العلو على الناس من أقوى أسباب الانتكاس. هب ان العاصي من اخوانك ناقص المقام، فأنت أنقص منه، لأنك ترى نفسك عليه، لا سيما ان كان بسبب تنقيصك له أصابك فيه الكبر عليه، فانك اذا تأملت وجدت نفسك في التكبر أعظم منه فلُم نفسك أولاً قبل غيرك.

وقد كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وكان يقول: من أحب العلو على اخوانه، فقد فتح باب الظلم من ولاة زمانه، ومن رأى نفسه على مشايخ عصره فقد فتح باب ظهور الدجاجلة الفتانين في الدين. فان الدجل هو التمويه بالباطل في صورة حق، كما يدعي الدجال الأكبر انه يحيي ويميت، ويفعل الأمور التي لا تليق إلا بالحق جل وعلا، من باب الاستدراج والمكر به والله تعالى اعلم هو الفاعل في كل ذلك. فاعلمْ ان من ينصح اخوانه لا يخرج من الاثم إلا ان رأى نفسه دون المنصوح، فينصح أخاه في حال رؤية ان أخاه أحسن حالاً منه، فإياك يا أخي والدعاوى الكاذبة ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه ان لايغفل عن نصح نفسه واخوانه، فلا يطمع في ما في يد الخلق، ولا يصحب مبتدعاً، ولا امرأة، ولا يرى في شيخه نقصاً، ولا يغفل عن ذكر ربه، ولا عن شكره، ولا يتخلف عن مجالس الذكر ولا عن خدمة الصالحين واحترامهم، فان فعل ابتلاه الله بالمقت بين العباد.

وقد قالوا: الطمع في الخلق شك في ايهام للخالق.

وقالوا: احذر من صحبة المبتدع ابقاء على دينك، ومن صحبة النساء ابقاء على قلبك.

وقالوا: من ظهر له في شيخه نقص عدم النفع به.

وقالوا: من غفل عن ذكر ربه فقد حكم الشيطان على نفسه.

وقالوا: من جالس الذاكرين انتبه من غفلته، ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته.

وهذه الأمور لا يستهين بها إلا جاهل تسرقه الطباع، فعليك يا أخي بالعمل بها والله يتولى هداك.

ومن شأنه التواضع لكل من رفعه الله تعالى عليه في علم أو عمل أو جاه ونحو ذلك، أدباً مع الله تعالى الذي رفعه عليه، فان الفقير الصادق داير مع رضى الحق تعالى لا مع حظوظ نفسه.

وقد حكى لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمه الله ان شريفاً جلس عند سيدي ياقوت العرشي فصار الناس يقبلون يد ياقوت ورجله ولا يلتفتون الى الشريف، فأخذ في نفسه من ذلك ما يأخذ البشر، فقال له سيدي ياقوت في أذنه سراً: يا سيدي انما عظموني لأنني تبعت جدودك في أخلاقهم، فأنا تبعت جدودك، وأنت تبعت جدودي، يعني في الجهل، فلذلك عظموني دونك، انتهى.

ومن شأنه أن يحث اخوانه على مراعاة الله تعالى بقلوبهم، ولا يكتفي أحدهم بشكر الناس له على ما يظهره من أعماله، مع انه يجاهر ربه بالمعاصي فيما بينه وبين ربه، فان ذلك من علامات المقت. وما قنع أحد بشكر الناس إلا كشف الله تعالى عورته وفضحه ولو على طول عقوبة له.

وقد كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول: الحق تعالى مطّلع على السرائر والظواهر والضمائر، في كل نفس وحال، فأيما قلب رآه موثراً له، مراقباً له، حبياً من رؤيته اليه حفظه من الطوارق والعوائق والمحن ومضلات الفتن.

وكان يقول: من لم يرقب نظر الله تعالى اليه، نظر أحوال نفسه بعين الدعوى، وأفعاله بعين الرياء، وأقواله بعين الافتراء.

وكان يقول: عمرك كله نفَس واحد، فاحرص ان يكون لك لا عليك، وليس للقلب إلا وجهة واحدة، فمتى توجه اليها حجب عن غيرها.

وكان يقول: إياك أن تراقب غير الله وتميل اليه إلا باذنه، فمن فعل ذلك سلبه الله مناجاته.

وكان يقول: أضر الأشياء على العبد مخالطة من لا يرى حب ربه في أفعاله وأقواله

وعقائده. وفي رواية أخرى: من أضر الأشياء على المريد صحبة عالم غافل عن مراعاة ربه بقلبه، ومتصرف جاهل بأحكام الشريعة، وواعظ يداهن الناس ويرخص لهم طلباً لميلهم اليه والله أعلم.

ومن شأنه أن يحذر اخوانه من الوقوع في الدعاوى التي لا يكون على ظاهرهم منها دليل، بل ولو كان على ظاهرهم دليل يحذرهم من الدعوى أيضاً، ويأمرهم بستر المقام حتى يتولى الله تعالى اظهارهم بغير مراد منهم، وقد هلك في هذا الأمر خلق كثير.

وقد قال الأشياخ: كل من رأيتموه يدعي مع الله تعالى ما لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذروه، وكل من خرج الى الخلق قبل وجود الاذن الإلهي الخاص فهو مفتون وهو مسخرة للناس، وما خرج الأولياء الى الخلق إلا بعد أن هُددوا بالسلب ان لم يفعلوا.

قلت: وقد جاء شخص يطلب مني أن ألقنه كلمة التوحيد فرأيته يحب الرئاسة، ومعلوم ان التلقين من غير مجاهدة على مصطلح الناس اليوم يزيده رعونة، فلم أجبه الى ذلك، فاجتمع بعدي بعدة مشايخ ونكث عهدهم، وصار كل من نصحه يفارقه ويصير يحط عليه، وادعى ان جماعة من أشياخ الطريق الذين ماتوا أتوه في النوم وقالوا له ابرز الى الناس، ولعله ابليس، فجمع له بعض جماعة من العوام وصار يقول لهم أنا اليوم أكبر الأولياء وأوسعهم دائرة، والأقطاب كلهم من تحت أمري، فصار الناس يسخرون به وبالفقراء الموجودين في عصره، فحكمه حكم خلبوص المغاني، اذا خرج في بابه قاضٍ أو أمير فيضحك الناس عليه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولا يخفى ان الكرامات فرع المعجزات، وان لم تكن كرامة الانسان مصدقة لدعواه فهو كذاب، كما درج عليه السلف الصالح والله أعلم.

ومن شأنه أن يحث اخوانه على دوام الحمية في الأبدان والقلوب والنفوس، وذلك بترك المخالفات وعدم الركون الى الاغيار وترك الدعوى، فان من وقع في واحدة من هذه الخصال ولم يحتمِ عنها فهو معدود من رعاع الناس وأراذلهم، فكما ان قلوب من يحتمي تكون معمورة بذكر الله، كذلك يكون قلب من لا يحتمي محلاً للغفلة والوسواس.

وقد كان الشيخ أبو مدين يقول: لا ينفع مع الوقوع في المخالفات عمل، كما انه لا ينفع المريض ما يصفه له الحكيم من غير حمية، وكما انه لا يضر مع التواضع بطالة، كذلك لا ينفع مع الكبر عمل، انتهى والله أعلم.

ومن شأنه ان يحذر اخوانه من ان يطلبوا بعباداتهم مقاماً أو حالاً، فان من طلب لنفسه حالاً أو مقاماً، فهو بعيد عن طرقات المعارف. وكذلك ينبغي له أن يحثهم على عمارة اوقاتهم

بالموافقات، ويسألهم ان يحثوه كذلك. وقد أجمع اهل الطريق على ان كل من طلب بأعماله مقاما سقط من عين رعاية الله عز وجل. وقالوا: من لم يستغن بالله تعالى على نفسه صرعته. وقالوا: من طلب الظهور بنفسه خرب قلبه وتعسر عليه الوصول الى شيء من أحوال الصادقين، فهو يدعي الصلاح والحق تعالى يكذبه وملائكته واولياؤه، ثم يحشر يوم القيامة في جملة المنافقين.

ومن شأنه أن يحث اخوانه على العمل على تحصيل مشاهدة الحق تعالى في حال عملهم. فان الأخ الصادق ربما يقوم في بعض الأوقات مقام الشيخ. وقد طالت الطريق على غالب الناس من غفلتهم عما قلناه، فحجبوا بالأعمال عن المعمول له، ولو أنهم كانوا لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به عن رؤية الأعمال، شتان بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور.

وقد كان الشيخ ابو العباس المرسي يقول: من لم يقم بآداب أهل البدايات، فكيف يستقيم له مقامات اهل النهايات.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل عمل لا يحضر فيه العبد مع ربه فهو كالميتة، وهو بالنفاق أشبه، وذلك لأنه يوهم الناس انه حاضر مع الله تعالى حال مناجاته، والحال انه مع الخلق، وهو نفاق «ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار» وانما كانوا كذلك للعبهم بالأديان. ومن هنا أباح الشرع نكاح الكتابيات للمسلم وحرم نكاح من لا كتاب لها فافهم انته.

وسمعته ايضاً يقول: انما أشغلهم برؤية أعمالهم لانهم لم يصلحوا لمعرفته والله أعلم.

ومن شأنه ان يحذر اخوانه من كل شيء يؤذيهم ويوقفهم عن السير، وقد قالوا: من ضيع حقوق اخوانه ابتلاه الله تعالى بتضييع حقوقه.

وكان الشيخ افضل الدين لا يكاد يترك نصح اخوانه في شيء ويقول: من غش اخوانه فهو دليل على غشه لنفسه. ورأى مرة شخصاً يرد ما يعطيه له الناس فقال: يا أخي ترك الدنيا للدنيا شر من اخذها ففتش نفسك فربما اتاك اخوك فرددته خوفاً ان يسقط مقامك وجاهك من قلبه لا لله تعالى.

وسمعته مرة أخرى يقول: إياكم ان تفتحوا على انفسكم باب تقدير مقامات الطريق لاخوانكم، فتُقطعوا بذلك عن السير، فان ذلك إنما هو من وظيفة الاشياخ انتهى والله أعلم.

وكذلك ان يحذر اخوانه من مجالسة اهل البدع فانها مجربة لاماتة القلب. وقد كان

السلف الصالح كلهم يقولون: من كان فيه ادنى بدعة فاحذروا من مجالسته، فمن تساهل في ذلك عاد عليه شؤمها ولو بعد حين.

وقد كان الشيخ ابو مدين رضي الله عنه يقول: بلغنا عن مالك رضي الله عنه انه كان يقول من اكتفى بالتعبد دون الفقه خرج وابتدع، ومن اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته تزندق وانقطع، ومن اكتفى بالفقه دون العمل به اغتر وانخدع، ومن عمل بما علم تخلص وارتفع، ومن لم يأخذ الأدب من المتأدبين افسد من تبع والله أعلم.

خاتمة

في ذكر جملة من آداب القوم وشروطهم العامة في كل احد من مريد وشيخ

اعلم رحمك الله ان دائرة طريق القوم تبتدىء من بعد انتهاء دائرة غيرهم، لأن كل أدب في الشريعة في باطنه أدب آخر يسميه أهل الله تعالى الاعتبار، أي يعبر من ظاهر الفعل الى باطنه، فيكون صورة الفعل واحدة والقصد يختلف، كمن يريد بعبادته الاجر في الآخرة، ومن يريد بها القيام بواجب حق الربوبية، وانه لا يستحق على ربه بخدمته شيئاً حتى يطلبه منه. فصورة قاصد الثواب كصورة من لا يطلبه على حد سواء. ونظير ذلك أيضاً من يغسل أعضاءه من الحدث الظاهر او النجس ومن يغسلها بالتوبة من سائر المعاصي حال غسلها، فنية الأول مقصورة على رفع الحدث والنجس الظاهر، ويزيد عليه الثاني رفع النجس الباطن من استعمالها ـ أي الأعضاء ـ في غير ما شرع لها، لا سيما القلب الذي هو أمير البدن كله، فانه اذا فسد أفسد الجسد كله، فلا بد من غسله من سائر المعاصي، كالكبر والعجب والنفاق والرياء والحسد والحقد واحتقار الناس وغير ذلك. ويجمع الأفات كلها محبة الدنيا، كما اشار اليه قول عيسى عليه الصلاة والسلام: حب الدنيا رأس كل خطية. فلم يخرج عنها خطية واحدة. ولعل من قصر بصره على الحدث الظاهر لا يخطر في باله التوبة من حب الدنيا ابداً.

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول لاصحابه: اجلسوا بنا نتوب من الذنب الذي لا يهتدي اليه الناس، وهو حب الدنيا، من مال وطعام وكلام ومنام، فان هذه الاربعة هي محبة الدنيا انتهى.

واعلم يا أخي ان كل من دخل الطريق بحق وصدق علم أن في القوم مجتهدين في الطريق الظاهر. فكما ان المجتهدين في الشريعة استنبطوا منها آداباً واحكاماً وشروطاً وواجبات ومحرمات ومكروهات، فكذلك المجتهدون في طريق القوم، فاياك والانكار عليهم الا بعد دخول طريقهم. وهناك لا تنكر عليهم الا ما خالف جميعهم او جمهورهم. اذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: من آدابهم ان يجتمعوا في الاكل على السفرة، ولا يأكلون فرادى الا

لعذر شرعي، ولهم ان يشتركوا في الخبز دون الادام وعكسه.

قال سيدي يوسف العجمي رضي الله عنه: وكان السلف الصالح يجتمعون في الخبز والمرقة جميعاً ويأكلون على وجه الايثار، فلما غلب على بعض الفقراء الحرص والشره قسموا الطعام دفعاً للظلم. وليحذر فقراء الزاوية ان يتخلق احد منهم بكبر فلا يجلس على سماط الفقراء ويطلب الاكل وحده في الخلوة، فان ذلك علامة على عدم فلاحه في الطريق، وهو بداية خروجه من يد التربية. ويقع ذلك كثيراً لمن صاحب ابناء الدنيا واظهر لهم الضخامة فهو يستحي منهم ان يروه وهو جالس مع العميان والمساكين، يأكل على سماطهم، ولو ان تخلفه عن الاكل معهم كان تورعاً من اكل الصدقات مثلا، لما كان يأكل من خبز الزاوية اذا خلا وحده، فتأمل والله أعلم.

ومن آدابهم ان لا يعض احدهم اللقمة واللحمة والقلقاسة فيجدها حارة مثلا فيردها الى الوعاء، لان ذلك تعافه النفوس. وكذلك لا ينبغي له ان يتناول لقمة كبيرة ثم يقطعها بفمه ويرد باقيها للقصعة. وكذلك من الادب ان لا ينظر الى جليسه في الأكل، لان ذلك ربما اخجله، واذا وضع الخادم السماط واراد انهم يأكلون قال بأعلى صوته: الصلاة الصلاة. ولهم في ذلك حديث يستندون اليه وهو قوله ﷺ واماطتك الاذى عن الطريق صلاة واعانتك اخاك على دابته ليركبها صلاة، الى ان قال وكل معروف صلاة. والاكل من المعروف، لانه في الاصل اما واجب او مندوب فافهم.

قالوا: وان كان الشيخ حاضراً فينبغي ان يقول الصلاة لانه صاحب الاذن حقيقة، والنقيب انما هو نائبه في ذلك. ومن آدابهم قلة التحدث على الاكل، وقلة الضحك والمزح، فانهم حقيقة على مائدة الله عز وجل، وهو ناظر اليهم والى آدابهم وايثارهم لبعضهم وشكرهم له.

قالوا: ولا بأس بالحكايات اللطاف في الامور المتعلقة بآداب الأكل مما فيه ترغيب في قلة الأكل او النهي عن الاكثار منه ونحو ذلك.

وقد سمعت الشيخ ابا بكر الحديري يحكي عن الاكل للشيخ محمد المنير محمد بن عنان وللشيخ عبد الحليم محمد العدل وللشيخ محمد بن داود، ان طفيلياً حضرته الوفاة فقال له ولده يا أبت اوصني وصية اذكرك بها، فقال يا ولدي اذا جئت الى سماط ولم يفسحوا لك فاجلس وراء احد منهم وخربش في ظهره فاذا التفت اليك قل له أضيق عليكم؟ فيخجل ويقول لا، ويفسح لك حياء منك، فاذا فسح لك فادخل وزاحمه فانه يتأخر عنك فتملك انت السماط، فضحك المشايخ كلهم رضي الله عنهم.

ومن آدابهم كذلك اذا جلس احدهم على مكان السماط ان لا ينتقل عنه الى مكان آخر الا لمصلحة بعد مشاورة الشيخ او الخادم، ولا ينبغي للخادم ان يخص احداً بطعام اذا كان الطعام متنوعاً، فان في ذلك تفرقة لقلوب الضعفاء من الفقراء، وان احتاج احدهم الى شرب الماء في وسط الاكل فلا بأس، ولكن يأخذ عروة الكوز مثلاً الخنصر والبنصر او يأمر احداً يسقيه بيده النظيفة، ولا يأخذ الكوز ابداً بالاصابع التي يأكل بها الطعام، لا سيما الزفر كالسمك او البصل او الثوم.

قال الشيخ نجم الدين البكري: واذا شرب فليشرب ووجهه الى القوم ولا يصرف وجهه عنهم كما يفعله العوام بقصد الاحترام، واذا كانٍ هناك احد يجهل هذا الادب فليعلمه به قبل ان يشرب ليحفظه من الانكار عليه بالجهل.

قال: وكذلك لا ينبغي له ان يؤثر احداً ظاهراً ولا من هو فوقه في الدرجة من شيخ أو امير أو عالم، وانما يؤثر على من هو دونه في العادة الظاهرة للناس، والا فمعلوم انه لا يجوز له ان يرى نفسه على احد الا على وجه الشكر، والا فقد يكون من يراه الناس دونه اعظم من الحاضرين كلهم عند الله تعالى.

قالوا: ولا ينبغي له ان يواجه احداً بالايثار بل ينحي له الطعام قليلاً قليلاً، فان كان اخوه محتاجاً اليه مد يده اليه وجرّه الى عنده والا تركه. ولا ينبغي ان يقول احدهما للاخر: خذ انت هذا الورك فيقول الآخر ما يأخذه الا انت، فتصير عيطة وخبطة ويجعلوا لذلك الورك قدراً عظيماً.

وكان أخي افضل الدين رحمه الله اذا أُلح عليه في اكل شيء يمتنع من اكله ويقول ان إلحاحه علي دليل على شدة بخله، وطعام البخيل داء كما ورد في الحديث.

قال الشيخ نجم الدين البكري رحمه الله: واذا قال الخادم أو الشيخ «الصلاة» اول الاكل وهناك فقير لا يريد الاكل فمن الادب جلوسه معهم على السفرة موافقة لهم، ولو لم يأكل، كما قالوا فيمن دعي للوليمة ان يحضر ثم ان شاء اكل وان شاء ترك. قال: واذا قال الشيخ او الخادم للفقراء آخر الأكل اشكروا الله تعالى فمن الأدب المبادرة الى القيام.

قالوا: ولا ينبغي لأحد ممن قام ان يقرأ القرآن او يؤذن او يصلي حتى يفرغ الفقراء من غسل ايديهم الا لضرورة شرعية، لضيق الوقت، او خوفاً من انقطاعهم عن الرفقة اذا كانوا مسافرين.

واذا فرغ احدهم من غسل يده فليدع لمن يصب عليك بنحو طهرك الله من الذنوب،

وليحذر الذي يصب على الفقراء من وقوع الصابون في الغسالة التي في الطشت او البالوعة، فان وقع منه فليصب عليه ماء طيباً ثم يستعمله. واختلفوا في اخذ الصابون او الاشنان من صاحب الدستور هل يأخذ منه باليمنى او باليسرى، ولكل واحد وجه. وكذلك اختلفوا في كنس الحصر او البسط بعد الطعام، فمنهم من قال يكنس باليسرى ويجعل اليمنى لدفع الفتات الذي على الارض، ومنهم من قال يكنس باليمنى لجريان العادة بذلك، فانه طعام يستحب اكله كما ورد. ومن شأنهم ان لا يقول احدهم لي او ثوبي او نعلي الا مع الحضور، ان ذلك من نعم الله تعالى عليه، دون ان يقول ذلك مع الغفلة وادعاء الملك، وانه ينبغي لاحدهم ان يقول اين الثوب اين النعل ونحو ذلك، والسر في ذلك ان من شرط القوم ان لا يروا لهم ملكاً لشيء يتخصصون به عن اخوانهم، بل كل من احتاج الى شيء مما في يد غيره عادة اخذه منه بطيبة نفس، وهناك تنزل عليهم الرحمة ان شاء الله تعالى.

ومن آدابهم مع الله تعالى، وقليل فاعله، ان يتعرضوا لنفحات الحق تعالى الواقعة في الليل والنهار فان له تعالى نظرات الى قلوب عباده في كل يوم وليلة، فيمنحهم تعالى فيها من لطائفه ومعارفه واسراره ما يشاء بقدر استعدادهم، فاذا فارقك شخص ساعة واحدة، او أعرض عنك نفساً واحداً وأنت جالس معه، ثم عاد عليك وجب عليك التهيوء للقائه بالحرمة والتعظيم احساناً للظن به، لان الله تعالى نفحه نفحة او نظر اليه نظرة من تلك النظرات فصار بها اعلى مقاما منك. ثم ان كان ذلك الامر صحيحاً فقد وفيت معه الادب، وان لم يكن كذلك فقد تأدبت مع الله تعالى حيث عاملته بما تقتضيه المرتبة الإلهية من الكرم على كل وارد على حضرتها.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه: وهذا الامر قل من يتفقد نفسه فيه من الفقراء، وذلك لاستحكام الغفلة على قلوبهم والله أعلم.

ومن ادبهم ان لا يحتجبوا عن احد إلا لعذر، ولا يقولوا لمن قصدهم في حاجة ان ارجع وتعال لنا وقتا آخر، ولا يمنعوا سائلا ابداً الا لحكمة لا لبخل ولا شح، كما مر تقريره في الابواب السابقة. وكذلك من ادبهم اخراج الميل الى الكونين من قلوبهم دون الله تعالى، والايثار بجميع ما يدخل في يدهم على اخوانهم المسلمين. كذلك من ادبهم الاغتراب عمداً عن كل موضع عظمهم الناس فيه وخافوا منه الفتنة، وهجران من لا خير فيه، مع عدم اعتقاد السوء فيه، فيعامله معاملة من يسيء به الظن من غير سوء ظن، وان كان تركه للخلق خوفاً من ان يشغلوه عن الله تعالى فهو غرض غير صحيح والله أعلم.

ومن آدابهم في السماع المعروف بين القوم ان لا ينفعلوا فيه خوفاً من الوقوع في النفاق.

قال السهروردي رحمه الله: ومن ادلة السماع ما روي ان الله تعالى خاطب الذر في الميثاق الاول بقوله: الست بربكم، واستفرغت عذوبة سماع ذلك الكلام الارواح؛ فلذلك تطرب وتتحرك كلما سمعت امراً مطرباً، لانه يذكرها بالسماع الاول.

وكذلك كان الجنيد رحمه الله يقول وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: الحرام من السماع سماع العوام لبقاء نفوسهم ورعونتهم، والمباح منه سماع الزهاد لحصول مجاهداتهم، والمستحب هو سماع أصحابنا لانه يحيي قلوبهم.

وكان الحارث المحاسبي يقول: مما يتمتع به الفقراء سماع الصوت الحسن مع الديانة.

وسئل ذو النون المصري رحمه عن السماع عند الصوت الحسن فقال معلول وان كان فيه مخاطبات واشارات. وسئل عنه مرة اخرى فقال: هو وارد حق يزعج القلوب الى حب القرب من حضرة الحق تعالى، فمن اصغى اليه بحق تحقق، ومن اصغى اليه بنفس تـزندق، اي خالف باطنه ظاهره.

وكان الجنيد رضي الله عنه يقول: تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن. فذكر منها السماع، قال: وذلك انهم لا يسمعون الا عن حق، ولا يقومون الا عن وجد.

وكان الجنيد رحمه الله يقول: السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه. وكان يقول كثيراً: السماع يحتاج الى ثلاثة امور: المكان والزمان والاخوان.

وكان اهل عصر سيدي عمر بن الفارض يقولون: كل سماع لا يحضره سيدي عمر فليس فيه بسط، وذلك لانه كان يحرك الجماعة. وعمل بعض الأكابر جمعاً ودعى الفقراء فـأنشد القول الى ان سيم فلم يحصل لأحد منهم وجد، فأرسلوا وراء سيدي عمر يجعله فحضر، فقال للمنشد انشد ما بدا لك فأنشد يقول:

لي بـالـحـجـاز وديـعـة خـلفـتـهـا ... اودعـهـا يـوم الـفـراق دمـوعـي

فقام سيدي عمر ودار وتواجد فتواجد كل من كان هناك، ذكره الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله.

وكان الشبلي رحمه الله يقول: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف السماع وفتنه خاف منه. وكان يقول: لا يصلح السماع الا لمن ذبح نفسه بسيوف المجاهَدات وحيي قلبه بنور الموافقات، وهو لاهل المعرفة غذاء لأرواحهم.

وكان ابو علي الروذباري رحمه الله اذا سئل عن السماع يقول: ليتنا نخرج منه رأساً برأس.

وكان ابو عثمان المغربي رحمه الله يقول: من ادعى السماع بصدق ولم يستمع من صرير الباب وصوت الطيور وتصفيق الرياح فهو مفترٍ مدعٍ، وذلك لأن الباعث للسماع عند الصادقين شهودهتم ان كل شيء ورد عليهم انما ورد من حضرة الله تعالى، فهم مع صاحب الحضرة لا مع من ورد عليهم، ولذلك تساوى عندهم صوت الحمار وصوت احسن الناس صوتاً. ثم اذا غلب حال القوم في السماع فمن الأدب التسليم لهم اذا صاحوا او مزقوا ثيابهم او بكوا على حسب ما يكون احوالهم.

وكان ابو عثمان الحيري يقول: السماع على ثلاثة اوجه، فوجه للمريدين والمبتدئين، يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ولكن نخشى عليهم من ذلك الفتنة والرياء. ووجه للصادقين يطلبون بذلك الزيادة في احوالهم. والوجه الثالث لاهل الاستقامة من العارفين، وهو تساوي الحركات والسكون عندهم.

وكان ابو سعيد الخرّاز يقول: من ادعى انه مغلوب في السماع فعلامته الصحيحة ان لا يبقى في ذلك المجلس محق الا انس به، ولا مبطل الا استوحش منه.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: اذا كان الرجل ممن لا يجد قلبه مع الله تعالى الا في السماع، فالواجب عليه ترك السماع اصلاً، لان في ذلك مكراً إلهياً خفياً لا يعرفه كل احد. وان كان يجد قلبه فيه وفي غيره، ولكن يجده في النغمات اكثر، فحضوره حرام. ولا نعني بسماع النغمات الغناء بالشعر فقط، وانما نعني به سماع النغمات بالغناء وغيره. قال: واذا وجد الفقير قلبه في سماع القرآن لحسن صوت القارىء، ولم يجد قلبه فيه اذا سمعه من قارىء آخر، فسماعه معلول، وتلك الرقة التي يجدها في قلبه من الطبيعة الانسانية، ذكره في الباب الثالث والثمانين ومائة من الفتوحات.

وكان الجنيد يقول: اذا رأيت المريد يميل الى السماع فاعلم ان فيه بقية من البطالة.

وكان سهل بن عبدالله رضي الله عنه يقول: معنى السماع علم استأثر الله تعالى به لا يعلمه الا هو، والعبارات تقصر عنه، ولكن الصادقون تشير اليهم المعاني فيستريحون بذلك من تعب الحجاب.

ولما دخل ذو النون المصري بغداد في المحنة التي عمد من مصر اليها، اجتمع عليه صوفيتها ومعهم موّال فاستأذنوه بان يقول بين يديه شيئاً فأذن لهم فأنشد يقول:

صغير هواك عذبني فكيف به اذا احتنكا
وقد جمعت في قلبي هوى قد كان مشتركا
اما ترى لمكتئب اذا ضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه وصار الدم يقطر من جبينه ولا ينقط على الارض منه شيء، فقام رجل من القوم يتواجد، فقال له ذو النون هو الذي يراك حين تقوم فجلس. قال ابو علي الدقاق كان ذو النون في هذه الحكاية صاحب اشراف على ذلك الرجل حيث نبهه ان ذلك ليس من مقامه، وكان ذلك الرجل صاحب انصاف حيث قبل ذلك وجلس بسرعة ولم ينفعل.

وكان الشبلي اذا استمع يملح شجرة الجميز او الجوز من قوة حاله انتهى.

ورأيت سيدي محمد السروي يستمع في زاوية المتبولي، فحمل على كفه الايسر تيغاراً كبيراً ملآن ماء فصار يدور به، ورأيته مرة اخرى حمل المنشد بيد واحدة ورمى به على رجل آخر.

وكان ابراهيم المارستاني يقول: بلغني ان موسى عليه الصلاة والسلام قص يوماً في بني اسرائيل فمزق واحد منهم قميصه، فأوحى الله تعالى اليه: قل له مزق لي قلبك ولا تمزق لي ثيابك.

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله ان الشيخ ابا محمد الهاشمي الشريف رضي الله عنه سئل عن السماع فقال: لا ادري ما اقول فيه، ولكنني حضرت في دار شيخنا ابي الحسن التميمي سنة سبعين وثلثماية وقد عمل دعوة دعى فيها الامام أبا بكر الأبهري شيخ المالكية، والشيخ ابا القاسم الداركي شيخ الشافعية، والامام طاهر بن الحسين شيخ الحديث، والشيخ ابا الحسن ابن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد، وابن مجاهد شيخ المتكلمين، والقاضي ابا بكر الباقلاني، وابن الحسن شيخ الحنابلة، وجماعة أخرى من العلماء، فقالوا لشخص حسن الصوت: أسمعنا شيئاً، فانشد لهم شعراً من جملته:

غطت اناملها في بطن قرطاس رسالة بعبير لا بانفاس
ان زر فديتك لي من غير محتشم فان حبك لي قد شاع في الناس
فكان قولي لمن ادى رسالتها قف لي لاسعى على العينين والراس

قال السيد الشريف: فبعد ان رأيت هؤلاء الأشياخ يسمعون لا يمكنني ان افتي بعدم السماع، فان هؤلاء هم اكابر مشايخ العراق، حتى انه لو سقط السقف عليهم لم يبق في العراق من يفتي في حادثة انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن والاخلاق في الباب الثامن منها.

وكان يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه يقرأ القرآن ويسمعه، فلا يحصل عنده تواجد، فسمع يوماً شخصاً يقول:

رأيتك تبني دائماً في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

فصاح وبكى حتى ابتلت ثيابه ولحيته، ثم قال تلومونني على قول بعض اهل الداراني زنديق وهو ذا، أقرأ القرآن من الصباح الى المساء لم يقطر من عيني قطرة، وقد قامت علي القيامة بهذا البيت.

وقيل لابراهيم الخواص رحمه الله: ما سبب تحرك الانسان عند سماع الاشعار ويجد في سماعها ما لا يجد في سماع القرآن؟ فقال رضي الله عنه: انما لم يغلب على الناس التواجد عند سماع القرآن لثقل ما فيه من التكاليف، فكانه صدمة لا يمكن التحول معها، بخلاف سماع الاشعار لانها تروّح القلب لعدم التكليف فيها.

وكان ابن الدراج يقول: مررت على قصر حسن على الدجلة فرأيت رجلاً بهي المنظر وبين يديه جارية تغني وتقول: في سبيل الله ود كان مني لك يبذل. كل يوم تتبدل. غير هذا بك اجمل. فسمعها شاب عليه مرقعة تحت القصر فقال لها: أعيدي فأعادته، فقال الشاب: هذا صورة تلوني مع الحق تعالى. ثم شهق شهقة خرجت روحه، فكفناه ودفناه، فعلم بذلك صاحب القصر فقال اشهدكم ان كل شيء بيدي لله تعالى، وكل ممالكي احرار، ثم جعل في وسطه ازاراً وعلى كتفه رداء وخرج فلم يعرف له بعد ذلك خبر.

وقال ابو سعيد الخراز رحمه الله: رأيت علي بن الموفق في السماع وهو يقول: أقيموني أقيموني فأقاموه فقام فتواجد. وقام الداعي ليلة الى الصباح بهذا البيت والناس قيام يبكون:

ارد دوا فؤاد مكتئب ليس من حبيبه خلف

قال القشيري رحمه الله: وكان الامام سهل بن عبدالله التستري يسمع القرآن والذكر وغير ذلك فلا يتغير، فلما كان في اواخر عمره صار يتواجد ويقول: ضعفنا والله عن التحمل وصار واردنا اقوى منا.

وكان ابو عثمان المغربي يقول: سمعت على البئر تقول الله الله.

وكان خير النساج رحمه الله يقول: قص موسى عليه الصلاة والسلام يوماً على بني اسرائيل فزعق واحد منهم فانتهره موسى فأوحى الله تعالى اليه: يا موسى بحبي باحوا، وبطيبي

ناحوا، وبوجدي صاحوا، فكيف تنكر عليهم انتهى.

وكان عود بن عبدالله له جارية حسنة الصوت فكان يأمرها بالغناء فتغني له بصوت حزين حتى تبكي القوم.

وكان ابو سليمان يقول: كل قلب لا يحركه الا الصوت الحسن فهو ضعيف، فيداوى كما يداوى الصبي اذا اردت ان تنومه. وكان يقول: الصوت الحسن لا يدخل في القلب شيئاً، وانما يحرك ما كان ساكناً فيه من الشوق الى الله تعالى.

وكان لسيدي عمر بن الفارض جواري يغنين له فيقوم ويتواجد وكان يتغالى في شرائهن لاجل حسن اصواتهن رضي الله عنه.

وكان ابو القاسم القشيري رضي الله عنه يقول: السماع في كل وقت انفع ما يكون للضعفاء فيأخذ كل عضو نصيبه منه فما ينزل على العين يبكيها، وما ينزل على اللسان يصيح به، وما ينزل على اليد تمزق به الثياب وتلطم به الوجه، وما يقع على الرجل يرقص به انتهى.

وحكى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله ان الشيخ عز الدين بن عبد السلام سئل عن سماع الغناء فقال: مثل ماذا؟ فقال مثل قول القائل:

غنت فأخفت صوتها في عودها ... فكأنهما الصوتان صوت العود

فقال الشيخ عز الدين: اعده علي، فقال السائل: يكفيني منك في اباحته انتهى.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: يحرم على الشيخ الذي يقتدى به ان يسمع من آلات اللهو لانه يفسد أتباعه لغيّهم عن مشهده انتهى.

وأجمع القوم على ان كل ما جمع القلوب الشاردة عن حضرة الله عز وجل فهو حسن، قلت: والمراد بحضرة الله عز وجل حيث اطلقت في لسان القوم شهود العبد انه بين يدي الله عز وجل، فما دام هذا مشهده فهو في حضرة الله، فاذا حجب عن هذا المشهد فقد خرج منها والله أعلم.

وذكر الشيخ محيي الدين وغيره ان من ادب القوم في السماع ان لا يكون هناك من ليس من أهل طريقة أو من أهل طريقهم، لكنه ينكر السماع ولا يقول به، وذلك لأنه يقبض القوم بتغيره لكونه أقوى منهم، إذ النفس تحب السماع بالطبع، وإنما تكرهه لمشاهدتها حالة أخرى اعظم من السماع، فلذلك كان لها سلطان على نفوس السامعين لبطونها. فعلم انه يجب في صحة السماع ان يكون جميع السامعين على قلب رجل واحد. قالوا: وان وقع ان يكون القوال

من القوم أو من المعتقدين فيهم كان أحسن. قالوا: وإذا كان القوال من العوام الخارجين عن طريق القوم فينبغي لهم أن يزيدوه في العطاء لينبعث ويخلع، ويباسطوه حتى يميل إلى القوم، لأن النفس مجبولة على حب من يحسن إليها.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي للفقراء ان يطلبوا من القوال انشاد شيء معين، بل يتركوه على حسب ما ينطقه الله تعالى به، وذلك ابعد عن حظوظ النفس، ولكن ان كان الشيخ حاضراً وأمر القوال ان ينشد شيئاً معيناً فلا بأس، لانه أعلم بما يحرك قلوب الجماعة انتهى.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله: واذا ظهر للقوم سآمة من القوال او كـل او رأوا صوته يفرق قلوبهم، فمن الأدب ان يسكتوه. ويجب عليه ان لا يتشوش منهم، فان تشوش فلا يصلح للانشاد الا ان تاب انتهى. واذا اسكتوه فيشتغلون بنفوسهم أو يأخذون في الذكر حتى يحصل للقوال باعث ويحصل بانشاده الجمعية، لكن يكون الذكر على طريقة واحدة موزونة وهي احسن عند المحققين من سماع القوال، واقوى في الاستعداد لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد. قالوا: واذا حرك القوال صاحب حال ووقع منه شيء من ثيابه فهو للقوال خاصاً، فان في الحديث من قتل قتيلاً فله سلبه.

قالوا: واذا كان التواجد من معنى آخر خلاف قول القوال، ووقع منه ثوب فهو للجماعة، فيشركهم فيه القوال لانه من الجماعة. والمتواجد مصدق فيما يدعيه من حصول السبب الذي تواجد منه، فلا ينبغي ان يكذبه احد، اذ التهمة لا يكون بين القوم.

قالوا: واذا تحرك شيخ القوم وسقط منه شيء فالحكم فيه للشيخ ليس لهم ان يتحكموا في خرقة شيخهم، ولكن يجب على الشيخ ان يقسمها بينهم ولا بد، فان امسكها ولم يحكمهم فيها ولا قسمها بينهم فقد خرج عن طريق القوم، وللجماعة ان يجتنبوه، وليس للمريدين ان يقتدوا به في مثل ذلك ابدا. ثم ان امساكه الخرقة قد يكون لاحد امرين اما لبخل ما طرأ عليه لعدم عصمته، وأما لطلب الستر بحاله لسوء هذا الادب حتى يسقط من عين الجماعة، وكل من هذين الامرين لا يليق بالمريد اتباع هذا الشيخ فيه وان تبعه لا يفلح؛ لانه ان كان بخيلاً فأقبح من كل قبيح صوفي شحيح، وان كان متستراً بذلك الفعل فذلك لعلة في نفسه لا يعرفها المريد، والمريد انما ينتفع بشيخه في الأخلاق والآداب التي ظاهرها محمود.

قال الشيخ محيي الدين: وكل من قام في السماع عن غلبة فللجماعة ان يقوموا لقيامه، وليس لهم ان يقوموا لقيام من بقيت عليه بقية من الاحساس والشعور، بل يحرم عليه هو القيام، لانه منافق ظهر بصورة الصادقين لا بمعناهم، اللهم الا ان يقوم متواجدا معرفا الجماعة بتفعله،

وان يطلب به تحصيل الوجد، فللجماعة ان يقوموا لقيامه، فان مذهبهم الموافقة والمساعدة، وذلك الفقير صادق في دعواه، وان كان الاولى به وبكل قائم في السماع ان لا يقوم الا بحالة فناء وغلبة.

قالوا: ولا سبيل الى بيع الخرقة اذا وقعت، فان في ذلك استهانة بالفقراء، اذ الخرقة مثلاً اذا دخلت في النداء في السوق او غيره تدنست بالايدي الغافلة، وذلك استهانة بطريق القوم في عيون الناس من العوام.

قالوا: وليس للفقراء ان يتحكموا في خرقة من ليس من اهل طريقهم ولا في خرقة من لا يقول بذلك من العبّاد والزهاد، ولكن اذا ضمهم معهم مجلس وتحكم الفقراء في شيء من ثيابهم فلا بأس، وبغير اذنهم لا يجوز، بل يخرجون به من طريق اهل الله تعالى، لانه ليس من حكمةِ اكل اموال الناس بالباطل، وانما جوزنا مثل ذلك للفقراء فيما بينهم لرضاهم بذلك وتواطئهم وصار ذلك عرفا بينهم بطيب نفس، بحيث ان الفقراء لو ردوا على احدهم بخرقته لتكدر ولم يرجع فيها لأنه اخرجها من ملكه ولا بد، فاياك والاعتراض في القوم في ذلك والله أعلم.

قالوا: وينبغي للقوال ان يقف على يمين الشيخ او نائبه، فمهما اشار عليه الشيخ به انشده الا ان يكون المنشد عالما بما يحرّك قلوب الفقراء لشدة ارتباطه بالشيخ في الباطن، فله ان يقف حيث شاء.

قالوا: واذا سقطت عمامة الشيخ عن رأسه او وضعها هو اختيارا لثقلها او لشدة حر ونحو ذلك، فمن الادب موافقة الفقراء له في ذلك، فيضعون كلهم عمائمهم كذلك، وان رمى الشيخ عمامته الى القوال او رداءه فلهم ان يوافقوه بصدق، وليحذر احدهم ان يرمي خرقته للقوال من غير اشارة الشيخ فانه ترك للأدب. واذا وقع من احد من الفقراء خرقة او عمامة في غير وجد، فيستحب للنقيب رفعها عن مواقع الاقدام اكراماً لها، وان كانت عمامة الشيخ رفعها كذلك وصار قائماً بها الى ان يطلبها الشيخ بالقرينة أو الاشارة، فهناك يتقدم النقيب ويضعها على رأس الشيخ قائلاً بسم الله الرحمن الرحيم مع استشعار الحياء والادب.

قال الشيخ محيي الدين: ولا ينبغي ان ينشد في مجالس الفقراء الا الشعر الذي قصد به قائله ذكر الله عز وجل بلسان التغزل أو غيره فانه من الكلام الذي اهل به الله تعالى فهو حلال قولا وسماعا، وهو مما ذكر اسم الله عليه، بخلاف الشعر الذي قصد به قائله غير الله فانه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة قربة الى الله تعالى، لان القول في الحديث حدث بلا شك، وهو مما اهل لغير الله، والنية لها اثر في الاشياء، والشاعر ما قصد الا التغزل في محبوبه المخلوق. انتهى

ذكره في الباب الثامن والتسعين وثلاثمائة من الفتوحات.

وسمعت شيخنا الشيخ امين الدين امام جامع الغمري يقول: لا ينبغي انشاد كلام مثل سيدي عمر بن الفارض على مجلس شربة الخمر، فقد وقع لشخص انه انشد قوله: شربنا على ذكر الحبيب مدامة... الى آخرها على مجلس خمر فحول الله تعالى غائطه الى فيه، وبوله الى انفه، فلم يزل كذلك الى ان مات والله أعلم.

ومن آدابهم البعد عن مواطن التهم، وليس من طريقهم مؤاخاة النسوان والاحداث ولا مكالمتهم لغير ضرورة، وما قال باباحة النظر الى المستحسنات التي نهى الشارع عنها الا قوم فجّار، خرجوا عن الطريق ولبسوا على العامة بلبس الزي، حتى ظن من لا معرفة له بميزان الشريعة انهم من الاولياء مع انهم افسق الفاسقين، وهم على جانب عظيم من الكسل والفتور عن الخير. وكل من رأى زيهم الذي لبسوه وتقصير ثيابهم وحف شواربهم وتصغير عمائمهم وارخاء عذبتهم تمشيخاً لا اتباعاً للسنة اعتقدهم ظاهراً، وربما كان ذلك حتى يرتب الولاة له جوالي او شيئاً من الدنيا كما هو مشاهد في خلق كثير، فلما بنوا امرهم في الطريق على قواعد فاسدة ونيات خبيثة، وسوس لهم ابليس باظهار التواجد والسماع مع النسوان والشباب، وقال لهم لا تمنعوا النساء والشباب الخير وحضور مجالس الذكر قياساً على الصلوات في المساجد، ثم وسوس لهم بالميل الى التلذذ بمجالستهن وكلامهن حتى امالهم الى طلب الفسق بهن، فما وجدوا لذلك سبيلا، فمثل هؤلاء يجب على كل مؤمن تحذير الناس من صحبتهم، ومن كان صادقاً في السماع فليستمع في نفسه من غير حضور مع هؤلاء الفسقة والله أعلم.

ومن شأنهم ان لا يقعد معهم في مجلس سماعهم منكر عليهم، كما مر آنفا، ولا يكون هناك من المنكرات، حتى لو التبس نعل فقير بغيره، او ركوته بغيرها، اثر ذلك فيهم قساوة القلب، ولم يقدروا على الاستماع، لان ابدال النعل بغيره من الورع تركه، لانه يظلم قلب الفقير ويغيره. وقد بلغنا ان ابا يزيد رضي الله عنه وجد وحشة في تواجده فقال اني اجد في قلبي وحشة فانظروا سبب ذلك، ففتشوا فوجدوا نعل فقير قد أبدلت في المسجد مع شخص من اصحاب ابي يزيد، فطلبوا صاحب النعل فوجدوه من اكبر المنكرين عليهم.

ومن شأنهم ان يعاملوا كل وقت بما يناسبه، ومتى ادخلوا على ما يقتضيه وقت آخر تكدر عليهم وقتهم. وقد وقع لسيدي علي المرصفي رحمه الله انه بات عنده معلاق عنب فوجد في قلبه كدورة فأخرجه للفقراء في الليل فرجع اليه صفاء قلبه. هذه حكايته لي. ووقع نظيرهالغيره ووقع أيضاً لبعضهم ممن كان تدفق في الورع أنه وجد في قلبه كدرا حال ذكره، ففتشوا ذلك فوجدوا القارورة التي فيها الدهن قد استعاروها ليشتروا فيها الدهن مرة للمصباح فاشتروه فيها مرة اخرى بغير اذن اصحابها فزال الكدر والله أعلم.

فاذا كان الكدر يحصل للفقراء في مثل هذه الامور، فكيف بالخصام والضرب بالعصي والمعاداة! فالله يلطف بنا آمين.

ومن شرطهم ان لا يجلسوا مع مجادل ينكر على اهل الطريق احوالهم لحديث: عند نبي لا ينبغي التنازع. وعلوم اهل الله انما هي علوم رسول الله ﷺ لانهم متقيدون بالشريعة لا يخرجون عنها الى رأي او قياس الا في النادر، وفي القرآن العظيم: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. فشمل الجاهلين بطريق اهل الله.

وكذلك من شأنهم المؤاخذة بالنسيان وبكل امر يوقفهم عن الترقي لانهم سيارون على الدوام، وليس لهم ان يسامحوا مريداً بزلة واحدة غيرة للشرع ومصلحة للمريد، بخلاف حقوقهم، فيسامحون الناس فيها وان كثرت.

قال الشيخ محيي الدين: وانما آخذوا المريد بالنسيان لان طريقهم طريق حضور مع الله تعالى في عموم الحالات، والنسيان فيها نادر، والنادر لا حكم له، بخلاف طريق غيرهم فان الغالب فيها الغفلة، فلذلك لم يسامح اهلها المريد بالنسيان إلا في اماكن معروفة في كتب الفقه، كما اذا نسي ركناً من اركان الصلاة او نسي الطهارة وصلى فانه يعيد جزماً، انتهى.

ومن شأنهم ان ينصفوا الناس من انفسهم بينما لا ينصفون انفسهم من احد، كما ان من شأنهم قبول الاعتذار ممن اعتذر اليهم مع ان الاعتذار غالبا انما يقع ممن ليس هو من اهل الطريق، فان اهل الطريق يقيمون للخلق المعاذير قبل ان يقع منهم الاعتذار. فاعلم انه لا اعتذار بين عامين، وانما الاعتذار بين مريدين او بين عارف ومريد، فالعارف يتنزل ويعترف للمريد مداراة له، وهو لا يحتاج الى اعتذار من المريد والله أعلم.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول: الاعتذار تزكية للنفس وتهمة للمعتذر اليه انتهى.

ومن شروطهم ان لا يغش احد منهم احدا، وانما يتعاملون بالمناصحة والانقياد لبعضهم بعضاً في الخير وعدم المنافرة والاعتراض بالفهم لا بالامور التي وردت صريحة في الكتاب والسنة. وأجمعوا على انه لا يصح ممن ثبت له قدم في الطريق بغض ولا شحناء ولا حسد ولا بغي ولا غيبة ولا حقد ولا مكر ولا رياء ولا نفاق، فان فعل ذلك فهو عدو الله، فكيف يدعو غيره الى الله تعالى! فامتحن يا أخي من يدعي انه من الواصلين بهذا الميزان يظهر لك صدقه او كذبه، لان الواصل لا يرى في الوجود فاعلا حقيقة إلا الله فيرسل غضبه وحسده على من!؟ وان نزل عن هذه الدرجة وجد جميع المسلمين عبيد الله ومن أمة رسول الله، فكيف يؤذي عبد ربه

او امة نبيه في حضرته، فان الواصل دائماً في حضرة الله وحضرة رسوله لا يبرح، فيقال لمن ادعى الوصول وآذى احداً انت كذاب والله أعلم.

ومن شروطهم ان لا يعدوا احداً بوعد إلا في النادر، لان صدق الوعد انما يكون للانبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم، وأما غيرهم فربما وعد وإخلف فيصير فيه خصلة من النفاق. وسواء كان الموعود به جليلاً او حقيراً كله واحد. ثم ان وقع ان الفقير وعد احداً بوعد ولم يوف به وجب الوفاء به واستغفر الله تعالى، كما هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

ومن شروطهم الورع والتثبت في كل ما يروونه عن رسول الله ﷺ لقوله: من كذب عليّ متعمداً ـ وفي رواية باسقاط متعمداً ـ فليتبوأ مقعده من النار، وهو حديث متواتر بقيد التعمد. وفي الحديث أيضاً: كفى بالمرء اثماً ان يحدّث بكل ما سمع. وفي رواية لمسلم: حسب المرء كذباً ان يحدث بكل ما سمع، ذكرها مسلم في صدر صحيحه.

وقد قالوا: الورع في المنطق أعز من الكبريت الاحمر.

وسمعت شيخنا شيخ الاسلام زكريا يقول: لا تعتمد على رواية احد من هؤلاء المتعبدين من غير علم حتى تجربه في الصدق والعلم. فكثيراً ما يروي شيخ الزاوية شيئاً ويضيفه الى رسول الله ﷺ والحال انها رؤية منام لبعض العارفين وهو يعتقد انها جاءت عن رسول الله ﷺ من طريق المحدثين، فعليه اللوم وان كان ذلك مبنياً على حسن الظن بالناس، لان لحسن الظن مواضع ليس هذا منها. وقد تقدم في الباب الاول وغيره ان من شرط من يطلب طريق القوم ان يكون متضلعاً من علوم الشريعة المطهرة، حتى لا يصير عنده التفات الى غير الطريق التي سلكها. وان طريق القوم محررة على الكتاب والسنّة، تحرير الذهب والجوهر، فمن لم يكن من أكابر العلماء لا يفلح فيها، لأن له في كل حركة وسكون ميزاناً شرعياً يجب عليه علمه قبل الفعل والله أعلم.

ومن شأنهم شدة الورع وكثرة التوقف على الأكل مما بأيدي اهل زمانهم حتى يعلموا ورعه في كسبه، وقد خالف قوم من اهل زماننا هذا فادعوا المشيخة وصاروا يأكلون عند المكاسين في رمضان وغيره ويقولون: نحن قوم لا يؤثر فينا الحرام، وهذا من الافتراء القبيح على أهل الطريق انهم كانوا كذلك، فالله تعالى يغفر لنا ولهم. فيجب على كل مسلم ان ينكر صنيعهم قياماً بواجب حق الشريعة والعلماء العاملين والأولياء الصالحين. ولو ان هؤلاء اعترفوا بأنهم خالفوا طريق السلف الصالح حتى لا تتبعهم العامة على ذلك لكان أخف اثماً. وقد قدمنا ان سفيان الثوري رضي الله عنه كان يتهم نفسه ويقول لأصحابه اياكم ان تقتدوا بي حتى تزنوا أحوالي على الكتاب والسنة، فاني رجل خلطت في ديني وأكلت من جوائز السلطان. وكذلك

بلغنا عن الحسن البصري انه كان يقول ذلك والله أعلم.

ومن شأنهم حفظ آداب الشريعة لا سيما أواخر أعمارهم، ولا يقدمون على فعل شيء حتى يعرفوا انه موافق للشريعة واذا شكوا في أمر سألوا عنه العلماء وعملوا بما يفتونهم به من التشديد او الرخصة بشرطها.

وقد ألف سيدي الشيخ محمد بن عنان رضي الله عنه رسالة من أولها الى آخرها في الحث على اتباع الشريعة وسؤال العلماء عن ما فيه شك وسبب ذلك انه كان في بلاد الشرقية بين قوم الغالب عليهم البدع، ولا يتيسّر للفلاحين ان يشتغلوا بالعلم حتى يصير احدهم يعرف جميع الحلال والحرام من نفسه من غير سؤال العلماء، وكان الشيخ محمد هذا على قدم السلف الصالح، وما كنت امثله إلا بطاوس اليماني او بشر الحافي، لشدة ما هو عليه من اتباع السنة المطهرة وعدم تضييع شيء من اوقاته في غفلة عن الله، بل كان ليلاً ونهاراً مقبلاً على ربه عز وجل رضي الله عنه.

وكان سيدي علي الخواص يقول للمتعبدين من الفقراء: عليكم بسؤال العلماء عن امر دينكم، ولا تعملوا شيئاً الا بعد علمكم بأنه موافق للشريعة. وكان يقول: من خان في آداب الشريعة الظاهرة، فأحرى أن يخون في علم الحقيقة والأسرار الإلهية. ومعلوم ان الحق تعالى لا يهب أسراره إلا للأمناء من عباده، وكل من ابتدع في الشريعة شيئاً، فقد آثر هواه على شرع ربه الذي اختاره الله ورسوله للأمة والله أعلم.

ومن شأنهم اذا دخل احدهم في الطريق، وهو ذو زوجة او مال، ان لا يتغير عن حالته الا باذن شيخه، فلا يطلقها باختياره، ولا يتزوج اذا كان عازباً، ولا يرمي ماله للناس، ثم يصير يسأل الناس، وقد مر ايضاح ذلك في الأبواب السابقة في مواضع، ولذلك من شرط الصادقين منهم ان لا يبيت احدهم على دينار ولا درهم كما مر، ولا يأخذ من الناس من اموالهم بالسؤال ليفرقها على المحاويج، الا ان كانت زكاة، او كان كاملاً في الطريق، يرى الخلق كالأطفال في حجره، يربيهم ويفعل معهم ما هو الأصلح لهم. فمثل هذا الاعتراضُ عليه كالاعتراض على الخضر عليه الصلاة والسلام، فيما فعله مع موسى عليه الصلاة والسلام؛ فان قول الخضر عليه الصلاة والسلام وما فعلته عن امري، مثل قول نبينا ﷺ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ. فكما ان الخضر عليه الصلاة والسلام هو شيخ الاولياء في علوم الحقيقة، بحكم النيابة لرسول الله ﷺ، فعلم انه لا ينبغي الاعتراض إلا على من لم يبلغ حد الكمال من المتمشيخين بأنفسهم، فيسألون الناس الحافاً، فينفرون منهم، فيقل نفعهم على يدهم. ويقولون نحن ملامتيّة، وذلك جهل، فان الملامتيّة هم الكمل من رجال الله تعالى، ومبنى طريقهم على الحياء والعفة، كما

هو مبسوط في كتب القوم، وهي طريق الشيخ الجنيد بعينها والله اعلم.

ومن شأنهم عدم الاعتراض على الشيوخ، إذ الاعتراض عادة لا يكون إلا من الأعلى للأدنى، لأنه هو الذي يعترض بعلم.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا يسمى اعتراض الأعلى على الأدنى اعتراضاً، وانما الأدب تسميته تأديباً وارشاداً، كحال الشيخ في تربية المريد، فلا يسمى الشيخ معترضاً على المريد، فعلى الأدون ان يصمت عن كل شيء جهله، ولا ينكر على فاعله إلا ان علم حكمه في الشريعة، ومتى أنكر على شيخه فقد ابطل اصل عقده معه والله أعلم.

ومن شأنهم الصدق، فلا يتكلمون ابداً عمّا لم يذوقوه، خوفاً على أنفسهم ان يدّعوا مقاماً لم يبلغوه. ومن اصول طريقهم انهم لا يتكلمون إلا بما يشاهدونه، واذا سمع احدهم شيئاً من اخيه لم يفهمه، فلا يجوز له الرد عليه، وانما الواجب عليه أن يعلم فوراً أن ذلك من مشاهد أخيه الصحيحة، التي لم يبلغها هو، وان اخاه أعظم منه مقاماً، فينبغي له التوجه بهمته الى الله تعالى، ان يرزقه مثل ما رزق أخاه، او يتلمذ له ويخدمه ان لم يكن له شيخ، كما جرى عليه اهل الطريق. وهذا الأدب ما رأيت له ذائقاً إلا قليلاً. وغالبهم لا يقدر على نفسه تنكبس لأن يتلمذ لأخيه ابداً. ومن هنا قال الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه: من أعلى اخلاق القوم ان يتلمذوا لأحد من اقرانهم، فانها احسن رياضات النفوس، وهو اصعب من الجوع والسهر والعزلة وغير ذلك، انتهى.

ويؤيد ذلك ما تقدم في وصية سيدي احمد بن الرفاعي في مرض موته لخواص اصحابه حين سألوه وصية موجزة، من قوله: من تمشيخ عليكم فتلمذوا له، فان مدّ يده لكم لتقبلوها فقبلوا رجله، وكونوا آخر شعرة في الذنب، فان الضربة اول ما تقع في الرأس. فان قيل ان اشياخ الطريق كاملون بيقين، وخرجوا عن رعونات النفوس، لا نرى احداً منهم يتلمذ لأحد من اقرانه كما قلتم، فالجواب ان كلامنا فيمن تأبى نفسه القراءة على اقرانه، وهؤلاء الأشياخ بحمد الله لا تأبى نفوسهم ذلك كما هو معلوم من قرائن احوالهم، فاياك ان تظن بهم في المريدين والله أعلم.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: من شروطهم اذا دخلوا زائرين لأحد من اشياخ عصرهم ان يفرغوا قلوبهم من جميع ما عندهم من العلم، بمعنى انهم لا يقنعون لما عندهم، بل يطلبون الزيادة، فان العلم لا قرار له، فيجب على كل زائر للاشياخ ان يفتح باب قلبه لما يلقي اليه ذلك الشيخ، ليخرج من عنده سالماً من الاعتراض، ومتى سمع من الشيخ ما لا يقبله قلبه رجع على نفسه باللوم وقال هذا أمر لم اصل انا اليه، ولا ينسب الشيخ الى الخطأ

البتة، ومن فعل ذلك مع شيخ فقد خرج عن قواعد الطريق والله أعلم.

ومن شأنهم ان ينظروا الى العصاة بعين الرحمة لا بعين الازدراء والاحتقار. وقالوا: الازدراء بشيء من العالم يرجع والعياذ بالله الى الاعتراض على القدرة التي أعطت كل شيء خلقه، وذلك ينافي طريق الولاية والاصطفاء. وقد تقدم في الأبواب السابقة انه لا يجوز لأحد استصحاب المعصية على من وقع فيها، بل ينبغي ان يعتقد فيه انه تاب من وقتها وندم، فمن سريرته، او يحتمل ان يكون ممن سبق له من الله السعادة، فلا تضره المعصية. وكل من ظن بنفسه انه خير من احد من المسلمين، فهو جاهل مخدوع، ولو اعطي من الكرامات ما اعطي. وقد رأى سيدي عبد القادر الجيلي مرة شارب خمر يتمايل فخطر بباله انه خير منه، فناداه السكران: يا عبد القادر، قادر ربي على ان يجعلني مثلك ويجعلك مثلي، فاستغفر سيدي عبد القادر وطأطأ رأسه. فأنكر يا أخي منكرات الشرع بحكم الشرع، واجعل انكارك على الأفعال لا على الذوات، والله أعلم.

ومن شأنهم كلهم اغاثة الملهوف ويقدمون اغاثته على قراءة احزابهم وأورادهم وكل شيء من نوافلهم، كما مرّ تقريره مراراً. ومن ادعى الولاية وقلبه فارغ من تحمل هموم العباد فهو كاذب في دعواه، وليتأمل تلقيب القطب بالغوث يعرف انه ما لقّب بذلك إلا لكثرة اغاثته الملهوفين في الشدائد. وهذه الحقيقة سارية من القطب الى جميع اهل دائرته رضي الله عنهم. فاعلم ان من جامع زوجته ودخل الحمام ولبس المبخرة ونام على الفرش الوطية واكل اللذيذ من الطعام او بنى داراً او غرس بستاناً أيام تكدر الناس، فهو لم يشم من الغوثية رائحة، لأن حامل الهم لا يتهيأ لمثل ذلك، ولا تميل اليه نفسه، فينبغي لمن لم يتحمل هموم الناس ان لا يخرج على من يتحمل همومهم، بل يهرت نفسه ويوبخها، عملاً بحديث الطبراني مرفوعاً: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم انتهى.

ورأيت بعضهم لا يهتم بأمر المسلمين ويزعم ان ذلك من التسليم لله وهو قصور، فان التسليم لله لا ينافي الاهتمام بأمر المسلمين المأمور به والله تعالى اعلم.

ومن شأنهم ان يجزموا بفضل كل من طلبوا زيارته من الشيوخ عليهم قبل ان يخرجوا لزيارته، ولا يخرجوا قط لزيارته على وجه الاختبار له، لان ذلك يورث المقت، إذ الشيوخ لا يختبرون البتة لكمالهم، وانما الحق تعالى هو الذي يختبرهم، واما الخلق فربما كانوا دونهم في الدرجة، فكيف يختبرونهم في مقام لم يذوقوه.

وقد دخل سيدي عبد القادر الجيلي ومعه اثنان على رجل كان يلقب بالغوث، وكان من شأنه ان يختفي اذا شاء ويظهر اذا شاء، فقال سيدي عبد القادر نويت التبرك بهذا الرجل، فقال

الآخر انا لا اعتقده الا ان اظهر لي كرامة، وقال الآخر انا منكر عليه، فبينما هم جالسون إذ ظهر من بينهم فنظر الى من قال انا منكر وقال: انت المنكر علي إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك، وقال للآخر انت الذي تقول لا اعتقده الا ان اظهر كرامة ستجرأ عليك الدنيا الى شحمتي اذنيك، وقال لسيدي عبد القادر انت الذي تزورني للبركة سيعلو شأنك حتى تؤمر بأن تقول قدمي هذه على عنق كل ولي لله عز وجل وتخضع لك اولياء المشرق والمغرب ويطأطىء رقابهم، فكان الامر كما قال. واما المنكر فسافر من بغداد ليناظر القسيسين ببلاد الروم ففعل وناظرهم فغلبهم فأعجب السلطان وقربه وطلب منه تزويج ابنته فقال لا يمكن ذلك الا ان تدخل في دينها فتنصر وتزوجها ومات على دين النصرانية. واما الذي اوقف اعتقاده على اظهار كرامة فتولى مال بيت المال وصار من اوسع الناس في الدنيا لسواد به ذكره في كتاب البهجة والله أعلم.

ومن شأنهم ان لا يطلبوا من مشايخ عصرهم الكلام على هواجسهم وانما يطلبون منهم ان يعرفوهم بالادوية التي يستعملونها لازالة امراضهم الباطنة، هذا هو جل مقصود الناس منهم، فان المكاشفات بأحوال بواطن الناس انما هي احوال المريدين، تقوية ليقينهم في الطريق، وتأييداً لهم، والعارفون قد تمكنوا في مقام اليقين.

وسمعت سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: يجب على صاحب الكشف ان يسأل الله عز وجل في زوله لما فيه من الاطلاع على عورات الناس، فهو من احوال المريدين لا العارفين والله أعلم.

ومن شأنهم انهم لا يطلبون من الخادم ان يجري في خدمته لهم على وفق اغراضهم كلها، بل اذا اتاهم بما لا يوافق اغراضهم سكتوا ولم يعاتبوه على ذلك، الا ان يكون الخادم تلميذاً للشيخ، فله ان يعاتبه ليعرف ميزان ذلك في المستقبل، وأما الماضي فقد وقع.

وقال السهروردي رحمه الله: وانما كان من شأنهم ترك العتاب للخادم طلباً لتهذيب اخلاقهم ورياضة لنفوسهم، كما انهم في جميع معاملاتهم مع الخلق على هذا القدم، فيتحملون اذاهم ولا يقابلونهم بنظير ذلك، ويحملون عن الناس كَلّهم ولا يلقون كَلهم على احد، وينهون العصاة، وينبهون الغافل ويرشدون الضال، ويقودون الأعمى، ويساعدون الخادم، ويطحنون معها على الرحا، ويكنسون البيت.

وقال الشيخ محيي الدين: ومن الفقراء من صارت ارادته فانية في كل ما يريده الحق تعالى من الخير، فمثل هذا لا يرى شيئاً في الوجود يخالف غرضه حتى يتكدر لاجله لغيبته عن حظوظ نفسه، وفناء ارادته في ارادة ربه في كل ما يجريه على يدي عباده في حقه.

وقد قالوا: من فني عن ارادة نفسه فلا نفس له، ومن لا نفس له فلا غرض له، ومن لا غرض له فلا مرض له، وذلك ان سبب الامراض عدم موافقة الاغراض والله أعلم.

ومن شأنهم اذا كملوا في الطريق وتصدروا لارشاد الناس وقضاء حوائجهم، ان لا يتخذوا لهم على ابوابهم حجاباً إلاّ ان يكون في البيت عيال ولا مكان لهم يتوارون فيه، وذلك حتى لا يفقدهم احد يقصدهم في حاجته. وقد كان سيدي مدين يتخذ على بابه ستارة، وكذلك سيدي علي المرصفي لأجل العيال دون ان يكون لهم حاجب. وكان سيدي احمد الزاهد يجلس دائماً في خلوته في الجامع، ولا يدخل على العيال الا بعد صلاة الجمعة لا غير، ويخبر ان ذلك كان من خلق سيدي يوسف العجمي رحمه الله، فكان كل من طلبه وجده، فان انكر احد على القوم في اتخاذهم حجاباً على بابهم قلنا له: وثبت ان رسول الله ﷺ كان له حجاب من خدمته الارقّاء وغيرهم كأبيّ وابن مسعود، وكان اذا جاء مثل عمر بن الخطاب يستأذن ذلك الخادم في الدخول فيستأذن له رسول الله ﷺ ويفعل ما يأمره.

قال الشيخ محيي الدين رحمه الله: وهذا الخُلق لا يكون لهم الا بعد فراغهم من تهذيب نفوسهم، اذ التصدر لقضاء حوائج الناس عادة لا يكون الا بعد ذلك. ومن كان عليه بقية علاج لاخلاقه الردية، فهي تجذبه الى وراء، فلا يصح له التوجه الى الله تعالى بكليته في قضاء حوائج العباد. ومعلوم ان كمال التوجه شرط في سرعة قضاء الحوائج، وكل من تصدر لقضاء حوائج الناس قبل الفراغ من تهذيب نفسه فهو طالب للرياسة، وثناء الناس عليه، وعكوف الناس عليه، وكثرة ترددهم اليه، ومشيهم في ركابه. وربما تلبس عليه النفس في ذلك وتقول له انك انما تفعل ذلك محبة في الخير، وما اقامك في ذلك الا الحق تبارك وتعالى فاشكر الله على ذلك، فان غيرك يتمنى ان يكون مثلك فلا يقدر. فمثل هذا هالك، وهو يظن انه ناجٍ. ولو انه تفطن لدسائس نفسه لعدم تحريضها من ورطة الرياء، ومن أسرِه تحت هواه، ومن سخرية الشيطان به على جميع قضاء حوائج غيره بطريقة الشرعي، كما يجب على طالب العلم الاخلاص فيه والسلامة من محبة صرف الناس وجوههم اليه. وفي الحديث: ما من احد يكلم في سبيل الله والله اعلم بمن يكلم في سبيله، الحديث، فأخبرنا انه ما كل من جاهد يكون مخلصاً لوجه الله تعالى، ولا كل من قتل بين الصفين يكون شهيداً، فليتنبه من يعمل شيخاً في النصف الثاني من القرن العاشر لمثل هذه الغوائل والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

وكان سهل بن عبدالله التستري رحمه الله يقول: ينبغي للعبد ان لا يغفل عن تفتيش نفسه في عباداته، فضلا عن معاصيه، قلّ عبد يسلم من التقصير في طاعاته والغفلة فيها عن الله تعالى، فلا يقومون الا تائبين، ولا يجلسون الا تائبين، ولا ينامون الا تائبين والله أعلم.

ومن شأنهم التجافي والتباعد عن ما للنفس فيه غرض من سائر الشهوات، فلا يتغنى أحدهم في طلبه ولا يتمناه، بل ان جاءه ذلك من غير تعب في تحصيله ومن وجه جلٍّ نخير فيه، فان شاء اكله وان شاء تركه الا ان يكون في مقام المجاهدة للنفس، او مقام توفير اللذة الى موطنها الحقيقي، فيتعين عليه ترك الاكل وفاء بحق المقام، كما كان عليه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأبو ذر واضرابهم من الاولياء. وليس لمن هو في هذين المقامين ان يتناول شيئاً من طيبات الشهوات الدنيا. وقد ورد: الدنيا حرام على اهل الآخرة، وقيل انه من كلام ابي ذر وغيره، قلت والمراد ان ذلك حرام من حيث الكمال في المقام ليوافق قواعد الشريعة المطهرة، نحو قوله تعالى: كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله، والله تعالى أعلم.

ومن شأنهم القناعة، وهي وقوف النفس عند ما رزقت من غير تشوف الى زيادة، اذا حصل بين يدي العبد ذلك الرزق من غير مزاحم عليه اكل بقدر ضرورته وترك الزائد لغيره، وليس بعد ذلك مقام في القناعة. فاعلمْ ان من يكون له كل يوم ما يكفيه الكفاية الشرعية، ويسافر من بلاده البعيدة الى السلطان ليرتب له شيئاً زائداً أو يسافر الى بعض مشايخ العرب ليأخذ منه شيئاً من القمح او العسل ونحوهما، فهو بعيد جداً عن طريق المريدين، فضلاً عن العارفين الذين يزعم انه منهم؛ لان من شأن القوم الشكر لله تعالى على السراء والضراء. وذلك لانهم يعتقدون انه تعالى اعلم بمصالحهم من انفسهم، فلا يطلبون زيادة على ما اعطاهم في يوم والله أعلم.

ومن شأنهم ترجيح الخوف على الرجاء لكونه اكمل واجمل في حق العبيد، ولا يرجحون الرجاء إلا عند خوفهم ان يتحكم فيهم سلطان القنوط. وكذلك من شأنهم الانقباض في نفوسهم اذا رأوا منكرا في الشرع ايثارا للجناب الإلهي، وشفقة على الفاعل لذلك المنكر. وليس لهم ان يقولوا هذا فعل الله، فلا ينقبض منه، لانه جهل. فان الكامل يسمى ابا العيون فعين ينظر بها الى فعل الحق فيجده في غاية الحكمة، وعين ينظر بها الى مخالفة العبيد وعصيانهم لاوامر ربهم فيغار لله تعالى، وفي الحديث انه ﷺ كان يغضب اذا انتهكت حرمات الله عز وجل، فعلم ان انكار المنكر لا يقدح في مقام التسليم لان كلاهما مأمور به شرعاً والله أعلم.

ولذلك من شأنهم غض الطرف عن فضول النظر والاسراع في المشي مع السكينة والوقار، فيمشون مثل الجمل الموقور حملا، وقد كان ﷺ اذا مشى كأنه ينحط من صبب.

ولذلك من شأنهم اصلاح ذات البين، واعظم اوقاتهم ان يطلع الحق تعالى على

سرائرهم فلا يجد فيها حبا لاحد الا باذنه، ولا التفاتا الى غيره.

ولذلك من شأنهم التعامي عن عيوب الناس وسترها ونشر محاسنهم الا المبتدعة، فانه يجب عليهم التحذير منهم، وذلك من باب الرحمة بالمسلمين حتى لا يزيد عذاب المبتدع باتباع الناس له في بدعته، ولا يأثم أحد بسببه.

ومن شأنهم الشفقة على خلق الله تعالى من ناطق وصامت بطريقه الشرعي.

قال الشيخ محيي الدين: ولقد حدثني الوجيه المدرس بمدينة ملطية انه كان هناك والٍ بمدينة بخارى، وكان من اظلم الناس. فركب يوما فرأى كلباً اجرب وكان ذلك في يوم شديد البرد، فقال لبعض غلمانه ارفعوا ذلك الكلب الى دارنا فرفعوه فتلطف به واحسن اليه فلما جاء الليل نودي الوالي في منامه يا فلان كنت كلبا فوهبناك بكلب. فهذه رحمة بكلب اثرت الرحمة للظالم. وفي الحديث: في كل كبد رطبة اجر.

ووقع لسيدي احمد بن الرفاعي انه رأى كلباً اجذم فقد شعره والناس يزجرونه فحمله الى البرية وجعل له ظلّةً وصار يطعمه ويسقيه ويدهنه حتى عوفي فغسله بماء حميم ودخل به بلده أم عبدة، فقيل له اتعتني بكلب هذا الاعتناء! فقال: خفت من الله تعالى ان يؤاخذني بعدم الاحسان اليه ويقول لي: اما كان في قلبك رحمة لخلق من خلقي؟ والله أعلم.

ومن شأنهم ان يتصدقوا كل يوم عقدا بقلوبهم على جميع عباد الله تعالى بعرضهم وبدمائهم واموالهم، ولا يطالبون احدا بحق الدارين اكراما لمن هم عبيده ولمن هم من أمته ﷺ. وأصول الشرع تقصد هذا الفعل، فانه من باب العفو ومكارم الاخلاق، وان كانت الاعراض لا تباح بالاباحة لو صرح اهلها بالاباحة، ولكن كلامنا في عفوهم عن الناس اذا وقعوا في عرضهم بحكم الاتفاق، والا فلم يبلغنا ان احدا من القوم قال للناس قعوا في عرضي ابدا. وفي الحديث أيعجز أحدكم ان يكون كأبي ضمضم، كان اذا اصبح يقول اللهم قد تصدقت بعرضي على عبادك يعني الذين يقعون في عرضي تعديا وظلماً. لكن لا يخفى ان التصدق المذكور لا يكون الا في حق الآدمي، فانه بمثابة من سامح الناس بديونه. اما في حق الله تعالى فليس للعبد في ذلك تصريف. وايضاح ذلك أن معاصي الآدميين لها وجهان: وجه يتعلق بالله من حيث تعديهم حدوده، فذلك اليه تعالى لا لهم، ووجه يتعلق بهم فيصح لهم العفو عنه والله أعلم.

ومن شأنهم ان لايقرضوا احدا بقصد العوض، وانما يعطون كل محتاج ما يرونه محتاجاً اليه من غير مطالبته بالعوض، وذلك لانهم يشهدون ان جميع ما بأيديهم من المال انما جعله

الله تعالى عندهم للمحتاجين من عباده، ولا يرون لهم مع الله ملكاً حتى يطلبوا العوض لاجله.

وكذلك من شأنهم عدم الالتفات الى خلف، واذا التفتوا التفتوا جميعا، وقد نادى شخص الشبلي رحمه الله مرة من خلفه فلم يجبه وقال: اما علمت ان الفقراء لا يلتفتون الى وراء، ولا يجيبون من ناداهم من خلف القفا؟ والله أعلم.

ومن شأنهم التفاؤل والأخذ بالفأل الحسن النظير به، يعني بطريقه الشرعي، وقد قرع رجل باب الشيخ ابى مدين فخرج اليه، ولم يكن في نية الشيخ ان يخرج اليه أو لا يدخله في ذلك الوقت داره، فقال له: ما اسمك، فقال: احمد الفائدة، فقال له الشيخ: ادخل، فان العاقل لا يطرد الفائدة اذا وصلت الى باب داره وهو يطلبها.

قال الشيخ محيي الدين: وكان احمد هذا من سادات القوم، انتهى.

ومن شأنهم انهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتحركون ولا يسكنون الا عن ضرورة او حاجة، وذلك ليثابوا على جميع افعالهم ثواب الواجبات، لان الانسان اذا اضطر الى مباح صار فعله واجباً، وثواب الفرض اعظم من ثواب السنة إلا في بعض المسائل عند بعضهم، كابتداء السلام مع رده في حق المتشاحنين فانه ﷺ[1]... وخيرهما الذي بدأ بالسلام، فليتأمل.

ومن شأنهم لبس الوسط من الثياب. وهم في نيتهم على طبقات فمنهم من يلبس لآخرته وهو صاحب التمكين، ومنهم من يلبس لوقته وهم دون ذلك، فان الكامل من يكون الوقت حكمه، وبما هو تحت حكم الوقت ودونه من يحكم عليه وقته. فالذي يلبس لآخرته هو من لبس ما يستر عورته ويقيه من الحر والبرد. واما الذي يلبس للوقت فهو المتجرد الذي لا يشتري ولا يبيع، وانما هو مشغول بحاله، وهو أنقص مقاماً من الذي قبله، وعلامة صدق هذا ان يتساوى عنده الثوب النفيس والخسيس على حد سواء، ومن رجح الثوبَ النفيس على الحقير فهو صاحب رعونة، ليس له قدم من اتباع السنة في ذلك؛ فان اخلاق رسول الله ﷺ انه كان لا يبالي بأي ثوب يلبس، وكان ان رأى ثوباً قطنا لبسه، او صوفا لبسه، او عباءة لبسها، وصلى بها اماما في المسجد، كما هو معروف في كتب الحديث والله أعلم.

ومن شأنهم ان يقدموا الفقراء على الأغنياء في البشاشة والاكرام، لان الله تعالى عاتب نبيَّه ﷺ لما كان يقبل على صناديد قريش، مع ان ذلك انما كان طلبا لتميل قلوبهم اليه حتى يسلموا، ومن اوجعَ قلب فقير لاجل غني سقط من ديوان القوم.

---

(١) نقص في الأصل

وكان الشيخ محيي الدين يقول: ما عاتب الله نبيه ﷺ الا لكونه اقبل على الاغنياء بحضرة الفقراء، ولو ان الاغنياء جاءوه وحدهم لكان من كرم اخلاقه الاقبال عليهم انتهى.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: من الأولياء من امر بتعظيم صفات الله، حيث ظهر العبد قيّماً بها، فيعظم الامير على الفقير لظهوره بالتصريف في هذا الدار بخلاف الفقير، فان من شأنه الذل والافتقار اللذين هما ليسا من صفات الله قطعا انتهى ولكن جمهور الاولياء على الاول والله أعلم.

قالوا: وليس من شرطهم ان لا يكون لهم مال، ولكن منهم من يكون له مال، ومنهم من يكون فقيراً، ومقام الفقراء يجمعهم كلهم. وقد ذكر الشيخ محيي الدين ان القطب قد يكون لا مال له فيخرج الى بيوت اصحابه فيسألهم لطبيعته ما يقوم بها كالشفيع لها، ولا يقدح ذلك في كماله انتهى والله تعالى أعلم.

ومن شروطهم ان لا يجلسوا في مقام المشيخة الا ان اجلسهم استاذهم او نبيهم، من طريق كشفهم الروحاني، او يجلسهم ربهم بما ألقى اليهم في سرهم من طريق الالهام الصحيح، لان الشيخ اذا لم يكن عارفاً بطريق السلوك ودواء المريدين، وجلس يربي المريدين بما يأخذه بطريق الكتب طلباً للرئاسة، اهلك نفسه واهلك من تبعه. فان سياسة المريد لا بد منها، والشيخ انما يسوس نفوس المريدين بنظير ما كان يسوسه به شيخه ايام بدايته من تأليف المريد بالكلام الحلو والاحسان اليه، ومسارقته بالنصح شيئاً فشيئاً، حتى يميل بالمحبة للشيخ، ويصير والداً له في الولادة الطبيعية التي هي اول عمر الانسان الحقيقي، فان حكم المريد قبل دخوله في طريق اهل الله الحقيقية، لهو حكم الذي لم يولد، كما اشار اليه قول عيسى عليه الصلاة والسلام: لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين. وقد اشار الى ذلك سيدي علي بن وفا بقوله عن المتمشيخين في عصره بغير حق:

تمشيخوا من قبل ان يوجدوا   فعمرهم ضاع ولم يولدوا
حال عليهم حال اهلاكهم   من شاخ فالسموت له مرصد
وهل نفوس همها وهمها   الا بوادٍ وهمها مبعد
مشوا مكبين على وجههم   عمياً عن العلياء لا يهتدوا
قد حسبوا الارض سماء لهم   فاستقربوا ما هو مستبعد
وكل ما مالوا بأهوائهم   قالوا صعدنا وهم اخلد
فاعجبْ لمن شاخوا على صغرهم   في ارذل العيش سواء يجهدوا
رضوا بأن يعتقدوا سادة   وهمْ لادنى وهمهم اعبُد

فلا تحاول طبهم انهم لكل من خالطهم يفسدوا
وقل سلام واعتزل امرهم وافقد عليماً فقده احمد

الى آخر ما قال. فعُلم ان من لم يكن عنده سياسة للمريدين واحسان لهم، وصبر على تلويناتهم وتغييراتهم، لا يفلح على يده الا النادر. ولما أنفت نفس داود نبي الله ﷺ من مجالسة عصاة بني اسرائيل غيره لجناب الله عز وجل وهجر مجالستهم، اوحى الله تعالى اليه يا داود المستقيم لا يحتاج اليك، والاعوج قد أنفت عن تقويمه فلم اذاً ارسلت؟ فتنبه داود لامر آخر كان عنه غافلاً، وصار يطبخ لهم الطعام ويدعوهم، ويذهب الى زيارتهم في دورهم، ويسارقهم بالمواعظ شيئاً فشيئاً، حتى اهتدى به خلق كثير من بني اسرائيل، فاعمل يا اخي على ذلك والله تعالى أعلم.

ومن شأنهم هضم نفوسهم على الدوام، فلا يرون ان شيئاً من اعمالهم يرضي الله تعالى في ساعة من ليل او نهار، بل يرون دائماً انهم قد استحقوا الخسف والمسخ لصورهم، حتى كان ابو يزيد رضي الله عنه كلما يستيقظ من نومه يمسح وجهه فوراً، فقيل له في ذلك، فقال اخاف ان يكون الحق تعالى مسخ صورتي صورة كلب او خنزير لسوء ما أتعاطاه.

وكان سريّ السقطي يقول: اني لانظر الى انفي في اليوم كذا كذا مرة مخافة ان يكون قد اسود وجهي، وانا غافل عن مراقبة الادب مع الله، وكان كثيراً ما ينظر وجهه في المرآة لاجل ذلك.

وكان معروف الكرخي يقول: أشتهي ان اموت ببلد غير بغداد خوفاً ان لا يقبلني قبري فأفتضح ويسيء الناس الظن بأمثالي.

وممن أدركناه على هذا القدم سيدي الشيخ علي النبتيتي البصير، وتلميذه سيدي علي البحيري والشيخ محمد المنير، وسيدي علي الخواص، وشيخ الاسلام زكريا، وشيخ الاسلام نورالدين الطرابلسي الحنفي، والشيخ عبد الحليم بن مصلح رضي الله عنهم اجمعين، فكان سيدي علي النبتيتي اذا قام من الليل يفحص ويبكي كالطير المذبوح، ويقول يا رب لا تهلك اهل هذه البلاد بذنوبي، وكان يقول: لو خسف الله تعالى بمصر وقراها بسبب ذنوبي لكان قليلاً انتهى.

فلا تظن يا أخي ان احداً من القوم يرى انه من الصالحين ابداً، وان وقع انه رأى ذلك استغفر منه.

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول: والله لو حلف شخص ان اعمال الحسن

اعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت له صدقت يا اخي لا تكفر يمينك. وقد طلب بعض الفقراء وقوع كرامة من سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه فقال لهم: يا اولادي وهل ثم لعبد العزيز في القرن السادس اعظم من ان الله تعالى يبقي الارض ولا يخسفها به، وقد استحق الخسف به من أزمان! ثم قال: ما ارفع رجلي على الأرض وأردّها اليهاوأجدها، الا شكرت الله تعالى على ذلك. وفي رواية اخرى انه كان دائماً قلقاً فقيل له في ذلك فقال اني اخاف من الخسف بي في كل لحظة.

وسمعت سيدي علي الخواص يقول: لا يستبعد الخسف بـه في هذه الايـام الا كل مغرور، فقد خسف الله تعالى بقوم كانت ذنوبهم دون ذنوبنا بيقين، فروى الامام احمد والبزار مرفوعاً: بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين اخضرين يختال فيهما، امر الله تعـالى الارض فاخذته، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة. وفي رواية: بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه اذ خسف الله تعالى به الارض، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة. قال ابن عباس وذلك بزقاق أبي لهب بمكة، وممن رآه حين خسف به العباس رحمه الله.

وروى البزار ورواته رواة الصحيح مرفوعاً: ان رجـلاً كان في حلة حمـراء يتبختر او يختال، فخسف الله تعالى به الارض، يتجلجل فيها الى يوم القيامة.

وروى الترمذي وغيره مرفوعاً: يبيت قوم من هذه الامة على لهو ولعب، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير. وفي رواية للترمذي: يبيت قوم على لهو ولعب، فبينما هم كذلك اذ خسف الله بأولهم وآخرهم.

وروى الامام احمد وغيره مرفوعاً: يبيت قـوم من هذه الأمـة على طعم وشرب ولهـو ولعب، فيصبحون قد مسخوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقذف، حتى يصبح النـاس فيقولون خسف بدار فلان، وليرسلن عليهم حجارة من السماء، كما ارسلت على قوم لوط، على قبائل فيها وعلى دور. وليرسلن عليهم الريح العقيم التي اهلكت عاداً على قبائل فيها وعلى دور، بشربهم الخمر ولبسهم الحرير، يمسخ منهم قردة وخنازير ليوم القيامة.

فانظر يا اخي بعين الانصاف الى هذه الامور التي وقع الخسف بأهلها، تجدها دون ذنوبنا بيقين. فكم نظر احدنا الى عطفيه حين لبس صوفاً جديداً مثلاً، وكم نظر الى عمامته بعد ان عممها على رأسه من غير غرض شرعي! وكم يتبختر في مشيته رافعاً نفسه على اقرانه! وكم بات احدنا على لعب واكل وشرب ولهو، مصرّاً على كثير من المعاصي، وكم وكم وكم! فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. وصاحب هذا المقام لا يصير له رأس ترفع بين الناس، وربما استحى ان يجالس احداً من المسلمين، لا سيما في المحافل، كالمحافل الدينية وختوم

الدرس، فإذا أحضر في مثل ذلك ذاب خجلاً وحياء، وتمنى ان الأرض تبلعه، كما يعرف ذلك كل من ذاق مذاق العارفين. فاعذروا ايها الاخوان من دعوتموه من الفقراء الى حضور محفل وأبى، فربما كان مقامه شهود نقائصه وعيوبه، واذا جلس بين الناس جلس كأن عورته مكشوفة، ولا يجوز لكم حمله على التكبر، كما بسطنا على ذلك آخر المنن الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك آخر كتاب لواقح الانوار القدسية في بيان قواعد الصوفية والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله.

قال مؤلفه: وكان الفراغ من تأليفه في عشر من ذي الحجة سنة إحدى وستين وتسعماية بمصر المحروسة، والله اعلم.

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة